الإنسانية في الروايات العربية المعاصرة في العراق
مع إشارة خاصة إلى روايات الحرب المختارة

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدمها

محمد شان

تحت إشراف

الدكتور. يوسف وي كي

الأستاذ المساعد، قسم الماجستير في اللغة العربية

كلية WMO، موتيل، وايناناد

ومشرف البحوث، قسم اللغة العربية، كلية روضة العلوم العربية،

فاروق، كاليكوت، كيرالا، الهند

قسم اللغة العربية، كلية روضة العلوم العربية، فاروق

جامعة كاليكوت

كيرالا – الهند

2026م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الباب الأول : الروايات العربية في العراق	١٦
الفصل الأول : الرواية؛ نشأتها وتطورها	١٨
الفصل الثاني : الروايات العربية وخصائصها	٣٦
الفصل الثالث: الروايات العربية في العراق	٥٠
الباب الثاني : تأثير الحروب في الأدب العراقي	٧١
الفصل الأول : الحروب الخليجية وانعكاسها على الأدب العراقي	٧٣
الفصل الثاني : الغزو الأمريكي على العراق وتحول الخطاب الأدبي	٨٥
الفصل الثالث : مختارات من الأدب العراقي في ظل الحروب	١٠٣
الباب الثالث : الروايات العراقية وحالة المجتمع قبل الحروب وبعدها	١١٦
الفصل الأول : الحياة الاجتماعية في الروايات العراقية.	١١٩
الفصل الثاني : المكان والهوية في الروايات العراقية	١٣٣
الفصل الثالث : التحولات الثقافية في المجتمع العراقي كما عكستها الروايات	١٤٦
الباب الرابع : الإنسانية؛ التعريف والتأثيرات	١٦٣
الفصل الأول : تعريف الإنسانية	١٦٥
الفصل الثاني : التأثيرات الاجتماعية: التفاعلات والعلاقات	١٨٤

الفصل الثالث : الإنسانية والأدب ٢٠٢

الباب الخامس: تجليات الإنسانية في الرواية العراقية الحربية المعاصرة ٢٢١

الفصل الأول : رواية "وحدها شجرة الرمان"؛ الإنسان في حضرة الموت ٢٢٣

الفصل الثاني : رواية "فرانكشتاين في بغداد"؛ الإنسان بين الانتقام والعدالة ٢٣٦

الفصل الثالث : رواية "ليل علي بابا الحزين"؛ الهروب من الذاكرة إلى اللا واقع ٢٥٣

الخاتمة ٢٦٦

المصادروالمراجع ٢٧٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد؛

هذه الأطروحة الموسومة بـ **"الإنسانية في الروايات العربية المعاصرة في العراق؛ مع إشارة خاصة إلى روايات الحرب المختارة"**، هي دراسة أدبية يقدمها الباحث إلى **جامعة كاليكوت** بولاية كيرالا الهندية لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، سعيًا للإسهام في تطوير المعرفة الأدبية والفكرية وفتح آفاق جديدة لفهم العلاقة بين الإنسان والرواية وبين التاريخ والخيال وبين الألم والأمل.

لقد شغل موضوع "الإنسان" و"الإنسانية" بال المفكرين والفلاسفة والأدباء منذ أقدم العصور إلا أن هذه المفاهيم أخذت أبعادًا جديدة في سياق ما خلفته الحروب الحديثة من دمار شامل على المستويين المادي والمعنوي. وأصبحت الرواية بما تملكه من طاقة سردية وتأملية أحد أبرز أشكال التعبير الأدبي عن صدمة الإنسان وضعفه وكفاحه من أجل الحفاظ على كرامته وسط عالمٍ متصادم. وفي السياق العراقي حيث تلاحقت الحروب والأزمات منذ نهاية القرن العشرين كان للأدب عامةً وللرواية المعاصرة خاصةً دور بارز في توثيق هذه المآسي الإنسانية وتحويلها إلى مادة سردية تحمل أبعادًا رمزية وفكرية وجمالية تتجاوز الحدث العابر إلى المعنى العميق.

لقد مرّ الأدب العربي بمراحل متباينة، اتسم كل منها بجملة من القضايا والموضوعات والهموم إلا أن الرواية بوصفها أكثر الأنواع الأدبية مرونةً وانفتاحًا على الحياة. أصبحت الرواية في العصر الحديث مرآة للواقع ومنصة سردية لعرض القضايا الوجودية والأخلاقية التي تواجه

الإنسان العربي عمومًا، والإنسان العراقي خصوصًا. فهي لا تكتفي بتوثيق الأحداث بل تعيد تشكيلها وتفكيكها وتفسيرها في ضوء التجربة الذاتية والجماعية، وتؤسس لنموذج أدبي يوازن بين التخيل والواقع.

1. تحليل العنوان

يتكون عنوان البحث من ثلاثة محاور رئيسة، لكل منها دلالاته المفهومية والجمالية.

أ. مفهوم "الإنسانية"

الإنسانية في هذه الدراسة لا تُفهم فقط كقيمة أخلاقية محايدة بل كمنظومة فكرية وأدبية، وهي تعبر عن أرقى مظاهر الرحمة والكرامة والعدل والتضامن البشري في مواجهة الهمجية والانهيار. وقد عرفها البعض بأنها "الإيمان الجذري بقيمة الإنسان وحقه في الحياة الكريمة والسعي للحد من معاناته"[1]. ولعل ما يميز هذه القيمة في سياق الرواية العراقية هو تشكّلها في ظل أزمنة القهر حيث تصبح أفعال مثل دفن الموتى، أو الصمت أمام الدمار أو رفض الانتقام إشارات سردية لتمسك الإنسان بجوهره رغم محاولات نزع إنسانيته.

ب. الروايات العربية المعاصرة في العراق

الرواية المعاصرة بما تمتلكه من مرونة في التشكيل السردي والانفتاح على الذات والآخر والمزج بين التوثيق والتخيل وأصبحت أداة فعّالة لفهم المجتمع وتحولاته. وفي العراق جاءت الرواية لتكون رد فعل على سلسلة من الأحداث المفجعة، مثل الحروب الحصار الاحتلال والاقتتال الطائفي. ومن خلال هذه التجارب ولدت روايات تقف مباشرة مع الإنسان الجريح وتطرح أسئلة معقدة حول الهوية والانتماء والمصير والعدالة.

[1] د. مروان ياسين، الإنسانية كقيمة أخلاقية في الأدب العربي الحديث، الجامعة الأردنية، 2017.

تتميز الرواية العراقية المعاصرة باستخدام لغة مزدوجة؛ إحداها توثيقية تُحاكي الواقع وأخرى رمزية تتجاوز الحدث نحو جوهر التجربة. ويُلاحظ أن أغلب الكتاب المعاصرين استخدموا تقنيات حديثة مثل "السرد المتعدد والاسترجاع والتناص والتقاطع بين الواقعي والمتخيل"[2] مما ساهم في بناء رؤية روائية شاملة عن الإنسان في زمن التصادم.

ج. روايات الحرب المختارة

ثلاث روايات تم اختيارها للتحليل في هذه الأطروحة، تمثل نماذج سردية عالية في مقاربتها لتجربة الإنسان العراقي في ظل الحرب.

- الرواية الأولى رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون، وهي التي تتناول عبر شخصية "جواد" تجربة التعايش مع الموت في عمله بغسل الجنازة وتكفين الجثث، وتعيد تأويل مفاهيم الطهارة والحياة والتحدي من خلال طقوس الموت نفسها[3].
- الرواية الثانية رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي، حيث يتحول الجسد إلى كيان مركب يُطالب بالعدالة ويعيد رسم حدود الإنسانية في مدينة مفككة.
- الرواية الثالثة رواية "ليل علي بابا الحزين "لعبد الخالق الركابي، وهي تسلط الضوء على علاقة الإنسان بالبيت والمدينة والذاكرة وعلى كيف تُشكل الحرب انفصامًا داخليًا يدفع بالأفراد نحو اللا واقع كآلية دفاع نفسي[4].

[2] تقنيات السرد في الرواية العراقية المعاصرة"، مجلة جامعة بغداد، 2018.

[3] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل بيروت، 2010.

[4] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، دار المدى، بغداد، 2008.

2. بواعث البحث

يدرك الباحث أن موضوع الإنسانية في الروايات العربية في العراق جدير بالدراسة والبحث، لما حملته هذه الروايات من انعكاسات عميقة على واقع المجتمع العراقي في فترات الحرب وما بعدها. فقد تناول العديد من الروائيين العراقيين قضايا الإنسان الممزق بين أهوال الحرب وأحلام السلام، وسلطوا الضوء على معاناة الفئات المهمشة من ضحايا العنف والتهجير والفقر بأسلوب فني يجمع بين الواقعية والرمزية.

تنبع أهمية البحث من أن الرواية العراقية المعاصرة لم تكتفِ بتوثيق أحداث الحرب، بل تجاوزت ذلك إلى تساؤلات عن القيم الإنسانية، وإبراز قدرة الأدب على إعادة بناء الهوية الفردية والجماعية في ظل الانكسارات التاريخية. كما أن اختيار روايات الحرب المختارة يتيح الكشف عن البعد الإنساني العميق الذي يعكس معاناة الشعب العراقي، ويظهر كيف استطاع الأدب أن يتحول إلى شهادة حية على الألم والأمل في آنٍ واحد. إن دراسة هذا الجانب تمثل إضافة نوعية للمشهد النقدي العربي، وتفتح مجالاً لفهم أعمق للعلاقة بين الأدب والحياة في العراق من خلال عدسة إنسانية تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية.

3. أسباب اختيار الموضوع

تم اختيار موضوع "الإنسانية في الروايات العربية المعاصرة في العراق؛ مع إشارة خاصة إلى روايات الحرب المختارة" استجابةً لحاجة أدبية ووجدانية ملحّة، فرضتها التحولات التاريخية والثقافية التي عاشها العراق في العقود الأخيرة خاصةً بعد الغزو الأمريكي عام 2003م وما تلاه من تداعيات إنسانية ومجتمعية عميقة. وتكمن أهمية هذا الاختيار في تعدد أبعاده، حيث يجمع بين التحليل الأدبي والفهم النفسي والتأمل الفلسفي، إلى جانب استنطاق الرواية بوصفها مرآة تعكس تفاصيل الإنسان الهارب من الحروب إلى ذاته.

إن تناول هذا الموضوع يمنح الباحث فرصة لفهم كيفية تعامل الأدباء العراقيين المعاصرين مع سؤال "الإنسان في الحرب" لا بوصفه ضحيةً أو ناجيًا، بل ككائنٍ يبحث عن المعنى ومن الجانب الأدبي فإن هذا الاختيار يُعدّ نافذة لتحليل سرديات معاصرة تتجاوز الأسلوب التقليدي عبر تقنيات متعددة الأصوات واللغة الرمزية وتكسير الزمن الخطي وكلها أدوات يستخدمها الروائيون العراقيون لتصوير عمق التجربة الإنسانية في زمن الموت الجماعي[5]. أما من الجانب الاجتماعي والتاريخي فإن الحرب ليست حدثًا عابرًا بل بنية متواصلة من الألم والاختلالات، والرواية قادرة على توثيق هذا الزمن الرمادي عبر رصد التحولات التي طرأت على الحياة اليومية والعلاقات والانفعالات. وهذا ما يجعل من الرواية وثيقة مضادة "للخطاب التاريخي الرسمي"[6] تسرد الأحداث من وجهة نظر الإنسان المجهول، المتروك في الهامش. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما حفّز الباحث أيضًا هو أن العديد من الدراسات السابقة لم تُعطِ مفهوم "الإنسانية" حقّه بوصفه بؤرة مركزية للسرد بل تم تناوله ضمنيًا في إطار النقد الاجتماعي أو التوثيق السياسي، دون التوسع في رمزيته النفسية والفلسفية.

تتجلى أهمية هذا الموضوع في استكشاف أثر الحرب على البنية النفسية للفرد من خلال صور الحزن على المستوى النفسي، والإنكار والانفصام والصدمة مما يفتح المجال لتحليل الشخصية الروائية وفق نظريات الصدمة والتأقلم كما عند "جواد قاسم" في وحدها شجرة الرمان، و"الشّسمة" في فرانكشتاين في بغداد، حيث يتحول الجسد ذاته إلى موقع للذاكرة المكسورة والخوف المقيم[7]. فإن الحرب تطرح أسئلة لا تنتهي حول معنى التضحية والخيانة

[5] حسن ناظم، الرواية العراقية الحديثة: التحول في البنية والسرد بعد 2003، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2015.

[6] Hayden White, The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation, Johns Hopkins University Press, 1987.

[7] Aamir Mufti, Forget English! Orientalism and World Literatures, Harvard University Press, 2016.

والغفران والعدالة حينما نراها فى منظور فلسفي وأخلاقي. وهذه القضايا الأخلاقية تشكّل لبّ هذه الروايات مما يجعل هذا البحث محاولةً لفهم البُعد القيمي والوجودي في النص الأدبي بعيدًا عن التناول السياسي المباشر. كما أن اختيار هذا الموضوع يُعدّ أيضًا مساهمةً في إبراز الهوية الثقافية العراقية التي عانت من التهميش في الدراسات الأكاديمية ويسعى البحث عبره إلى إعادة الاعتبار لأدب يعكس روح المقاومة الرمزية والانتماء الإنساني في ظل الكارثة. ومن جانب أكاديمي فإن البحث يفتح مجالًا خصبًا في حقل دراسات الأدب ما بعد الكارثة ويُعدّ محاولة لسدّ فراغ بحثي حقيقي حيث لم تحظَ "الإنسانية بوصفها قيمة أدبية وتحليلية" بالاهتمام الكافي في تحليل الرواية العراقية الحديثة[8]. وأخيرًا فإن تأثير الحروب العراقية لم يكن محليًا فحسب بل امتد عالميًا سواء من خلال النزوح والهجرة أو من خلال تقاطع السياسة الدولية وهو ما يجعل قراءة هذه الروايات من منظور إنساني عالمي أمرًا مهمًا لفهم "الإنسان في عالم متصادم" وربط الرواية العراقية بأدب الحروب العالمية من حيث القضايا الكبرى مثل الخسارة والهوية والنجاة .إن اختيار هذا الموضوع إذًا لم يكن فقط تلبيةً للاهتمام الشخصي والوجداني للباحث بل جاء استجابة لحاجة نقدية راهنة لإعادة قراءة الأدب العراقي المعاصر بوصفه "أدبًا إنسانيًا بامتياز" قادرًا على منح الصوت لمن لا صوت لهم، وتوثيق التجربة من داخل النفس البشرية لا من خارجها، ليكون هذا البحث محاولة جادة فى مجال الأفق الأدبي والبحثي.

[8] عبد الجليل حسن، "الهوية والكرامة في السرد العربي ما بعد الحرب"، مجلة الدراسات الإنسانية، جامعة بغداد، العدد 22، 2019.

4. أهمية البحث

يهتم هذا البحث في المستويات الأكاديمية لشمولية أبعاده وتنوع مستوياته، حيث يتقاطع مع مجالات متعددة تشمل الأدب وعلم الاجتماع والتاريخ والفكر الفلسفي وعلم النفس.

أ. الإسهام الأدبي

إن تناول الأدب العراقي المعاصر من خلال منظور الإنسانية يفتح مجالًا جديدًا لفهم تحولات الكتابة السردية خاصةً في ظل تكرار التجربة العراقية مع الحرب والدمار. كما في تحليل السرديات التي تحمل صوت الإنسان المقهور في ظل الحرب وتتجاوز الطابع التقريري إلى بعد رمزي وأخلاقي مركب. ويُسهم البحث في إبراز أصوات جديدة من الروائيين العراقيين الذين جسّدوا تجربة الإنسان المعذب، ويدعم حركة النقد الأدبي المعاصر ويشجع على تناول أدب الحرب بنظرة جديدة.

ب. البعد الثقافي والاجتماعي

تكشف الروايات التي تم اختيارها للتحليل عن بنية ثقافية مضطربة تعكس أزمة الهوية والعدالة والعلاقات الاجتماعية في المجتمع العراقي بعد الغزو. ومن خلال هذا البحث يمكن فهم كيف يتفاعل الإنسان مع القهر الجماعي "وكيف يعيد المجتمع إنتاج علاقاته الاجتماعية تحت ضغط الخوف والدمار"[9]. وتُبرز الروايات كذلك قدرة الفرد على التكيّف أو انهياره أمام الظروف القاسية ما يفتح المجال لتحليل اجتماعي معمق للواقع العراقي من خلال النص الأدبي.

[9] عبد الجبار عباس، "الرواية العراقية كمرآة للتشظي الاجتماعي"، مجلة الأقلام، بغداد، 2017.

ج. البعد التاريخي والسياسي

الرواية الحديثة كما هو معروف ليست مجرد تخيل بل هي شكل من أشكال التوثيق الثقافي والشخصي للتاريخ. ومن خلال هذا البحث يمكن التعرف على "كيف قامت الروايات العراقية بإعادة سرد التاريخ من وجهة نظر الضحايا لا من خلال خطاب الدولة أو المنتصر"[10]. وهذا ما يجعل الأدب وثيقة بديلة تقدم سرديات مضادة للخطاب الرسمي وتفتح أعين القارئ على التجارب الشخصية غير المرئية.

د. البعد النفسي

تحفل الروايات المختارة بتجارب نفسية مؤلمة ومركبة تعكس "الانكسار الداخلي للإنسان ومعاناته مع الفقد والانفصال واضطراب الهوية"[11]. ومن خلال تحليل هذه العناصر يمكن الوصول إلى قراءات مفيدة في علم النفس الأدبي خاصة فيما يتعلق بفهم ما بعد الصدمة وآليات الدفاع النفسي واستراتيجيات النجاة الرمزية. وهذا ما يجعل البحث ذا قيمة في حقل الدراسات النفسية الأدبية.

هـ. البعد الأخلاقي والفلسفي

يفتح هذا البحث حوارا فلسفيا حول معنى الإنسانية في زمن لا نستطيع ان ندركه، ويُعد من أبرز مظاهر أهمية هذا البحث إذ يناقش الأخلاق التي تنشأ في عالم فقد توازنه. وتطرح الروايات المختارة تساؤلات عميقة عن "إذا كانت العدالة تتحقق بالثأر أم بالعفو وإذا كانت الحياة تستحق أن تُعاش في ظل فقدان المعنى"[12]. هذه الأسئلة تفتح مجالًا فلسفيًا معاصرًا لفهم الإنسان في مواجهة العنف المطلق.

---

[10] Edward Said, Culture and Imperialism, Vintage Books, 1993.

[11] أمل الخطيب، الأدب والصدمة النفسية: قراءة في أدب الحروب، مجلة علم النفس الأدبي، القاهرة، 2020.

[12] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، بيروت، 2013.

5. الدراسات السابقة

لا توجد دراسات سابقة -حسب اطلاع الباحث- تتناول موضوع "الإنسانية في الروايات العربية المعاصرة في العراق مع إشارة خاصة إلى روايات الحرب المختارة" بشكل مباشر ومتكامل، إلا أنّ هناك العديد من الدراسات والأبحاث التي لامست الموضوع بصورة جزئية أو غير مباشرة، سواء من خلال تناولها للرواية العراقية في سياق الحروب، أو من خلال تحليلها للأبعاد الإنسانية في الأدب العربي الحديث. ومن أبرز هذه الدراسات ما يلي:

- عبد الله إبراهيم: المتخيّل السردي الرواية في العراق بعد 2003، حيث يناقش تطور الرواية العراقية في سياق الاحتلال والحروب وما تركته من أثر على البنية السردية والبعد الإنساني للشخصيات. (المركز الثقافي العربي، 2010).
- لؤي حمزة عباس وغانم حميد عبودي: تمثلات العنف والموت في الرواية العراقية ما بعد 2003، دراسة منشورة في مجلة جامعة ذي قار المجلد، ذى قار، العراق
- سعيد الغانمي: الهوية والذاكرة في السرد العراقي، يبحث في علاقة السرد العراقي بالذاكرة الجماعية وتجليات المعاناة الإنسانية. (الدار العربية للعلوم، بيروت، 2012).
- رحيق غسان كامل أبو زينة: "رواية فرانكشتاين في بغداد لأحمد سعداوي دراسة نقدية تحليلية" رسالة لدرجة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

6. أهداف البحث

- التعرف على نشأة الرواية العربية وتطورها وخصائصها في العراق.
- إبراز تأثير الحروب (الخليجية والأمريكية) على الأدب العراقي وتحول خطابه.

- دراسة انعكاس المجتمع العراقي في الروايات قبل الحروب وبعدها من خلال القضايا الاجتماعية والثقافية والهوية.
- تحديد مفهوم الإنسانية وصلته بالأدب ودوره في تشكيل الوعي الاجتماعي.
- تحليل تجليات القيم الإنسانية في الروايات العراقية الحربية المعاصرة (وحدها شجرة الرمان، وفرانكشتاين في بغداد، وليل علي بابا الحزين)

7. مشكلة البحث

تتمثل مشكلة هذا البحث في محاولة الإجابة عن سؤال مركزي وهو كيف تجسّدت الروايات العراقية المعاصرة وبشكل خاص روايات الحرب مفهوم "الإنسانية" في سياقات الحروب والنزاعات التي شهدها العراق خلال العقود الأخيرة؟ تكمن أهمية هذا السؤال في أنه يتقاطع مع قضايا الهوية والألم والعدالة والكرامة مما يمنح الرواية بُعداً توثيقياً وإنسانياً وفلسفياً في آنٍ معاً. وتتفرع من هذه الإشكالية العامة عدة مشكلات فرعية.

يمكننا تلخيص مشكلة البحث كما هي:

- كيف استطاعت الرواية العراقية أن تجعل الإنسانية (كالكرامة والعدالة والرحمة) من القيم محوراً مركزياً في بنية السرد الروائي؟
- بأية آليات فنية وسردية تمكنت من خلق وعي نقدي وإنساني يكشف القسوة واللاعدالة ويقدم نماذج تحمل ضمير الأمة؟
- إلى أي مدى ساهم توظيف الرمزي إلى جانب الواقعي في إبراز صورة الإنسان الممزق بين الحرب والبحث عن العدالة؟

- كيف تجاوزت الرواية العراقية حدود المحلية لتطرح قضايا كونية تتقاطع مع تجارب إنسانية عالمية في الحروب؟
- وهل تمثل الإنسانية في هذه الروايات خياراً أخلاقياً وفكرياً للفرد في مواجهة الآخر، أم أنها قيمة مأزومة يتم البحث عنها في فضاء مليء بالعنف والتشظي؟

8. منهج البحث

- **المنهج الوصفي التحليلي:** يعتمد الباحث هذا المنهج لدراسة وتحليل المظاهر الإنسانية في الروايات العراقية المعاصرة وخاصة في الروايات التي تناولت موضوعات الحرب والصراع من خلال تتبع الشخصيات والأحداث والبنية السردية.
- **المنهج النوعي:** يركز على التحليل النوعي للنصوص الروائية المختارة من حيث تطور الشخصيات وأنماط السرد والصراعات الداخلية والخارجية ومدى تمثيلها للقيم الإنسانية مثل الكرامة والتعاطف والعدالة والهوية.
- **المنهج التاريخي:** يستخدم هذا المنهج عند الحاجة لربط السياق الاجتماعي والسياسي للحرب والاحتلال في العراق وتأثير ذلك على تطور الرواية العراقية المعاصرة وفهم خلفيات الأحداث والشخصيات في النصوص.
- **التحليل النصي:** يقوم الباحث بتحليل دقيق للروايات المختارة باستخدام أدوات النقد الأدبي للكشف عن الدلالات الرمزية والإنسانية في النصوص مثل معاناة الفرد، والفقد، والغربة، والتمزق النفسي.

9. خطة البحث

تبدأ الدراسة بمقدمة شاملة تُمهّد للموضوع حيث يتم عرض خلفية البحث وتحليل عنوان الدراسة "الإنسانية في الروايات العربية المعاصرة في العراق مع إشارة خاصة إلى روايات الحرب المختارة" مع توضيح دقيق لما تعنيه مفردات العنوان في سياق الحرب وأدبها. تتناول المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته من الناحيتين الأدبية والثقافية بالإضافة إلى مراجعة موجزة لأبرز الدراسات السابقة مع التركيز على ما يميز هذا البحث من حيث الجدة والتركيز على البعد الإنساني في الروايات المختارة. كما تحدد المقدمة مشكلة البحث بوضوح، وإضافة تعرّف الأهداف المرجوة منه، وتعرض المنهجية التي ستُتبع. وتختتم بكلمة شكر وامتنان لكل من ساهم في دعم هذا العمل مما يضفي على البحث طابعًا أكاديميًا وإنسانيًا في الوقت نفسه.[13]

10. تبويب البحث

يبدأ البحث بالباب الأول بعنوان "الروايات العربية في العراق" فيه ثلاثة فصول: يتحدث الفصل الأول عن نشأة الرواية وتطورها، والفصل الثاني يعرض خصائص الروايات العربية، كما يركز الفصل الثالث على الروايات العربية في العراق.

ويأتي الباب الثاني بعنوان "تأثير الحروب في الأدب العراقي" حيث يضم ثلاثة فصول: الأول حول الحروب الخليجية وانعكاسها على الأدب العراقي ويتحدث الفصل الثاني عن الغزو الأمريكي للعراق وتحول الخطاب الأدبي، أما الفصل الثالث فيعرض مختارات من الأدب العراقي في ظل الحروب.

عنوان الباب الثالث "الروايات العراقية وحالة المجتمع قبل الحروب وبعدها" وهو يحتوي على ثلاثة فصول: الأول عن الحياة الاجتماعية في الروايات العراقية، والثاني يتناول المكان والهوية

[13] الجندي، أحمد. "مقدمة في دراسات الأدب العراقي المعاصر"، دار الفرات، 2018، ص. 12-20

في الروايات العراقية، أما الثالث فيتحدث عن التحولات الثقافية في المجتمع العراقي كما عكستها الروايات.

يتحدث الباب الرابع عن الإنسانية تعريفا وتأثيرا، فيه ثلاثة فصول: الأول يقدم تعريف الإنسانية، والثاني يعرض التأثيرات الاجتماعية من خلال التفاعلات والعلاقات، أما الفصل الثالث يربط بين الإنسانية والأدب.

والباب الخامس وهو والأخير يجيئ بعنوان "تجليات الإنسانية في الرواية العراقية الحربية المعاصرة" يتناول هذا الباب ثلاثة فصول تطبيقية: الأول عن رواية "وحدها شجرة الرمان" من زاوية حضور الإنسان في مواجهة الموت، والثاني يدرس رواية "فرانكشتاين في بغداد" في إطار الإنسان بين الانتقام والعدالة، بينما يعرض الفصل الثالث والأخير رواية "ليل علي بابا الحزين" بوصفها تجسيداً للهروب من الذاكرة إلى اللا واقع.

وتختتم الدراسة بخاتمة تلخص أهم النتائج التي توصل إليها الباحث وتبرز مدى نجاح الأدب العراقي المعاصر في تجسيد الإنسانية في أوقات الحرب. كما تشير إلى الأثر الذي تتركه هذه الروايات في الوعي الجماهيري والثقافي، وتسليط الضوء على أهمية الحفاظ على القيم الإنسانية وسط ويلات الحروب. بالإضافة إلى ذلك، وتقدم الخاتمة توصيات لدراسات مستقبلية، مشددة على ضرورة الاستمرار في البحث في الأدب العراقي الحديث وتأثيراته النفسية والاجتماعية والأخلاقية.[14]

11. كلمة الشكر

يقدم الباحث بأجزل الشكر والتقدير لكل من ساعده على إتمام هذه الدراسة. والشكر والامتنان أولا للمشرف المحترم الدكتور "يوسف وي كي" (يوسف محمد الندوي) لتفضله

[14] يوسف الخالدي، "دور الأدب في تشكيل الوعي الإنساني في الحروب"، مجلة الدراسات الثقافية، 2022، ص. 45-60

بالإشراف على هذا البحث. وله الفضل الكبير في التوجيه والإرشاد إلى طريق العلم الصحيح، ورغم انشغالاته الكثيرة لم يبخل على الباحث بالنصائح والإرشادات القيمة، كما يقدم الشكر البالغ إلى الأستاذ "شهد بن علي" عميد كلية روضة العلوم العربية على تشجيعه القيم لإتمام هذا البحث، والشكر موصول أيضاً إلى الدكتور أبوبكر الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية في كلية روضة العلوم العربية و إلى الدكتور "عبد الرحمن الآدرشيري" العميد السابق لكلية روضة العلوم العربية وإلى الدكتور "أيمن شوقي" رئيس قسم اللغة العربية السابق في كلية روضة العلوم العربية وإلى جميع الأساتذة في كلية روضة العلوم العربية الذين قدموا التشجيع للباحث للفهمى قدما في هذا البحث.

ولا يمكن للباحث أن يبخل إبداء الشكر والامتنان لأمين مكتبة كلية روضة العلوم العربية السيد شريف الذي ساعده فى أكثر الأوقات بتوفيره للكتب والمراجع. وللسيدة "نهى السر" وللدكتور "جمشير الفاروقي" والدكتور "أسامة" والدكتور "عزالدين" والدكتور "شرف الدين" الذين ساعدوا الباحث في مهمته. وكذلك لا ينسى الباحث دور الأصدقاء الذين ساعدوا في هذا البحث بقدر الامكان ومهّدوا جميع السبل لإتمام هذا البحث، فلهم جزيل الشكر والتقدير.

ختاما هذه هي محاولة بسيطة في مجال البحث الأدبي، ولا يدعى الباحث أن هذ البحث عمل كامل خال من كل نقص، بل أبذلت كل الجهد فى هذا المجال العلمي، فالكمال لله وحده. ويرجو الباحث أن تكون هذه الدراسة بابا مفتوحا للطلبة والباحثين في هذا المجال. كما يرحب بالآراء والنقاش المتعلق بالموضوع من المهتمين بالموضوع، ليكون عونا وغنى للرواية العربية والأدب وفي مجال القيم الإنسانية ويتمنى التوفيق والنجاح لكل من له دور وإسهام في هذا المجال والحمد لله رب العالمين.

الباحث محمد شان

الباب الأول
الروايات العربية في العراق

الفصل الأول : الرواية؛ نشأتها وتطورها

الفصل الثاني : الروايات العربية وخصائصها

الفصل الثالث : الروايات العربية في العراق

الباب الأول
الروايات العربية في العراق

إن الرواية من أبرز الفنون الأدبية التي شهدت تطورًا كبيرًا في العالم العربي خصوصا في القرن السابق. حيث أصبحت الروايات مرآة للواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي وتحمل في طياتها هموم الإنسان العربي وأحلامه وتاريخه. وقد بدأت الرواية بشكل متواضع في العالم العربي لكنها تطورت عبر مراحل متعددة، متأثرة بالتحولات الكبرى التي مرت بها المجتمعات، مثل الاستعمار والتحرر والتنمية والهجرة والنزاعات الداخلية.

يتحدث هذا الباب عن نشأة الرواية وتطورها عامة وفي العراق خاصة، حيث يسلط الضوء على الروايات العربية بشكل عام، قبل أن ينتقل إلى دراسة الروايات العربية في العراق بشكل خاص. والتي بهذا أهدف التدرج إلى فهم السياق العام لنشأة الرواية، ومن ثم الدخول في خصوصية الرواية العراقية التي تميزت بتجربتها الفريدة والمليئة بالأحداث.

يتطرق الفصل الأول إلى تاريخ ظهور الرواية عالميًا وعربيًا، ويرصد أهم مراحل تطورها والأسباب التي ساهمت في انتشارها مثل التغيرات الثقافية وظهور الطباعة وتزايد عدد القرّاء.

أما الفصل الثاني، فيتناول ملامح الرواية العربية من حيث الموضوعات التي تناولتها والأساليب الفنية التي استخدمها الكتّاب العرب والتحديات التي واجهت هذا الفن في بداياته ثم تحوّله إلى شكل أدبي مؤثر يعكس صوت المجتمع العربي.

ينتقل الفصل الثالث إلى العراق لنتأمل كيف نشأت الرواية فيه وما هي القضايا التي عبّرت عنها وكيف تفاعل الروائيون العراقيون مع واقعهم السياسي والاجتماعي خاصة في ظل الحروب والاحتلال والتحولات الكبرى التي أثرت على هوية الإنسان العراقي.

لذا يعتبر هذا الباب مدخلًا مهمًا لفهم الرواية العراقية ضمن إطارها العربي والعالمي ويُمهّد للغوص في أعماقها وتحليل مضامينها وأشكالها الفنية.

الفصل الأول
الرواية: نشأتها وتطورها

1. تعريف الرواية

إن الرواية هي قصة طويلة مكتوبة بشكل النثر. يقصد بها أن تُقرأ من أجل التسلية وتأتي كلمة "رواية" (Novel) من الكلمة الإيطالية "Novella" والتي تعني "جديد" أو "قصة قصيرة عن شيء جديد". وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية "Novella". الرواية أيضا نوع من أنواع القصص النثرية الخيالية وغالبًا ما تتسم ببنية سردية معقدة وشخصيات واقعية تمر بتطورات نفسية وشخصية رئيسية. تقول الناقدة الأدبية والعالمة مارغريت دودِي بأن "للرواية تاريخًا متصلاً وشاملاً يمتد لحوالي ألفي عام"[15]. وأن جذورها تعود إلى مجموعة واسعة من التقاليد الأدبية. فعلى سبيل المثال، تضمنت الرواية في العصرين اليوناني والروماني القديم سرديات طويلة ومقسمة إلى حلقات، وغالبًا ما استمدت موضوعاتها من الأساطير والحكايات الشعبية. أما الرواية الفروسية وهي نوع أدبي ازدهر في أوروبا في العصور الوسطى، فقد احتوت على حكايات عن الفرسان ومغامراتهم وغالبًا ما كانت تدور في أماكن خيالية أو غريبة.

ويمكن القول إن الرواية تمتلك تاريخًا عريقًا يمتد لأكثر من ألفي عاما. فقد ظهرت في العصرين اليوناني والروماني روايات طويلة تستند إلى الأساطير والحكايات الشعبية. وفي العصور الوسطى، تطورت الرواية الفروسية التي ركزت على مغامرات الفرسان في أماكن خيالية ويعكس هذا المسار تطور أشكال السرد التي ساهمت في تشكيل فن الرواية.

[15] Margaret Anne Doody, The True Story of the Novel, Rutgers University Press, reprint, 1996

أ. تعريف الرواية لغويا

الرواية لغةً القصة الطويلة والمنظر الحسن. إن صاحب معجم لسان العرب، عرَّف "الرواية بأنها تعود إلى مصدر "روي"، وتشير إلى مفهوم النقل والانتقال. وتستخدم الكلمة في سياقات متعددة، حيث يمكن أن تشير إلى نقل الأخبار أو نقل الماء، مما يدل على دورها في حفظ المعلومات أو توفير الضروريات من الماء"[16]

كلمة "رواية" تعرف في معجم المعاني الجامع هي القصة طويلة أو سرد نثريّ قصير ذو مغزى أخلاقيّ، وغالبًا ما يكون ساخرًا. وقد يكون الرواية طويلة بأجزاء تتّبع بشكل متسلسل تاريخ أجيال عِدّة أو مجتمع أو مجموعة. وعلم الرواية عند صاحب معجم المعاني الجامع هو "العلم الذي يعتمد فيه صاحبه على الرواية والنقل عن الغير، وليس له فضل في إضافة جديد إليه أو ابتكار شيء فيه".[17]

تعريف الرواية في قاموس أكسفورد، "الرواية كاسم تصف شيئاً جديداً ومختلفاً عن أي شيء معروف سابقاً، وفي بعض السياقات، تشير بالاسم الى قصة طويلة مكتوبة عن شخصيات وأحداث خيالية[18].

تعريف الرواية في قاموس كامبردج "الرواية كقصة طويلة مطبوعة حول شخصيات وأحداث خيالية، ويشير إلى أصلها الجديد، وأنها ليست مثل أي شيء معروف من قبل[19].

وبناء على هذه التعريفات، يمكننا القول بأن الرواية هي قصة طويلة تنقل أحداثًا أو أفكارًا بأسلوب نثري. يربط معجم لسان العرب الكلمة بمفهوم النقل والحفظ، بينما يوضح معجم

[16] ابن منظور وجمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة بولاق، 1300 هـ

[17] معجم المعاني الجامع، موقع المعاني، https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/، تم الدخول في 22 يوليو 2025.

[18] Oxford University Press. Oxford English Dictionary Online, https://www.oed.com/, accessed July 22, 2025

[19] Cambridge University Press. Cambridge Dictionary Online, https://dictionary.cambridge.org/, accessed July 22, 2025

المعاني أنها قصة تحمل مغزى أخلاقي أو تصور تطور مجتمع. أما قاموس أكسفورد وكامبردج فيركّزان على كون الرواية عملاً خياليًا مطبوعًا يعرض شخصيات وأحداثًا مبتكرة وغير مألوفة. يجمع الجميع على أن الرواية وسيلة للتعبير والسرد تجمع بين الخيال والمعنى.

ب. تعريف الرواية اصطلاحا

إن اصطلاح الرواية وتعريفها في السياق الأدبي يشير إلى أن "الرواية أسلوب سردي طويل ويتناول قصة قد تكون قائمة على شخصيات حقيقية أو خيالية. الرواية وهي تُعتبر نوعاً أدبياً يتضمن تكويناً معقداً للأحداث والشخصيات. يتيح للقراء معرفة تجارب متعددة عبر تسلسل متصل من الأحداث[20].

وبحسب هذا " فإن الرواية تُعتبر نوعاً أدبياً يروي قصة طويلة ومعقدة. تُظهر الرواية الأحداث من خلال مجموعة من الشخصيات، وتُعتبر وسيلة لتصوير التجارب الإنسانية وتوثيقها بصورة فنية."[21]

المعنى الاصطلاحي للرواية عند صاحب قاموس التراث الأمريكي "الرواية كشيء جديد أو فريد من نوعه، مضيفاً التركيز على الأصالة والتميّز في الأسلوب أو التعبير"[22]

إن مصطلح الرواية الحديثة يدل على شكل أدبي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مبتعدًا عن هياكل السرد الكلاسيكية السائدة في الأعمال السابقة. وفي حين أن الرواية كنوع أدبي كانت موجودة منذ قرون، "فإن الرواية الحديثة تتميز بخروجها عن

[20] معجم المعاني الجامع"، موقع المعاني، https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/، تم الدخول في 22 يوليو 2025.

[21] ابن منظور وجمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة بولاق، 1300 ه

[22] The American Heritage Dictionary of the English Language, 5th ed., Houghton Mifflin Harcourt Publishing Company, 2011.

مواصفات السرد التقليدية وتركيزها على التقاط تعقيدات التجربة الإنسانية في العالم الحديث المتغير بسرعة."[23]

إن إحدى السمات المميزة للرواية الحديثة هي استكشافها لنفسية الفرد. فبدلاً من الاعتماد على الأحداث والأفعال الخارجية فقط. يتعمق الروائيون المعاصرون في أفكار وعواطف ودوافع شخصياتهم مما يمنح القراء نظرة ثاقبة عميقة للحالة الإنسانية. إن السمة الرئيسية الأخرى للرواية الحديثة هي تجربتها مع تقنيات السرد. حيث أن وجهات النظر المتغيرة والسرد المتدفق والسرد غير الخطي والراوي غير الموثوق بهم هي بعض الأجهزة السردية المستخدمة بشكل متكرر لبناء شعور بالفورية والحميمية مع الشخصيات.

"علاوة على ذلك، غالبًا ما تركز الرواية الحديثة على الحياة اليومية وحياة الناس العاديين وتقدم تصويرًا أكثر واقعية للعالم. يسمح هذا التركيز على الواقعية للروايات الحديثة بالعمل كمرآة للمجتمع تعكس أفراح وصراعات وتعقيدات التجربة الإنسانية"[24]

لقد عكست الأشكال الأدبية السابقة الميل العام لثقافاتها إلى جعل التوافق مع الممارسة التقليدية هو الاختبار الرئيسي للحقيقة على سبيل المثال، كانت حبكات الملاحم الكلاسيكية وعصر النهضة تستند إلى التاريخ أو الأسطورة الماضية، وكانت مزايا معالجة المؤلف تُحكم إلى حد كبير وفقًا لوجهة النظر حول الآداب الأدبية المستمدة من النماذج المقبولة في هذا النوع. كانت الرواية أول وأكمل تحدي لهذه التقليدية الأدبية، حيث كان معيارها الأساسي هو الصدق للتجربة الفردية - التجربة الفردية التي تكون فريدة من نوعها وبالتالي جديدة. وبالتالي "فإن

[23] https://literaturelegends.com/defining-the-modern-novel/history-of-the-novel/ accessed July 22, 2025

[24] https://literaturelegends.com/defining-the-modern-novel/history-of-the-novel/ accessed July 22, 2025

الرواية هي الوسيلة الأدبية المنطقية لثقافة وضعت في القرون القليلة الماضية قيمة غير مسبوقة للأصالة، وللرواية؛ وبالتالي فهي تُسمى جيدًا".[25]

بالجملة أن الرواية هي نوع من أنواع النثر وهي قصة طويلة يعبر الكاتب فيها عند أفكاره أو آرائه أو خبرته وتكون خيالية أو واقعية حيث يصور الكاتب الحقائق المجتمعة في الرواية متأثراً كتابة بالأحداث الواقعية. يمكن أن تتناول الرواية موضوعات متنوعة مثل الحب والحروب والمجتمع والسياسة وغيرها.

يحكي الراوي في الرواية قصة شخصيات مختلفة ويتم تطوير الشخصيات والأحداث بشكل معمق ومتدرج، مما يتيح للكاتب استكشاف الجوانب النفسية والاجتماعية للشخصيات بشكل أوسع من الأشكال الأدبية الأخرى مثل القصة القصيرة. الرواية هي من أكثر الأنواع الأدبية شعبية وتأثيرًا نظرًا لقدرتها على نقل القراء إلى عوالم مختلفة وتجارب متنوعة من خلال اللغة والسرد.

2. تاريخ الرواية وتطورها

الرواية هي من أكثر الأشكال الأدبية انتشارًا وتأثيرًا في العصر الحديث غير أنها لم تكن موجودة بالشكل الذي نعرفه اليوم منذ بداية الأدب. فالرواية كما نعرفها تُعتبر تطورًا حديثًا نسبيًا. نشأت الرواية استجابة لتحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية عميقة شهدها العالم الغربي. خصوصًا منذ بداية العصر الحديث. ويُنظر إلى القرن الثامن عشر بأنه المرحلة الحاسمة التي شهدت بروز الرواية بوصفها نوعًا أدبيًا مستقلاً له خصائصه ومقوماته الخاصة وقد أحدثت الرواية تحولًا جذريًا في أساليب السرد والتعبير الأدبي.

[25] Watt Ian, The Rise of the Novel, University of California Press, Berkely & Los Angels, 1957

"لقد تميزت الرواية عن الأشكال الأدبية السابقة في تركيزها على الفردانية، وإبرازها للواقع المعيشي بتفاصيله الدقيقة، كما أنها لم تعد مقتصرة على النخبة الثقافية، بل أصبحت متاحة لقطاعات واسعة من الجمهور، بفضل انتشار الطباعة وارتفاع معدلات التعليم في أوروبا خلال القرن الثامن عشر.[26]

"تعود جذور الرواية إلى الأدب اليوناني والروماني القديم، حيث ظهرت بعض النصوص السردية الطويلة مثل "الحمار الذهبي" لأبوليوس و"الحبكات الإيثوبية" لهيليودوروس، وهي نصوص امتزج فيها الواقع بالتخيال. ثم استُعيد هذا الشكل السردي لاحقًا في قصص عصر النهضة الإيطالية، وخاصة فيما يُعرف بالنوفيلا (Novella) ، والتي كانت قصصًا قصيرة تتناول موضوعات متنوعة بأسلوب بسيط ومباشر[27].

إن الرواية بالشكل الحديث لم تتبلور إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث شهدت أوروبا، خصوصًا إنجلترا وفرنسا، ازدهارًا للرواية الواقعية التي تناولت قضايا المجتمع والطبقات والهوية الفردية. ويُعد كل من دانيال ديفو (مؤلف روبنسون كروزو) وصامويل ريتشاردسون (مؤلف باميلا) من أوائل الكُتّاب الذين وضعوا اللبنات الأولى للرواية الحديثة.

لذا فإن تطور الرواية لا يمكن تعريفها في خط واحد بتعريف واحد، بل هو نتاج تفاعل معقد بين التاريخ والثقافة والخيال البشري، وهو ما يجعل الرواية نوعًا حيًا ومتجددًا باستمرار.

أ. الروايات الأولى ونشأتها

إن للرواية جذور تاريخية ضاربة في القِدم، تعود تاريخ الرواية إلى الفترات المبكرة من الأدب اليوناني والروماني، حيث ظهرت أولى أشكال السرد القصصي الطويل ضمن إطار نثري يمتزج

[26] Margaret Doody, The True Story of the Novel, Rutgers University Press, 1996, p. 12.

[27] Wellek, René and Warren, Austin. Theory of Literature, Harcourt Brace, 1949, p. 226

فيه الخيال بالواقع والأسطورة بالتجربة الإنسانية ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، وكانت تُروى بأسلوب متسلسل يجمع بين المغامرة والعاطفة والتحول وهو ما شكّل النواة الأولى لما يُعرف لاحقًا بجنس الرواية.

وتُظهر هذه الأعمال المبكرة كيف أن الرواية، قبل أن تأخذ شكلها الكلاسيكي الحديث، كانت نتاج تفاعل بين سرد الحكايات والأسطورة والتاريخ والفلسفة في سعي دائم لفهم الإنسان والعالم من حوله.

ومن أقدم هذه الأعمال وأشهرها تبرز رواية "كاليروي (Chariton's Callirhoe) للكاتب اليوناني شاريتون، والتي تُعتبر بحسب بعض الباحثين أقدم رواية نثرية مكتملة باللغة اليونانية وربما أول رواية غربية باقية وصلت إلينا"[28].وتدور أحداثها حول قصة حب رومانسية بين كاليروي وشاريس في قالب درامي مليء بالمكائد والرحلات والفراق واللقاء.

كما تُعد "رواية ساتيريكون (Satyricon) للكاتب الروماني بترونيوس من الأعمال الرائدة في هذا النوع السردي وهي عمل ساخر يجمع بين النثر والشعر ويسلط الضوء على مظاهر الحياة الاجتماعية والأخلاقية في الإمبراطورية الرومانية".[29]

"أما رواية القصة الحقيقية (True History) للكاتب لوقيان السميساطي (Lucian of Samosata)، فهي تُعتبر من أوائل الأعمال التي تنتمي إلى الخيال العلمي حيث تسرد مغامرات خيالية في القمر وعوالم غير مألوفة من الأساطير والرحلات بأسلوب تهكمي".[30]

ويُضاف إلى ذلك رواية "الحمار الذهبي (The Golden Ass) "، والتي تُعرف أيضًا بـ"التحوّلات " (Metamorphoses)، وهي من تأليف الكاتب الروماني أبوليوس (Apuleius)، "وتُعد الرواية

[28] Reardon, B. P. Collected Ancient Greek Novels. University of California Press, 1989.

[29] Petronius. Satyricon. Translated by Sarah Ruden, Hackett Publishing, 2000.

[30] Lucian of Samosata. True History. In: Lucian: Selected Dialogues, translated by C.D.N. Costa, Oxford University Press, 2005.

اللاتينية الوحيدة التي وصلتنا كاملة من العصور القديمة".[31] وتروي قصة رجل يتحول إلى حمار نتيجة فضوله الزائد، قبل أن يعود إلى طبيعته البشرية عبر التدخل الإلهي، في سرد يمزج بين الواقعية والرمزية والأسطورة.

ومن الروايات الأخرى التي تُنسب إلى تلك الحقبة وتُعد من الملاحم السردية المبكرة "رومانسية إيسوب (Aesop Romance)، وهي مجموعة من القصص المتنوعة حول الإسكندر الأكبر، تعكس مزيجًا من التاريخ والأسطورة، وقد تُرجمت إلى العديد من اللغات وانتشرت في الثقافات المختلفة".[32]

وتظهر هذه الأعمال المبكرة الرواية قبل أن تأخذ شكلها الكلاسيكي الحديث على أنها نتاج تفاعل بين سرد الحكايات والأسطورة والتاريخ والفلسفة في سعي دائم لفهم الإنسان والعالم من حوله.

ب. تطور الرواية

رواية دون كيخوت التي كتبها ميغيل دي ثربانتس عام 1605 تعد من أبرز الأعمال الهامة التي وضعت الأساس للرواية الأوروبية الحديثة حيث أحدثت هذه الرواية نقلة نوعية في أساليب السرد ووجهت نقدًا ساخرًا لأدب الفروسية الذي كان شائعًا في العصور الوسطى ورغم هذه الأهمية، لم تصبح الرواية شكلًا أدبيًا راسخًا ومؤثرًا في أوروبا وأمريكا إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حين بدأت تعكس التغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في المجتمعات الغربية.

[31] Apuleius. The Golden Ass (Metamorphoses). Translated by Robert Graves, Penguin Classics, 2004.

[32] Stoneman, Richard. The Greek Alexander Romance. Penguin Classics, 1991

شهدت هذه الفترة تطورًا واضحًا في شكل الرواية ومحتواها، وشارك في هذا التحول عدد من الكتّاب الذين أسهموا في وضع أسس الرواية الحديثة. من بينهم الكاتب "والتر سكوت، الذي يُعد من رواد الرواية التاريخية، حيث قام بدمج السرد التخييلي بالسياق التاريخي بطريقة مبتكرة في أعمال مثل Waverley و [33] " Ivanhoeكما تميّزت الكاتبة "جين أوستن بأسلوبها الخاص في تقديم العلاقات الاجتماعية والطبقية وتسليط الضوء على حياة النساء داخل المجتمع الإنجليزي المحافظ من خلال روايات مثل Pride and Prejudice و "Emma[34]. تزامن تطور الرواية الأدبية مع التطور تقني مهم ساعد في توسيع قاعدة القراء؛ حيث كان اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر على يد يوهان غوتنبرغ حجر الزاوية في ثورة النشر وبلغت ذروتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أدى انتشار المطابع وانخفاض تكلفة الورق والطباعة إلى اتساع جمهور القراء، خاصة مع ظهور الطبقة الوسطى المتعلمة، مما أتاح للرواية أن تصبح شكلاً جماهيريًا يتمتع بشعبية متزايدة.

كما ساهم صعود صناعة النشر الحديثة في إنشاء سوق أدبي نشِط، وظهور دور النشر الكبرى والمجلات الأدبية، مما شجع الكُتّاب على إنتاج الروايات بشكل دوري وأدى إلى تنوّع المواضيع والأساليب بين الروايات العاطفية والواقعية والتاريخية وحتى السياسية. وهكذا أصبحت الرواية في هذه الفترة أداة فعالة لرصد تحولات المجتمع والتعبير عن الهموم الفردية والجماعية.

[33] Scott Walter. Waverley (1814); Ivanhoe (1819). Various editions. See: Millgate, Jane. Walter Scott: The Making of the Novelist. University of Toronto Press, 1984.

[34] Austen Jane. Pride and Prejudice (1813); Emma (1815). Various editions. See: Johnson, Claudia L. Jane Austen: Women, Politics, and the Novel. University of Chicago Press, 1988.

ج. أنواع الرواية

i. الرواية الإنجليزية

تتميّز الرواية الإنجليزية بتاريخ طويل وغني، تعود بداياته إلى العصور الوسطى حيث ظهرت أولى أشكال الرواية من خلال القصص الرومانسية التي جمعت بين البطولة والمغامرة والأسطورة. من بين هذه الأعمال نجد "السير جاوين والفارس الأخضر (Sir Gawain and the Green Knight)، وهي قصيدة سردية كُتبت في القرن الرابع عشر، وتندرج ضمن تقاليد أدب الفروسية الآرثري، وتتناول موضوعات مثل الشرف والفضيلة والاختبار الأخلاقي من خلال مغامرة خيالية لفارس من فرسان الملك آرثر".[35]

ثم ظهرت "رواية موت آرثر (Le Morte d'Arthur) في القرن الخامس عشر ألفها السير توماس مالوري، "وتُعد من أوائل المحاولات النثرية التي جمعت القصص الآرثرية في عمل واحد متكامل".[36] وتُعتبر هذه الرواية علامة فارقة في تطور الأدب الإنجليزي، إذ قدمت الملك آرثر وفرسانه في سرد موحد يجمع بين القصص المنثورة والشعرية، ومهّدت الطريق لتطور الرواية الحديثة.

وبالرغم من أن هذه الأعمال لا تنتمي إلى مفهوم "الرواية" بالمعنى الذي استقر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا أنها وضعت الأسس الأولى للسرد الطويل والمعقّد. وقد أثّرت لاحقًا على الأدب الإنجليزي من خلال طريقتها في بناء الأحداث، وأسلوبها الفني، والرموز التي استخدمتها. ويمكن اعتبارها حلقة وصل بين القصص الشعبية والأسطورية، وبين الرواية الحديثة التي أصبحت تركز على الجوانب النفسية والاجتماعية للشخصيات.

---

[35] Sir Gawain and the Green Knight, translated by J. R. R. Tolkien, revised edition, HarperCollins, 2006

[36] Thomas Malory, Le Morte d'Arthur, edited by Helen Cooper, Oxford University Press, 1998

في القرون التالية، تطورت الرواية الإنجليزية لتشمل أنماطًا جديدة مثل الرواية الواقعية مع دانييل ديفو في روبنسون كروزو، والرواية الاجتماعية مع تشارلز ديكنز، والرواية النفسية مع فرجينيا وولف، مما يجعل التراث الروائي الإنجليزي من الأكثر تنوعًا وتأثيرًا في تاريخ الأدب العالمي.

ii. الرواية الفيكتورية

شهدت الرواية خلال العصر الفيكتوري في بريطانيا تطورًا ملحوظًا، حيث ظهرت أعمال أدبية كُتبت بين عامي 1837م و1901م، وهي فترة حكم الملكة فيكتوريا. تميز هذا العصر بتحولات جذرية طالت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد لعبت الرواية دورًا مهمًا في تصوير تلك التغيرات. أصبحت الرواية آنذاك الشكل الأدبي الأوسع انتشارًا والأكثر تأثيرًا، مما جعلها مرآة تعكس واقع المجتمع البريطاني في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخه.

تميزت الرواية الفيكتورية بقدرتها على تصوير المجتمع البريطاني بطريقة واقعية ومعقدة، فتناولت موضوعات مثل التصنيع والتمدن، وما صاحبهما من تغييرات كبيرة في البنية الاجتماعية. كما ناقشت قضايا الصراع بين الطبقات، وتراجع القيم التقليدية، وبروز الطبقة الوسطى، إلى جانب الاهتمام بموضوعات الجندر، والهوية، والآثار النفسية والاجتماعية الناتجة عن الاستعمار.

"لقد أصبحت الرواية في العصر الفيكتوري وسيلة رئيسية لتصوير المشكلات الاجتماعية، ومناقشة القضايا الأخلاقية والسياسية، مما جعلها تلعب دورًا مهمًا في تشكيل الرأي العام، وإحداث تأثير فعّال في المجتمع."[37]

[37] Patrick Brantlinger, The Reading Lesson: The Threat of Mass Literacy in Nineteenth-Century British Fiction. Indiana University Press, 1998.

أبدع تشارلز ديكنز خلال العصر الفيكتوري في تقديم روايات كشفت بجرأة مشكلات المجتمع البريطاني. من خلال أعماله مثل توقعات عظيمة وقصة مدينتين، تناول واقع الفقر والظلم الاجتماعي وفساد النظام القضائي، مجسدًا هذه القضايا عبر شخصيات نابضة بالحياة تعكس صراعات الإنسان الداخلية وتناقضاته. استطاع بأسلوبه الساخر والمؤثر أن يسلّط الضوء على معاناة الطبقات المهمشة ويثير التعاطف معها.

أما إميلي برونتي، فقدّمت في روايتها "مرتفعات وذرينغ" قصة مختلفة عن النمط السائد، حيث تناولت الانفعالات القوية والعلاقات المعقدة، ووضعت الحب والموت في سياق نفسي غامض. وفي سياق قريب، تناول توماس هاردي في تيس داربرفيل قضايا المرأة، وعرّى النفاق الأخلاقي والقيود الاجتماعية التي كانت تعاني منها في مجتمعه المحافظ.

لقد تميزت الروايات الفيكتورية بطولها النسبي، والتفاصيل الدقيقة في السرد، وعمق الشخصيات، مما جعلها قريبة من الواقع، وذات تأثير دائم، ولا تزال تُقرأ وتُدرّس حتى يومنا هذا. لقد تحولت الرواية في هذا العصر من مجرد حكاية للترفيه إلى أداة لفهم العالم ومناقشة قضاياه بعمق وجرأة.

3. الرواية ما بين الواقعية والرومانسية والطبيعية

الرومانسية هي حركة أدبية وفنية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وتطورت في القرن التاسع عشر. وقد نشأت كرد فعل على العقلانية والأفكار التي سادت خلال عصر التنوير. وقد فضّلت الروايات الرومانسية التعبير عن المشاعر والخيال والطبيعة والتجارب الفردية على حساب المنطق والتحليل العقلي. وركزت على الإنسان بما فيه من مشاعر متناقضة وجعلت من الذات محورًا مهمًا في الإبداع الأدبي والفني.

من بين أبرز الاتجاهات التي ظهرت داخل الرواية الرومانسية نجد "أدب الرعب القوطي (Gothic Fiction) الذي تميز بطابعه الغامض والخيالي واهتمامه بالعناصر الخارقة للطبيعة والأماكن الكئيبة والمهجورة والشخصيات التي تتراوح بين الغموض والانهيار النفسي. وقد كان هذا النوع بمثابة انعكاس للقلق الإنساني ومحاولة لتفسير الخوف والشر من خلال القصص الرمزية والمشحونة بالتوتر"[38].

ظهرت روايات كثيرة تأثرت بالرومانسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. من أبرزها "رواية جين آير (Jane Eyre) للكاتبة شارلوت برونتي، والتي قدمت تصويرًا عميقًا لصراع المرأة مع الهوية والحرية ضمن قالب روائي مشحون بالعاطفة والرمزية. كما تُعد رواية مرتفعات وذرينغ (Wuthering Heights) لشقيقتها إميلي برونتي مثالاً بارزًا على المزج بين الرومانسية القاتمة والخيال القوطي، حيث تسود الطبيعة المتوحشة والانفعالات العنيفة والحب التدميري"[39].

كان للرومانسية تأثيرٌ بالغ الأهمية في تطور الرواية كنوع أدبي. إذ أدخلت الذاتية والتجربة العاطفية العميقة إلى البنية السردية، وفتحت الباب أمام التعبير عن اللاوعي والصراعات الداخلية، مما مهّد لاحقًا لظهور المدرسة الرمزية والحداثية في الأدب. ولا تزال العديد من الموضوعات والرموز والأساليب الرومانسية تؤثر في الأدب العالمي حتى يومنا هذا.

شهد القرن التاسع عشر تحولات جذرية في بنية السرد الأدبي تمثلت في ظهور الواقعية (Realism)والطبيعية (Naturalism) كحركتين أدبيتين أثرتا بشكل كبير في تطور الرواية الحديثة. "وقد مثل هذان التياران رد فعل مباشر على المبالغات الرومانسية التي اتسمت

[38] Fred Botting, Gothic, Routledge, 1996.

[39] Charlotte Bronte, Jane Eyre (1847); Emily Bronte, Wuthering Heights (1847)

بالعاطفة الزائدة والخيال المفرط، حيث سعى الكتّاب إلى تقديم صورة أكثر صدقًا وموضوعية عن الإنسان والمجتمع."[40]

ظهرت الواقعية في منتصف القرن التاسع عشر بوصفها اتجاهًا أدبيًا يسعى إلى تقديم صورة دقيقة للحياة اليومية، مركّزًا على معاناة الإنسان العادي وقضاياه الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. وقد تميّزت الرواية الواقعية بأسلوبها السردي البسيط والواضح، وابتعادها عن الزخرفة اللغوية، مع اهتمام خاص بتجارب الطبقة المتوسطة والفقيرة. من أبرز الكتّاب الذين أسهموا في هذا الاتجاه :غوستاف فلوبير، الذي عالج في روايته "مدام بوفاري" (1857) صراع الأحلام الرومانسية مع واقع الحياة الصعب. وليو تولستوي الذي جمع بين التحليل النفسي العميق والنقد الاجتماعي في أعماله مثل "الحرب والسلم" و"آنا كارينينا". أما الطبيعية فقد ظهرت لاحقًا في أواخر القرن نفسه بوصفها تطورًا أكثر تطرفًا للواقعية حيث ركّزت على تصوير الإنسان ككائن يخضع لظروف وراثية وبيئية خارجة عن إرادته. وقد تأثرت هذه المدرسة بنظرية التطور لداروين وبالفكر الحتمي الذي يرى أن مصير الإنسان تحدّده عوامل لا يملك السيطرة عليها. ومن أبرز كتّاب هذا التيار، إميل زولا الذي اعتبر الرواية وسيلة لدراسة تأثير البيئة والوراثة على الشخصيات، كما يتضح في أعماله مثل "جيرمينال وناناّ" و"ستيفن كرين" الذي ركّز في روايته شارة الشجاعة الحمراء على التحليل النفسي للجنود في ساحات الحرب. وجاك لندن الذي ناقش في "نداء البرية" علاقة الإنسان بالطبيعة وصراعه من أجل البقاء. لقد أسهمت كل من الواقعية والطبيعية في إغناء شكل الرواية ومضمونها ومهّدت الطريق أمام المدارس اللاحقة مثل الحداثة وما بعد الحداثة. ولا تزال آثار هذين الاتجاهين واضحة في

[40] أحمد المديني، الرواية والتحول التاريخي، المركز الثقافي العربي، 1992، ص. 65.

العديد من الأعمال الروائية المعاصرة التي ما زالت تستلهم منهما في تناول الواقع وتحليل الإنسان ضمن محيطه الاجتماعي والطبيعي.

4. الرواية الحديثة

تطورت الرواية بشكل ملحوظ مع بدايات القرن العشرين واستمرت في التجديد حتى القرن الحادي والعشرين حيث شكّلت هذه المرحلة تحولًا كبيرًا في عالم السرد الأدبي. ابتعدت الرواية الحديثة عن النماذج التقليدية للرواية الواقعية والطبيعية واتجهت نحو التجريب في اللغة والبنية والأسلوب. جاءت بأساليب جديدة تحمل رؤى مختلفة تعكس تعقيدات الإنسان المعاصر وتحولاته النفسية والاجتماعية فكانت انعكاسًا لعصر مليء بالتغيرات والأسئلة الوجودية.

تميّزت الرواية الحديثة واعتمادها تقنيات جديدة تمنح النص طابعًا أكثر ابتكارًا وعمقًا. مثل أسلوب تيار الوعي والسرد غير الخطي وتعدد الأصوات وهي عناصر تسهم في إشراك القارئ بشكل فعال في فهم الأحداث من زوايا مختلفة. كما ركزت الرواية الحديثة بشكل أكبر على الجوانب النفسية للشخصيات فكشفت عن مشاعرهم الداخلية وصراعاتهم الذاتية، مبتعدة عن تقديمهم كأبطال مثاليين، ومقتربة أكثر من واقع الإنسان المعاصر وتعقيداته.

من الموضوعات المهمة في هذه الروايات شعور الإنسان بالعزلة أو الانفصال عن مجتمعه، وهو ما يُعرف "بالاغتراب"[41]، خاصة بعد الأحداث الكبيرة مثل الحروب العالمية والتغيرات السريعة التي طالت المجتمعات الحديثة. وهذا ما جعل الرواية الحديثة تُبرز الفرد ككائن يبحث عن ذاته، يحاول أن يفهم هويته في عالم غير مستقر.

[41] الاغتراب: هو إحساس داخلي عند الإنسان يجعله يشعر بالانفصال عن محيطه الاجتماعي والروحي ويُعد من أبرز سمات الرواية الحديثة بعد صدمات الحروب والتغيرات الحضارية السريعة.

ولقد كان للرواية الحديثة أثر على شخصية الفنان أو الكاتب، وطرحت أسئلة حول معنى الفن ودوره في عالم فقد كثيرًا من قيمه. وتجلى هذا في أعمال بعض كبار الروائيين مثل جيمس جويس في روايته عوليس، وفرجينيا وولف في السيدة دالاوي، وفرانز كافكا في المسخ و"القصر ."[42]وهكذا، لم تكن الرواية الحديثة مجرد تطور شكلي، بل كانت تعبيرًا عن رؤية جديدة للعالم، ونظرة فلسفية للوجود، طرحت من خلالها قضايا الإنسان وأسئلته الوجودية بطريقة فنية مبتكرة وواقعية في آن واحد.

5. الرواية ما بعد الحداثة

إن الرواية ما بعد الحداثة هي تجسيدًا أدبيًا لحركة فكرية وفنية ظهرت في منتصف القرن العشرين، وعُرفت باسم "ما بعد الحداثة .(Postmodernism) "تميزت هذه الحركة بنقدها الصريح للمفاهيم التقليدية في الفن والسرد، وبرفضها للأنماط الثابتة التي سادت في الأدب الكلاسيكي والأدب الحديث على حدّ سواء. وعلى عكس الرواية الواقعية أو الحداثة التي سعت إلى بناء عالم منظم أو التعبير عن وعي ذاتي متأزم، جاءت الرواية ما بعد الحداثية لتهدم بنية السرد الخطي، وتخلخل مفاهيم مثل الحقيقة والهوية والمعنى. فنجد في هذا النوع من الروايات، "أن القارئ يصبح جزءًا من اللعبة السردية، حيث يتم إرباكه عمدًا عبر تقنيات التهجين السردي، وتداخل الأزمنة، وغياب السارد الموثوق، بل وحتى كسر "الجدار الرابع" من خلال حضور الكاتب أو تعليقاته داخل النص نفسه."[43]

تعكس هذه الروايات رفضًا لفكرة الحقيقة الموضوعية أو الثابتة، حيث تُعرض الحقيقة كنتاج للغة أو كخطاب ثقافي مشكوك فيه، متأثرة في ذلك بأفكار فلاسفة ما بعد البنيوية أمثال

[42] القصر"The Castle" :، رواية لفرانز كافكا تعبّر عن الاغتراب واللاجدوى في مواجهة البيروقراطية والسلطة الغامضة التي لا يستطيع الإنسان اختراقها أو فهمها.

[43] Patricia Waugh, Metafiction: The Theory and Practice of Self-Conscious Fiction. Methuen, 1984, p. 2–4.

ميشيل فوكو وجاك دريدا[44]. كما تُظهر الرواية ما بعد الحداثة اهتمامًا خاصًا بالهوية، بوصفها متغيرة ومتعددة وليست جوهرًا ثابتًا، "وغالبًا ما تُقدَّم الشخصيات بشكل ساخر أو مجزأ يعكس التشظي الذي تعاني منه الذات في العصر الحديث[45]."

ومن الملامح البارزة في الرواية ما بعد الحداثة أنها تمزج بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية، فنجد في صفحاتها إشارات إلى أعمال أدبية كلاسيكية إلى جانب إشارات إلى الأفلام، والإعلانات، والموسيقى، وحتى ثقافة الاستهلاك اليومية. وهذا التداخل يعكس اختفاء الحدود التقليدية بين ما هو "نخبوي" وما هو "شعبي"، وأيضا يدل على رغبة كتّاب ما بعد الحداثة في مساءلة المفاهيم الثقافية السائدة.

تتناول هذه الروايات في الغالب موضوعات عميقة مثل هيمنة التكنولوجيا على الحياة، اختفاء المعاني في ظل تدفق المعلومات ودور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الجماعي. كما نجد فيها حضورًا قويًا لموضوعات الهوية والسلطة والتاريخ خاصة من خلال شخصيات تعاني الاغتراب عدم الثقة في عالم يتغير باستمرار.

ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع من الروايات، رواية "قوس قزح الجاذبية" (Gravity's Rainbow) للكاتب توماس بنشون، وهي رواية معقدة تعتمد أسلوب السرد المتشظي وتجمع بين إشارات علمية وثقافية وسياسية لتتناول أحداث الحرب العالمية الثانية بطريقة رمزية. ورواية "الضوضاء البيضاء" (White Noise) لدون ديليلو التي ترصد تأثير الإعلام على وعي الأفراد والخوف من الموت واختلال الهوية في مجتمع استهلاكي. وهناك أيضًا رواية "أطفال منتصف الليل" (Midnight's Children) لسلمان رشدي التي تمزج بين التاريخ والسياسة من

[44]Michel Foucault, The Archaeology of Knowledge. Pantheon Books, 1972.

[45] Linda Hutcheon, The Politics of Postmodernism. Routledge, 1989, p. 11–15.

خلال استخدام تقنيات الواقعية السحرية لرصد تحولات المجتمع الهندي منذ لحظة الاستقلال.

الرواية ما بعد الحداثة لا تُعطي حلولًا أو أجوبة جاهزة بل تفتح أبواب الأسئلة والتأمل. حيث أنها تميل إلى تفكيك الواقع بدلًا من إعادة إنتاجه وتدعو القارئ إلى الشك في اللغة والسلطة والمعرفة. وبهذا فإن الرواية ما بعد الحداثة تتحول إلى مساحة حرّة للتجريب ولعب الأسلوب والتأمل في الإنسان ومصيره. وكما قال أحد الباحثين "الرواية ما بعد الحداثية لا تبحث عن الحقيقة بل تسائل عن إمكانية وجودها أصلاً".[46]

وعليه هذه الروايات تعبر عن نظرة وجودية وإنسانية معاصرة كما أشار أحد النقاد "إن ما يميز الرواية ما بعد الحداثة هو إدراكها العميق لزيف اليقين وسعيها الدائم للكشف عن تناقضات الإنسان في عالم يعجّ بالتناقضات."[47]

مما سبق ذكره نستطيع أن نلخص هذا الفصل بأن الرواية ظهرت في القرن الثامن عشر نتيجة لتغيرات اجتماعية وثقافية كبيرة، أبرزها صعود الطبقة الوسطى التي أصبحت تبحث عن وسائل للترفيه والتعبير. وبفضل لغتها البسيطة واهتمامها بالحياة اليومية، لاقت الرواية رواجًا واسعًا. كما ساعد انتشار التعليم وتوفر الكتب بأسعار مناسبة على زيادة الإقبال عليها. وتأثرت الرواية أيضًا بأفكار عصر التنوير التي ركزت على العقل والحرية والنقد الاجتماعي، مما جعلها تعكس تطور الشخصيات وطرح القضايا الأخلاقية والواقعية.

[46] الرواية ما بعد الحداثية لا تبحث عن الحقيقة، بل تسائل إمكانية وجودها أصلاً – "راجع: أحمد المديني، الرواية وأسئلة ما بعد الحداثة، مجلة فصول، العدد 87، القاهرة، 2012، ص. 41.

[47] إن ما يميز الرواية ما بعد الحداثية هو إدراكها العميق لزيف اليقين، وسعيها الدائم للكشف عن تناقضات الإنسان في عالم يعجّ بالتناقضات." – انظر: سعيد بنكراد، السرد والتأويل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص. 129.

الفصل الثاني
الروايات العربية وخصائصها

1. السرد العربي قبل ظهور الرواية

قبل ظهور الرواية العربية الحديثة كان السرد العربي قائمًا على عدة أشكال تقليدية ومتنوعة تجمع بين الحكي الشفهي والأدب المكتوب. فقد انتشرت الحكايات الشعبية والأساطير في المجالس والأسواق، مثل سير الأبطال الجاهليين وعنترة وملحمة بني هلال، حيث امتزج التاريخ بالخيال والأسطورة كما لعبت الأمثال والحكم دورًا في نقل الخبرات الإنسانية بأسلوب قصصي قصير. من جهة أخرى، كانت القصص الدينية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تقدم نماذج سردية متكاملة، مليئة بالشخصيات والصراعات والعبر الأخلاقية بينما قام القصاصون والوعاظ بنقل هذه القصص لجمهور العامة. في الأدب المكتوب برزت المقامات التي بدأها بديع الزمان الهمذاني وطوّرها الحريري والتي جمعت بين الشخصيات المحورية والسرد القصصي القصير المزدان بالبلاغة والفكاهة، إضافة إلى كتب الأخبار والنوادر مثل "الأغاني" للأصفهاني و"البخلاء" للجاحظ، التي مزجت التاريخ بالقصص الطريفة. كما ساهمت رحلات المسافرين مثل ابن بطوطة وابن خلدون في إثراء السرد بوصف المغامرات والأماكن المختلفة. وأخيرًا، جاءت ألف ليلة وليلة كنموذج غني ومتكامل للسرد العربي قبل الرواية الحديثة، حيث ضمت قصصًا متداخلة وشخصيات متعددة وحبكات متنوعة، واقعية وسحرية، مما شكل قاعدة خصبة ألهمت الروائيين العرب الأوائل في كتابة الرواية الحديثة.

2. ظهور الرواية في الأدب العربي

وقد تأخر ظهور الرواية العربية مقارنةً بنظيرتها الغربية نتيجة لعوامل تاريخية وثقافية متعددة أبرزها سيطرة الشعر والمقال على الساحة الأدبية وضعف التواصل مع تطورات الأدب الأوروبي في العصور السابقة. "لكن مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأت بوادر الرواية العربية بالظهور متأثرةً بالترجمة من اللغات الأجنبية وبحركة النهضة الفكرية التي عرفها العالم العربي آنذاك"[48]. "وقد تنوّعت أشكال الرواية الأولى بين الرواية التاريخية والاجتماعية، وكان لها دور كبير في التعبير عن التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدها المجتمع العربي"[49].

3. أثر الغرب والترجمة في نشأة الرواية العربية

لعب اتصال الغرب والترجمة دورًا حاسمًا في نشأة الرواية العربية الحديثة إذ لم تكن الرواية جزءًا أصيلًا من البنية التقليدية للأدب العربي الكلاسيكي الذي كان يهيمن عليه الشعر والخطابة والمقامات. ومع انطلاق حركة النهضة في القرن التاسع عشر، بدأت تظهر تحولات فكرية وثقافية واسعة في العالم العربي وكان فيها للترجمة الدور الأبرز في فتح آفاق جديدة أمام الأدب العربي ولا سيما من خلال الاطلاع على النماذج الروائية الغربية. فقد شهدت مصر وبلاد الشام نهضة الترجمة الناشطة خاصة بجهود شخصيات بارزة مثل رفاعة الطهطاوي الذي ترجم أعمالًا أدبية وفكرية فرنسية وأسهم في نشر مفاهيم الحداثة في الوعي العربي[50]. وبفضل هذه الترجمة تعرف القارئ العربي لأول مرة على أعمال روائية غربية مثل روايات ألكساندر دوما وفيكتور هوغو وبلزاك وقد هذا ما أدى إلى بروز الرواية المترجمة كجنس أدبي جديد

[48] نجيب حسين، تطور الرواية العربية، دار الآداب، بيروت 2003، ص 15.

[49] يوسف زيدان، الرواية العربية: التكوين والتطور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص 27.

[50] رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988، ص 64.

ومختلف عن أشكال السرد التقليدي كالسير الشعبية والمقامات[51]. وإلى جانب الترجمة، أدّى إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا لا سيما إلى فرنسا إلى تعرّف النخب العربية على تطورات الفكر والأدب الغربي عن قرب مما ساهم في بلورة وعي جديد لدى المثقف العربي بأهمية الرواية كأداة للتعبير عن قضايا الإنسان والمجتمع، وكوسيلة لفهم التحولات السياسية والاجتماعية في بيئته. وقد مهّد هذا التفاعل الثقافي الطريق أمام محاولات روائية أولى في العالم العربي، بعضها كان تقليدًا مباشرا للنموذج الغربي، وبعضها الآخر سعى إلى المواءمة بين الشكل الروائي المستورد والمضامين المحلية، مما ساعد على تكوين ملامح الرواية العربية الحديثة[52].

بدأ التحول الفعلي نحو الرواية بالمعنى الحديث مع دخول القرن التاسع عشر، وبداية عصر النهضة العربية مدفوعًا بتأثير البعثات التعليمية وحركة الترجمة وانتشار الصحف والمجلات. وظهرت الرواية في البداية ما يمكن تسميته بـ"الرواية التعليمية" أو "الوعظية"، التي هدفت إلى تقديم القيم الأخلاقية والاجتماعية بطريقة قصصية بسيطة، كما في رواية "حسن العدل" المنسوبة إلى نجيب الحداد.[53] وقد تميزت هذه الروايات بلغة خطابية مباشرة، تفتقر إلى العمق الفني. وفي السياق نفسه، ظهرت الرواية التاريخية التي ازدهرت على يد جورجي زيدان، الذي قدّم سلسلة من الروايات مثل "فتح الأندلس" و"عذراء قريش" والتي استلهم فيها وقائع من التاريخ العربي والإسلامي وأضاف إليها طابعًا دراميًا. ورغم ما وجه إليه من انتقادات تتعلق بالدقة التاريخية، فإن إسهامه في ترسيخ شكل الرواية كأداة للتثقيف والتعليم لا يُنكر.[54]

[51] عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870–1938)، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص 23.

[52] جابر عصفور، زمن الرواية، المركز الثقافي العربي، بيروت 1999، ص 18.

[53] نهاد صليحة، تطور الشكل الروائي في الأدب العربي الحديث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2003، ص. 33.

[54] عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1974، ص. 41.

وقد بدأت الرواية العربية تخطو نحو النضج الفني في بدايات القرن العشرين، متجاوزة الطابع التعليمي والتاريخي إلى معالجة قضايا إنسانية واجتماعية بلغة واقعية وتحليلية. وتُعد رواية "زينب" حيث نشرها محمد حسين هيكل سنة 1914م أول عمل يُصنف كرواية عربية حديثة بالمعنى الفني الكامل ومزجت بين تصوير البيئة الريفية وتحليل المشاعر الإنسانية بطريقة سردية متماسكة.[55] كما شهدت المرحلة نفسها تطور الرواية في المهجر، لاسيما في أمريكا الشمالية، على يد أدباء مثل جبران خليل جبران وأمين الريحاني الذين تأثروا بالرومانسية الغربية. وكتبوا روايات وقصصًا حملت مضامين روحية وإنسانية عالمية مثل رواية "الأجنحة المتكسرة".[56] وقد شكّلت هذه الأعمال، سواء في العالم العربي أو في المهجر، وهي اللبنات الأولى التي ستتطور لاحقًا على يد جيل نجيب محفوظ، الذي أرسى تقاليد الرواية الفنية العربية في أبعادها الواقعية والرمزية والفلسفية.

4. رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل كنموذج تأسيسي

رواية "زينب" كتبها محمد حسين هيكل ونُشرت لأول مرة عام 1914م، من أبرز النماذج التأسيسية التي مهّدت لظهور الرواية العربية الحديثة بصيغتها الفنية المتكاملة. فقد مثّلت "زينب" انطلاقة جديدة تجاوزت الأشكال السردية التقليدية التي كانت سائدة في بدايات النهضة من مقامات وقصص تاريخية وتعليمية نحو رواية تستند إلى عناصر فنية ناضجة من حيث البناء وتكوين الشخصيات والحوار والوصف والمكان.[57] وقد اختار هيكل أن يُصدر الرواية باسم مستعار هو "مصري فلاح" في محاولة لخلق انطباع بأنها رواية من قلب المجتمع

[55] إحسان عباس، الرواية العربية في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1995، ص. 112.

[56] وليد سيف، الرواية العربية والحداثة، دار الفكر، دمشق، 2002، ص. 60.

[57] محمد حسين هيكل، زينب، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1960، ص. 5.

الريفي تُعبّر عن معاناة الفلاحين وتصور بيئتهم الواقعية وهو أمر لم يكن مألوفًا في الأدب العربي آنذاك.

تميزت الرواية بتركيزها على الأبعاد الوجدانية والنفسية للشخصيات، وخاصة شخصية "زينب" الفتاة الريفية البسيطة التي تعاني من قيود المجتمع التقليدي والزواج القسري وغياب الحرية في تقرير مصيرها. وتُروى أحداث الرواية من خلال شخصية عبد الحليم، الفلاح المتعلم، الذي يعاني من صراع داخلي بين مشاعره تجاه زينب وبين القيود الطبقية والأعراف الاجتماعية التي تمنعه من الارتباط بها. وهذا التوتر بين الفرد والمجتمع هو من أبرز سمات الرواية الفنية الحديثة.[58]

وقد استفاد هيكل من تأثره بالثقافة الأوروبية، لا سيما الفرنسية، التي اطّلع عليها أثناء دراسته في باريس، حيث استلهم من أعمال كتاب مثل إميل زولا وغوستاف فلوبير أساليب التصوير الواقعي والتحليل النفسي للشخصيات.[59] وكان للأسلوب التأملي، واللغة الأدبية الرصينة، وتوظيف الطبيعة الريفية كمرآة لحالات الشخصيات النفسية، دور كبير في تميّز "زينب" عن مثيلاتها من الروايات الأولى، التي غالبًا ما كانت خطابية ومباشرة.

وبالرغم من أن البناء الروائي في "زينب" لا يخلو من بعض الملامح التقريرية والتأثر بالأسلوب الإنشائي، إلا أن النقاد يُجمعون على أن هذه الرواية قد فتحت الباب أمام الرواية العربية لتكون مجالًا فنيًا يعالج قضايا الإنسان العربي في بيئته الاجتماعية والداخلية، وليس مجرد وسيلة تعليمية أو تاريخية.[60] لذا يمكن القول إن "زينب" كانت بمثابة نقطة انعطاف حقيقية نحو الرواية الفنية العربية التي ستتطور لاحقًا مع نجيب محفوظ والطيب صالح وغيرهم،

---

[58] عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1974، ص. 87.

[59] جابر عصفور، زمن الرواية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص. 45.

[60] إحسان عباس، الرواية العربية في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1995، ص. 119.

حيث وُضعت اللبنات الأولى لبنية سردية تعتمد على الواقعية، وعلى إبراز التناقضات الاجتماعية والطبقية في المجتمع المصري الحديث.

5. التحولات الموضوعية والفنية في الرواية العربية

شهدت الرواية العربية عبر مسيرتها التاريخية تحولات جذرية على المستويين الموضوعي والفني، عكست التحوّلات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عرفها العالم العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم. فبعد أن كانت الرواية في بداياتها – كما في أعمال جورجي زيدان ومحمد المويلحي – تميل إلى الطابع التعليمي والتاريخي، تهدف إلى تثقيف القارئ وإحياء التراث أو الدعوة إلى الإصلاح، بدأت تتحول تدريجيًا نحو معالجة قضايا الفرد والمجتمع والهوية، في إطار بنية فنية متطورة تعتمد على تقنيات السرد الحديثة.[61] هذه التحولات لم تكن فجائية، بل جاءت نتيجة لتراكمات ثقافية وتاريخية أبرزها المد الاستعماري، وحركات التحرر وصعود القومية العربية ثم الانكسارات السياسية الكبرى خاصة نكسة 1967م التي شكلت صدمة ثقافية وأدبية كبرى.

انتقلت الرواية من التركيز على القضايا الكبرى من الناحية الموضوعية كالوحدة القومية والنهضة والبطولة التاريخية إلى معالجة أزمات الذات الفردية وتفكك القيم وضياع الهوية خاصة في الروايات التي ظهرت في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. ويمكن ملاحظة هذا التحول في أعمال كاتب مثل نجيب محفوظ، الذي بدأ بروايات اجتماعية واقعية تعالج صراع الطبقات ثم تحوّل فيما بعد إلى الرواية الرمزية والفلسفية كما في ثلاثية القاهرة (1956م–1957م) و"أولاد حارتنا" (1959م) و"اللص والكلاب" (1961م).[62] كما ظهرت في هذه المرحلة

[61] عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1974، ص. 51.

[62] إحسان عباس، الرواية العربية في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ص. 143.

روايات تطرح أسئلة الوجود والحرية والعزلة، متأثرة بالفكر الوجودي والمناخ النفسي الذي ساد العالم العربي بعد النكسة، مثل روايات صنع الله إبراهيم، وغسان كنفاني، وعبد الرحمن منيف، وغيرهم.[63]

تطورت الرواية العربية تطورًا ملحوظًا سواء على صعيد البنية الزمنية أو تقنيات السرد. ففي حين كانت الرواية الكلاسيكية تعتمد على خط سردي مستقيم. وزمن خطي راوي بعرف كل شيئ بدأت الرواية الحديثة تكسر هذا النموذج فاعتمدت على اللازمنية والاسترجاع (الفلاش باك) وتعدد الأصوات (البوليفونية) والراوي غير الموثوق به، كما في روايات إدوار الخراط وجمال الغيطاني وإلياس خوري.[64] كما اتجهت الرواية في مراحل لاحقة إلى توظيف أشكال تجريبية، مثل التداخل بين الأنواع الأدبية مثل الرواية واليوميات والمسرح والشعر والتناص مع التراث واستثمار تقنيات السينما والمونتاج وذلك في إطار محاولة لتجاوز الشكل التقليدي وإيجاد صوت سردي جديد يعبر عن قلق الإنسان العربي المعاصر وتناقضاته.

ارتبط التجديد الفني بتحولات الموضوع بشكل وثيق وتفاعلا معًا بطريقة متبادلة ومترابطة. عندما تحوّلت الرواية إلى ساحة لتفكيك السرديات الكبرى مثل القومية أو المقدس أو السلطة، كان من الضروري أن تتغير أدواتها وتقنياتها وأن تتخلى عن البنية الخطية والمباشرة وتتبنى أشكالًا سردية مفتوحة وذاتية.[65] وبذلك أصبحت الرواية العربية في العقود الأخيرة أكثر وعيًا بذاتها وأكثر تحررًا من القوالب الجاهزة، حتى أصبح من الصعب تصنيفها ضمن تيار واحد إذ تنوعت بين الواقعية والحداثة وما بعد الحداثة والرواية النسوية ورواية المنفى وغيرها

[63] فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ص. 86.

[64] عبد الله إبراهيم، السردية العربية: مفاهيم وتجليات، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص. 172.

[65] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص. 119.

من التيارات التي تعكس تعدد التجارب العربية وتباين السياقات الثقافية والسياسية التي أنتجتها.

6. أبرز التيارات والأساليب الروائية

تطوّرت الرواية العربية خلال مسيرتها من مجرد تقليد للنماذج الغربية أو التأسيس لكتابة سردية حديثة إلى ساحة خصبة لتعدد التيارات والأساليب الفنية التي مثّلت في جوهرها محاولات متنوّعة لتفسير العالم العربي وتمثيل تحوّلاته السياسية والاجتماعية والنفسية. وقد كان التيار الواقعي من أوائل التيارات التي فرضت حضورها بقوة لا سيما في منتصف القرن العشرين حيث استخدمه الكتّاب كأداة لقراءة المجتمع العربي وتحليل طبقاته وتناقضاته كما في أعمال نجيب محفوظ لا سيما الثلاثية التي جسدت التحولات الطبقية والسياسية في مصر من خلال نماذج واقعية وشخصيات من نسيج المجتمع. "وقد اتخذت الواقعية أبعادًا مختلفة مثل الواقعية الاجتماعية والواقعية النقدية بل و"الواقعية الاشتراكية" لدى بعض الكتّاب المتأثرين بالفكر اليساري كما في روايات عبد الرحمن منيف".[66] برزت الرواية الرمزية كوسيلة للهروب من الرقابة أو للتعبير عن أزمات وجودية أعمق من الطرح الاجتماعي المباشر. فقد استخدم نجيب محفوظ في روايته أولاد حارتنا رموزًا دينية وفلسفية لتصوير الصراع بين السلطة والمعرفة، بينما لجأ كتّاب آخرون إلى الترميز لتفكيك بنى الاستبداد والاغتراب كما في أعمال الطيب صالح، خصوصًا "موسم الهجرة إلى الشمال."[67] ومع تعمّق الأزمات النفسية والسياسية، ظهر تيار السريالية، وإن كان حضوره أقل كثافة، إلا

[66] فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ص. 120.

[67] إحسان عباس، الرواية العربية في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1995، ص. 178.

أنه كان ملحوظًا في بعض أعمال إدوار الخراط، حيث انفتحت اللغة السردية على البنية الشعرية.

أما ما بعد الحداثة فقد مثّلت تيارًا أكثر تفكيكًا اتسم تداخل الأجناس الأدبية وكسر التسلسل الزمني واللعب على تعدد الأصوات وغياب الحقيقة المطلقة كما في روايات إلياس خوري ورشيد الضعيف، حيث أصبحت الرواية ذات طابع تجريبي يعكس هشاشة العالم العربي وانهيار السرديات الكبرى.[68]

برزت الرواية النسوية بوصفها تيارًا لا يقل أهمية، حيث سعت الكاتبات العربيات إلى إعادة صياغة صورة المرأة وتفكيك البنية الذكورية للخطاب الأدبي. فقد تميزت روايات مثل "امرأة عند نقطة الصفر" لنوال السعداوي، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي وكم بدت السماء قريبة لبتول الخضيري بطرح قضايا الجسد والهوية التحرر وحساسية خاصة ولغة ذاتية شكلت بعداً عن الأساليب الذكورية السائدة في السرد.[69]

الرواية السياسية ارتبطت بتجربة القمع والاستبداد والانقلابات العسكرية في الوطن العربي، وظهرت بقوة في الستينيات وما بعدها، حيث عبّر كتّاب مثل عبد الرحمن منيف (شرق المتوسط) وصنع الله إبراهيم (اللجنة) عن اختناق الحريات وعبث السلطة بلغة رمزية أو تجريبية تحايلًا على الرقابة.[70] وعلى صعيد موازٍ، تطورت رواية الحرب كتيار مستقل، خاصة في دول مثل العراق ولبنان وسوريا وفلسطين حيث أصبح العنف والدمار والنزوح والموت اليومي من أهم المميزات السردية كما في "مدن الملح" لمنيف و"باب الشمس" لخوري

[68] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص. 173.

[69] رجاء بن سلامة، الجسد في الرواية العربية، دار تونس للنشر، تونس، 2000، ص. 102.

[70] عبد الله إبراهيم، تحولات السرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003، ص. 199.

و"فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي حيث اختلطت مشاهد الحرب بالخيال والأسطورة والواقعية السحرية ما جعل الرواية مساحة لتوثيق الكارثة واستيعابها فنيًا.[71]

وهكذا يتضح أن الرواية العربية الحديثة لم تعد أسيرة تيار واحد أو موضوع محدد، بل أصبحت مجالًا رحبًا يتفاعل مع التحولات الكبرى في المجتمع العربي من خلال تنوع الأساليب والتيارات، وهو ما يؤكد حيويتها وقدرتها على التجدد المستمر.

7. دور الرواية في التعبير عن الواقع العربي

أدت الرواية العربية دورًا جوهريًا في تصوير الواقع العربي بما فيه من تحوّلات سياسية، وتناقضات اجتماعية، وتوترات ثقافية ونفسية. فمنذ النصف الأول من القرن العشرين، لم تعد الرواية مجرد عمل أدبي جمالي، بل غدت أداة محورية لفهم الذات العربية في ظلّ الاستعمار ومشاريع التحديث والنزاعات الداخلية ولقد تجاوزت الرواية طابعها الفني لتصبح وسيلة لتوثيق التحولات التاريخية، ولطرح الأسئلة حول الأنظمة السياسية السائدة والمنظومات القيمية.

وفي هذا السياق نجد أن أعمال نجيب محفوظ ولا سيما ثلاثيته الشهيرة "بين القصرين" و"قصر الشوق" و"السكرية" تقدّم مشهدًا دقيقًا لتغيّر البنية الطبقية في مصر ولتفاعل الشخصيات مع تصاعد التيارات السياسية كالإخوان المسلمين والاشتراكيين. وكذلك قدّمت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح نموذجًا فنيًا عميقًا لقضية الهوية بعد الاستعمار من خلال الصراع بين الشخصية العربية والغرب، وذلك ضمن سرد رمزي محكم.

كما ساهمت الرواية العربية في كشف خفايا الواقع السياسي، خاصة في ظل أنظمة القمع والاستبداد حيث برز ما يُعرف بـ "الرواية السياسية" التي شهدت ازدهارًا ملحوظًا بعد هزيمة

[71] محسن الرملي، تمثّلات الحرب في الرواية العراقية، مجلة الثقافة الجديدة، بغداد، العدد 319، 2010، ص. 55.

1967م، فتحوّلت الرواية إلى وسيلة لتحليل أسباب الانكسار، وتشريح البنية السلطوية، كما يتجلى في رواية "اللجنة" لصنع الله إبراهيم "وشرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف. ففي هذين العملين، "تتحوّل الرواية إلى وثيقة أدبية تسجّل معاناة الإنسان من التعذيب والاضطهاد، وانهيار المشروع القومي إذ أن الرواية تتحوّل إلى شهادة على التعذيب والقمع واغتيال الحلم القومي.

شهدت الرواية العربية تطورًا ملحوظًا في ظل تصاعد الحروب والكوارث، حيث أصبحت تعكس معاناة الاحتلال والنزوح والدمار بأسلوب فني مؤثر. في هذا الإطار، برزت "رواية الحرب" بقوة خصوصًا في العراق ولبنان وفلسطين وسوريا لتؤدي دورًا في توثيق المآسي الجماعية. فعلى سبيل المثال قدمت رواية "باب الشمس" لإلياس خوري سردًا واسعًا لتجربة المنفى والمقاومة الفلسطينية بينما صورت رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي مشهد العنف والفوضى بعد الاحتلال الأمريكي للعراق من خلال مزيج من الواقعية والفانتازيا.

تقدّم رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح قراءة رمزية معقدة لمرحلة ما بعد الاستعمار، من خلال إبراز الصراع النفسي والاجتماعي بين القيم التقليدية التي تمثلها القرية، والقيم الغربية الاستعمارية، بما يعكس في النهاية تمزق الذات العربية بين عالمين متناقضين.

أما بعد نكسة عام 1967م، فقد تحوّلت الرواية إلى مرآة لأزمة المشروع القومي العربي، وانهيار أحلام الوحدة والتنمية، وهو ما يظهر بوضوح في كتابات صنع الله إبراهيم، ولا سيما في روايته اللجنة، التي تُصوّر الدولة العربية بوصفها "مؤسسة قمعية تهيمن على الجسد والفكر معًا، وتحوّل الإنسان إلى كائن خاضع للمراقبة والمسخ.[72]"

[72] صنع الله إبراهيم، اللجنة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1981، ص: 42.

وأيضا رصدت الرواية العربية هشاشة الواقع الاجتماعي حيث تناولت حياة الفقراء واضطهاد النساء والتغيرات المجتمعية خاصة من خلال كتابات النساء. ظهرت هذه القضايا بوضوح في روايات مثل "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي و"كم بدت السماء قريبة" لبتول الخضيري حيث نجد تصويرًا صادقًا لمعاناة المرأة في عالم يسيطر عليه الذكور وتمزقه الحروب والانكسارات النفسية.

برز جيل جديد في السنوات الأخيرة من الكتّاب الشباب الذين عبّروا عن قضايا معاصرة مثل البطالة والهجرة والفساد وكبت الحريات مستخدمين لغة بسيطة وسردًا متحررًا من القوالب التقليدية. ويتجلّى هذا الاتجاه في أعمال أحمد خالد توفيق ورجاء عالم ومحمد حسن علوان حيث يعكسون هموم الجيل الجديد، وتمردهم على الواقع بأساليب روائية حديثة.

وهكذا بدت الرواية العربية أكثر من مجرد انعكاس للواقع حيث إنها في أحيان كثيرة مرآة مكسورة، تعكس الواقع بعناصره المشوّهة والمضخّمة أو تعيد تقديمه من خلال رموز واستعارات لكنها تظل في نهاية المطاف من أنجع الوسائل الفنية التي تساعد على فهم الواقع العربي بكل ما فيه من تعقيد وتشابك.

ولم تكن قضايا المرأة بمعزل عن هذا التحوّل. فقد ظهرت الرواية النسوية بوصفها تيارًا يعبّر عن وعي مختلف للمرأة بذاتها ومجتمعها. وتشكّل روايات مثل امرأة عند نقطة الصفر لنوال السعداوي، وذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، أمثلة بارزة على هذا التحوّل، حيث تسلط الضوء على الهيمنة الذكورية والاغتراب الجسدي والحرمان العاطفي، داخل مجتمعات تقمع الحرية وتعيد إنتاج آليات القهر.

إن الرواية العربية المعاصرة لم تعد تكتفي بدور الشاهد الصامت، بل تحوّلت إلى فاعل نقدي يسهم في تفكيك الواقع وإعادة بنائه عبر أدوات فنية وسردية متعددة. فهي لم تعد فنًا محايدًا

أو مجرد انعكاس آلي للواقع، بل غدت منبرًا للتحليل والتأمل والتغيير، تطرح من خلاله الأسئلة الجوهرية حول الهوية، والدولة، والمجتمع، والعدالة، والتحرر. بهذا المعنى، فإن الرواية تقدم خطابًا موازيًا للتاريخ الرسمي، بل ناقدًا له، وتستحق أن تُقرأ باعتبارها التعبير الأصدق عن التجربة العربية في ماضيها وحاضرها.

8. الرواية العربية المعاصرة

تمثل الرواية العربية المعاصرة ذروة تطور هذا الفن السردي في العالم العربي، بعد قرابة قرن من التجريب والتحول والتفاعل مع المتغيرات التاريخية والاجتماعية والسياسية. فمنذ النصف الثاني من القرن العشرين، بدأت الرواية تتجاوز الأطر الكلاسيكية الموروثة عن الرواية الواقعية، وتتبنّى أشكالًا جديدة من السرد والتقنيات والأساليب، تعبيرًا عن وعي حداثي مأزوم ومفتوح في آنٍ معًا. لقد شهدت هذه المرحلة انفجارًا في الموضوعات، حيث لم تعد الرواية حكرًا على النخبة أو المدينة الكبرى، بل اتسعت لتشمل الهوامش والأقليات والمرأة وحتى المهمشين نفسيًا وأصبحت الرواية فضاءً متعدد الأصوات والتجارب كما نلحظ في روايات إبراهيم الكوني التي تعيد تشكيل الصحراء كعالم روحي وأسطوري وفي كتابات ربيع جابر التي تستحضر الذاكرة اللبنانية من خلال سرديات الفقد والانهيار.[73]

تغيّرت بنية الرواية العربية المعاصرة على مستوى الشكل إذ لم تَعُد محصورة في القالب السردي التقليدي بل تبنّت أساليب ما بعد الحداثة مثل التلاعب بالزمن وتفكك الهوية وتعدد الأصوات واللغات داخل النص. كما انفتحت على أنواع أدبية أخرى كالشعر واليوميات والوثائق مما أضفى عليها طابعًا أكثر تنوعًا وتحررًا في الشكل والمضمون. ويعدّ وليد إخلاصي وإلياس خوري وجمال الغيطاني وأمين معلوف من أبرز المجددين الذين دفعوا بالرواية من

[73] عبد الله إبراهيم، تحولات السرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003، ص. 113–128.

تجاوز النموذج الواقعي نحو مستويات أعمق من الوعي التاريخي والفلسفي. كما أثّرت التحولات السياسية الكبرى مثل الحروب والثورات والنكبات على الرواية من حيث الموضوع والتقنية حيث ظهر ما يُعرف بـ"رواية ما بعد الحرب" و"رواية ما بعد الثورة" التي تمزج بين الفانتازيا والرمز والموروث الشعبي والتفكيك السياسي كما في تجارب أحمد سعداوي وخالد خليفة ورجاء عالم.

تعتبر الرواية النسوية أحد التيارات الفاعلة في الرواية المعاصرة إذ تمكّنت الكاتبات من إحداث نقلة نوعية في تمثيل الذات الأنثوية والخروج من خطاب الضحية إلى فضاء المقاومة السردية كما في روايات هدى بركات وسلوى بكر ونجوى بركات وعلوية صبح حيث "يتم تفكيك الممنوعات المتعلقة بالجسد والهوية والجنس والدين باستخدام لغة شعرية كثيفة أو سرد مجزّأ يعكس التمزق النفسي والاجتماعي".[74]

كما شهدت الرواية العربية المعاصرة توسعًا في دائرة التلقي وذلك مع ازدياد الاهتمام بها في الجوائز الأدبية (كجائزة البوكر العربية)، "وفي الترجمة إلى اللغات العالمية، مما ساهم في عولمة الرواية العربية وإبراز تنوعها، وطرحها لموضوعات كونية بلغة محلية، وهو ما جعلها محل اهتمام الدراسات المقارنة والنقد ما بعد الاستعمارية ".[75]

إن الرواية العربية المعاصرة، تمثّل خلاصة قرن من التراكم والتجريب، وتُعد اليوم الحقل الأدبي الأكثر ديناميكية وتطورًا، لما تتضمنه من قدرة على استيعاب التحولات المعقدة في المجتمع العربي، وتقديمها في صياغات سردية مبتكرة، تجمع بين التأمل الفلسفي والانخراط الواقعي، وبين الجمالية الفنية والتوثيق التاريخي.

---

[74] رجاء بن سلامة، الجسد في الرواية العربية، دار تونس للنشر، تونس، 2000، ص. 94.

[75] فريال غزول، "الرواية العربية والترجمة"، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 23، العدد 1، 2004، ص. 55.

الفصل الثالث
الروايات العربية في العراق

1. خصوصية المشهد الروائي العراقي

إن الرواية العراقية تتميز بخصوصية فنية وتاريخية جعلتها تختلف عن مثيلاتها في باقي الأقطار العربية. هذا التميز ينبع من تفاعلها العميق مع الواقع العراقي بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية، حيث تشكّلت الرواية العراقية تحت تأثير تحولات كبرى، وصراعات مزمنة، وهو ما أفرز سرداً يحمل في طياته الكثيرة من الألم، والتمزق، والانتماء.

2. السياق الثقافي والتاريخي للعراق

يمتلك العراق تاريخًا حضاريًا عريقًا، فهو من أقدم المراكز التي شهدت نشوء الحضارات الإنسانية الأولى كالسومرية والبابلية والآشورية الأمر الذي أكسبه إرثًا فكريًا وثقافيًا بالغ العمق والتأثير. "لقد شكّلت هذه الحضارات القديمة أسس الفكر الإنساني الأول وأسهمت في ابتكار الكتابة المسمارية وتقنين القوانين وتشييد المدن وتطوير الفنون والآداب وهو ما انعكس على التكوين الثقافي للعراقي عبر الأجيال"[76]. وقد أثّر هذا العمق الحضاري في بناء وعي ثقافي مركّب يقوم على الاحترام العميق للرموز التاريخية والأساطير وتقدير الحكمة والفن. ولهذا السبب كثيرًا ما نجد في الأدب العراقي الحديث استدعاءً للرموز القديمة أو توظيفًا للزمن التاريخي كإطار لاستيعاب الحاضر. ومع دخول العصر الحديث وخاصة في القرن العشرين شهد العراق حركة ثقافية نشيطة حيث تأسست المدارس الحديثة والجامعات، وظهرت الصحافة الأدبية والمسرح والرواية والشعر الحر. وارتبطت هذه النهضة بتغيّرات سياسية كبرى مثل تأسيس الدولة العراقية عام 1921م، وسقوط النظام الملكي، وصعود الأحزاب القومية واليسارية

[76] طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الحرية، بغداد، 1986، ص. 14–25

والإسلامية[77]. في هذا السياق، لم يكن الأدب مجرد وسيلة جمالية، بل أصبح أداة للنقد والتعبير عن الأزمات المجتمعية والسياسية، مما أفرز ما يُعرف بـ"الرواية المشتبكة بالواقع"، وهي رواية تأخذ من اليومي والآني، وتعكس بوضوح الانقسام والقلق والهويات المتعددة[78].

كما لا يمكن إغفال دور التعليم والصحافة في نشوء طبقة من الكُتّاب الذين مزجوا بين الوعي السياسي والانتماء الوطني، وبين الأسلوب الفني والتقنيات الحديثة. فقد أسهمت الجامعات في تكوين نخب فكرية وأدبية متقدمة، كما شكّلت الصحف والمجلات الأدبية فضاءات حرة لتجريب أشكال جديدة من السرد والتفكير[79]. ومن رحم هذا الواقع، برزت أسماء مثل غائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي وفاضل العزاوي، وغيرهم ممن طوّروا الرواية العراقية شكلاً ومضمونًا، وربطوها بالقضايا الكبرى كالقمع، والحرب، والمنفى، والتحول الاجتماعي[80]. لقد منحت هذه العناصر مجتمعة الرواية العراقية طابعًا خاصًا، حيث تُكتب الرواية بوصفها شهادة سردية على تاريخ مأسوي، وهي أيضًا وثيقة للذاكرة الجماعية العراقية، في بلد تعاقبت عليه الحروب والانقلابات والاحتلالات.

3. تأثير الأحداث السياسية والاجتماعية في تشكيل الرواية العراقية

ارتبطت الرواية العراقية دومًا بالتحولات السياسية والاجتماعية التي مرّ بها العراق ولم تكن يومًا بعيدة عنها بل كانت في صميم التفاعل مع الواقع وتنقله وتناقشه وتقدّمه بأسلوب سردي يعيد تأويله من زوايا متعددة. فمنذ تأسيس جمهورية العراق الحديثة سنة 1921م بعد نهاية الاحتلال البريطاني، وحتى الغزو الأمريكي سنة 2003م، مرّ العراق بمحطات حافلة بالتغييرات

[77] علي جواد الطاهر، الرواية العربية في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص. 51.

[78] عبد الحسين شعبان، المثقف العراقي والمحنة التاريخية، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2003، ص. 77.

[79] شاكر النابلسي، الروائيون العرب والحرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص. 142.

[80] فاضل ثامر، الرواية العراقية: تجليات الواقع وتحولات الشكل، دار المدى، دمشق، 2007، ص. 115.

العنيفة والصراعات السياسية الحادة، وكان لهذه الأحداث دور محوري في توجيه مسار الرواية العراقية موضوعاً وبنيةً[81]. لقد تفاعلت الرواية العراقية بعمق مع أحداث الانقلابات العسكرية المتكررة (1958م، 1963م، 1968م)، وصعود حزب البعث الذي فرض هيمنة أيديولوجية وأمنية على الحياة الثقافية، كما تركت الحرب العراقية الإيرانية (1980م–1988م) ندوباً نفسية واجتماعية وثقافية عكستها النصوص الروائية من خلال شخصيات محطّمة ومناظر الدمار، وثيمة الموت[82]. ثم جاءت حرب الخليج الثانية (غزو الكويت 1990م) وما تبعها من حصار اقتصادي مرير ليزيد من قسوة الواقع، ويُدخل الرواية في طور جديد من السرد السوداوي والمأساة الوجودية[83]. أما غزو العراق عام 2003م وما تلاه من انهيار أمني وفوضى اجتماعية، فقد شكّل لحظة فاصلة في الرواية العراقية، حيث برزت روايات ما بعد الاحتلال التي تناولت قضايا الهُوية الوطنية، والانقسامات الطائفية، والعنف العشوائي، وخسارة الدولة[84].

4. تحوّلات المضمون والشكل الروائي

أثّرت التحولات السياسية والاجتماعية الكبرى في العراق بشكل واضح على مضمون الرواية العراقية، حيث برزت موضوعات مثل القمع السياسي كأحد المحاور المتكررة في كثير من الأعمال. فقد تناولت العديد من الروايات مشاهد السجون، وأساليب القمع والخوف الذي تزرعه السلطة مما جعل هذه التجارب جزءًا أساسيًا من البناء السردي. كما برزت فكره الاغتراب والمنفى نتيجة تجارب الشتات والهجرة القسرية التي عاشها كثير من الكتاب

[81] عبد الله إبراهيم، الرواية في العراق: التحولات البنيوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص. 21–25.

[82] فاضل ثامر، الرواية العراقية: تجليات الواقع وتحولات الشكل، دار المدى، دمشق، 2007، ص. 88–93.

[83] عواد علي، الرواية العراقية بعد الحصار، مجلة الأقلام، العدد 3، 2001، ص. 17–22.

[84] فيصل غازي، الرواية العراقية وتحولات ما بعد الاحتلال، دار الجمل، بيروت، 2012، ص. 33–41.

العراقيين، مما جعل المنفى ليس مجرد مكان بل حالة وجودية تسكن السرد. وتجلّى الانهيار القيمي والتمزق الاجتماعي من خلال شخصيات روائية تعاني من الضياع والتفكك النفسي وفقدان المعنى في عالمٍ مشوّه. أما الهوية المتصدعة، فقد تناولتها الروايات بوصفها أزمة معاصرة حيث طُرحت تساؤلات جريئة حول الانتماء الوطني، والصراع بين الهويات الدينية والطائفية المتنازعة[85]. ولم يكن التأثير مقتصرًا على المضمون فقط بل شمل أيضًا الشكل الفني للرواية حيث تبنّى العديد من الكتّاب أساليب سردية جديدة كـ التقطيع الزمني واللاخطية للتعبير عن التشظي الداخلي والارتباك الوجودي الناتج عن الحروب والتحولات وأيضا وظّفوا الرموز والأساطير كوسائل ترميز سياسي وهروب فني من رقابة السلطة. ومن اللافت أن كثيرًا من هذه الروايات اختارت أن تُروى الأحداث من وجهة نظر الشخصيات المهمّشة أو الضحية، ما أتاح مساحة أوسع للبوح والتوثيق والتعبير عن صوتٍ كان مقصيًا في الخطاب الرسمي[86].

5. الرواية بوصفها مقاومة رمزية وذاكرة جمعية

أصبحت الرواية العراقية وسيلة لتوثيق تاريخ معرض للنسيان أو الإخفاء، حيث استخدم الكُتّاب رواياتهم لحفظ ذاكرة المجتمع وكشف الجوانب التي تم تجاهلها أو تحريفها في الروايات الرسمية. فهي لا تكتفي بعكس الواقع بل تمثل أيضًا شكلًا من أشكال المقاومة الرمزية ضد القمع والتزييف الإعلامي ومحاولات طمس الذاكرة. ولهذا لا يمكن فهم الرواية العراقية بعيدًا عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي نشأت فيها، فهي تعبير عن الألم وصورة لتشتّت الهوية وسعي دائم لفهم الذات وسط واقع مضطرب.

[85] خضير فليح الزيدي، السرد العراقي وتمثلات الهوية الممزقة، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 310، 2009، ص. 59–62.

[86] عبد العزيز المقالح، الرواية العربية والحرب، دار الفكر، دمشق، 2005، ص. 99–104.

6. البدايات الأولى للرواية في العراق

الرواية من الأجناس الأدبية الحديثة نسبيًا في الوطن العربي وقد تأخّر ظهورها في العراق مقارنةً ببعض الأقطار العربية الأخرى مثل مصر ولبنان، وذلك لأسباب تتعلّق بالواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي ساد البلاد خلال العهد العثماني وما بعده. ومع مطلع القرن العشرين بدأت ملامح الرواية العراقية تتشكل في ظل نهضة فكرية وأدبية شهدها العراق مع تطور حركة الصحافة والتعليم وظهور طبقة جديدة من المثقفين. وقد مثّل الكُتاب الأوائل أمثال محمود أحمد السيد وجعفر الخليلي بوادر حقيقية لتأسيس هذا الفن في البيئة العراقية حيث سعوا إلى المزج بين هموم الواقع الاجتماعي وتطلعات التحديث ضمن إطار فني يستند إلى التجربة والسرد. وتجدر الإشارة إلى أن الرواية العراقية منذ بداياتها الأولى ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالسياق المحلي وسعت إلى التعبير عن هوية المجتمع وتحولاته مما جعلها تكتسب طابعًا خاصًا ومميزًا ضمن المشهد الروائي العربي.

7. الريادة الروائية في العراق: محمود أحمد السيد وجعفر الخليلي وغيرهما

عرف العراق بحضارته العريقة وإرثه الفكري منذ أقدم العصور، إلا أن الرواية كفن حديث لم تبدأ بالظهور فيه إلا مع بدايات القرن العشرين، وذلك بشكل متأخر نسبيًا مقارنةً بدول عربية أخرى مثل مصر ولبنان التي شهدت ولادة الرواية في وقت أبكر. وقد تأخّر ظهور الرواية في العراق لأسباب عدّة أبرزها تأخر انتشار التعليم الحديث وهيمنة الشكل الشعري على الحياة الأدبية بالإضافة إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تقيّد حرية التعبير والنشر[87].

[87] عبد الله إبراهيم، الرواية في العراق: التحولات البنيوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص. 33.

ويُعد محمود أحمد السيد (1903م–1937م) أول من كتب رواية فنية متكاملة بالعراق، وهو يُعد بحقّ "رائد الرواية العراقية" من خلال روايته "في سبيل الزواج" (1921م) التي كتبها وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره ثم روايته "مصير الضعفاء" (1922م) و"الطالبة فاتن" (1930م). وقد اتسمت هذه الأعمال المبكرة بطابع أخلاقي وإصلاحي، وكان الهدف منها نقل المجتمع العراقي من الجمود إلى الحداثة وتوعية القارئ بقيم العدالة والمساواة[88]. كما تأثر محمود أحمد السيد بالأدب المصري وبأفكار النهضة والإصلاح الاجتماعي، وجعل من الرواية وسيلةً للتغيير لا مجرد سرد للمتعة.

أما جعفر الخليلي (1910م–1985م)، فيُعد من الكتّاب البارزين الذين واصلوا تجربة الرواية خلال العقود التالية، وخصوصًا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين. كتب روايات مثل "عبد الله" و"وادي الغضب"، واتجه في كتابته إلى تصوير الصراع الاجتماعي والطبقي في المجتمع العراقي، خاصةً في المدن المقدسة مثل النجف، حيث ركّزت الروايات على العلاقات بين طبقة رجال الدين والناس البسطاء[89]. كما أن كتابات الخليلي اتسمت بلغة بسيطة وشخصيات قريبة من الواقع مما ساعد في تعميق حضور الرواية في وجدان القارئ العراقي.

وقد ساهم أيضًا في ترسيخ الشكل الروائي كتّاب آخرون مثل "ذو النون أيوب" و"عبد الملك نوري" و"فؤاد التكرلي" الذين أدخلوا عناصر التجريب والأساليب النفسية والتحليلية إلى النص الروائي في العراق[90].

---

[88] فاضل ثامر، جماليات الرواية العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص. 42–45.

[89] حاتم الصكر، الرواية العراقية: سرد التحول الاجتماعي، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص. 58–63.

[90] محمد حسين الأعرجي، مقدمة في تاريخ الرواية العراقية، دار المدى، دمشق، 2005، ص. 70–78.

8. دور الصحافة والمجلات الثقافية في ظهور الرواية

لعبت الصحافة والمجلات الثقافية دورًا محوريًا في بروز الرواية العراقية وتطورها، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين، إذ كانت الوسيط الرئيسي الذي وفّر للكتاب منصة لنشر أعمالهم الأدبية في ظل غياب دور النشر المتخصصة. فقد ظهرت صحف ومجلات مثل "حبزبوز" و"العالم العربي" و"الزمان" التي كانت منابر أدبية مهمة لنشر القصص والروايات على شكل حلقات مسلسلة، الأمر الذي أتاح للكتّاب الشباب مساحة للتجريب والاحتكاك المباشر مع جمهور واسع من القراء، وقد هذا ساهم في بلورة أشكال سردية جديدة وتكريس مفهوم الرواية كفن أدبي قائم بذاته في العراق[91]. كما ساهمت هذه المنصات في تشكيل الوعي السردي العام من خلال المقالات النقدية التي كانت تنشرها مجلات مثل "الأديب العراقي" و"الروافد" والتي ناقشت قضايا متعلقة بالبنية الروائية والأسلوب والموضوعات، حيث جعلها أدوات معرفية مؤثرة في توجيه مسار الرواية العراقية الحديثة[92].

إن اعتماد الكتّاب على الصحافة كوسيلة للنشر فرض عليهم تبني أساليب كتابية تتسم بالبساطة والوضوح، مراعيةً القارئ العادي غير المتخصص، وهو ما أثر بشكل مباشر في طبيعة النصوص الروائية المنتجة في تلك الفترة، حيث غلب عليها الطابع المباشر والأسلوب السلس[93]. ومع مرور الوقت وتطور هذه الصحف والمجلات من حيث الشكل والمضمون، بدأت الرواية العراقية تدخل مرحلة جديدة من النضج الفني، خاصة منذ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، حيث ظهرت أعمال روائية أكثر تعقيدًا من حيث البناء الفني والرؤية الفكرية، ما

[91] عبد الرحمن مجيد الربيعي، تاريخ الرواية في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص 65.

[92] عبد الله إبراهيم، السردية العربية: مفاهيم وتجليات، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003، ص 113.

[93] محسن جابر، "تأثير الصحافة في بنية الرواية العراقية"، مجلة الأقلام، العدد 5، 1995، ص 44.

يشير إلى أن الدور الذي لعبته الصحافة لم يكن مجرد وسيلة للنشر، بل كان محفّزًا حقيقيًا للتطور السردي في العراق[94].

9. الرواية العراقية في منتصف القرن العشرين

شهدت فترة منتصف القرن العشرين تحولًا بارزًا في مسار الرواية العراقية إذ جاءت محمّلة بتغيرات سياسية واجتماعية وثقافية عميقة. أثّرت بوضوح في بنية الرواية وأساليبها، وأسهمت في إعادة تشكيل مضامينها وأشكالها الفنية. فمنذ استقلال العراق عام 1932م وحتى ثورة 1958م وما بعدها، كانت البلاد تمر بمرحلة حاسمة من التحول من بنية استعمارية إلى بنية وطنية حديثة، انعكس هذا التحول بوضوح في النص الروائي من حيث الشكل والمحتوى. وقد تميّزت هذه المرحلة بظهور الرواية الواقعية التي سعت إلى توثيق الواقع العراقي وتحليله، مع حضور قوي للبعد السياسي والاجتماعي والفكري. كما اتجه العديد من الكتّاب إلى استلهام الأيديولوجيات الكبرى، ولا سيما الاشتراكية، في مقارباتهم السردية، متأثرين بالحركات التحررية والثورات الاجتماعية في المنطقة والعالم. هذه العوامل مجتمعة شكلت ملامح الرواية العراقية الحديثة وأسهمت في بلورة هوية فكرية وجمالية جديدة للرواية.

10. مرحلة ما بعد الاستعمار وتطور الرواية الواقعية

لقد شهدت الرواية العراقية خلال مرحلة ما بعد الاستعمار تحولاً نوعيًا في اتجاه الواقعية الاجتماعية، كردّ فعل على التغيرات السياسية والاجتماعية المتسارعة في البلاد. وقد ركز الكتّاب في هذه المرحلة على تصوير التناقضات الطبقية والفقر والتفاوت الاجتماعي مستلهمين الواقع العراقي بكل ما يحمله من تعقيد وبؤس وتطلعات للتغيير. لم تعد الرواية تكتفي بسرد الحكايات،

[94] فيصل غازي، تحولات السرد في الرواية العراقية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص 89.

بل أصبحت أداة نقدية تستند إلى تحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية في البلاد وتهدف إلى توعية القارئ وإثارة التساؤلات حول الواقع المعاش[95].

برزت في هذه المرحلة أعمال الكتاب مثل "غائب طعمة فرمان"، الذي يُعتبر من أبرز ممثلي التيار الواقعي في الأدب العراقي، حيث جسدت رواياته مثل "النخلة والجيران" (1966م) و"خمسة أصوات" (1967م) تجارب الطبقات الشعبية وهمومها اليومية في ظل التحولات الحضرية والسياسية المتلاحقة[96]. لقد تبنّى فرمان وأمثاله الواقعية النقدية التي تسعى إلى تجاوز الظواهر السطحية والوصول إلى الجذور البنيوية للمشكلات الاجتماعية، وهو ما جعل الرواية أداة للمساءلة الفكرية أكثر من كونها مجرد سردٍ فني.

ومن الجدير بالذكر أن الرواية الواقعية في هذه المرحلة استفادت من التقاليد السردية العربية القديمة ولكنها أعادت إنتاجها بما يتناسب مع ضرورات التعبير الحداثي حيث أصبح الحوار الداخلي وتعدد وجهات النظر والاهتمام بالتفاصيل اليومية عناصر فنية رئيسة[97].

11. التأثر بالأيديولوجيات السياسية والاشتراكية في الرواية العراقية

ارتبطت الرواية العراقية في منتصف القرن العشرين بشكل وثيق بالحراك السياسي والأيديولوجي الذي كان يسيطر على البلاد والمنطقة وقد ساهمت الأحزاب السياسية، وعلى رأسها الحزب الشيوعي العراقي، في تشكيل وعي جيل من الكتّاب والمثقفين، ما انعكس بشكل واضح في نتاجاتهم الأدبية. حملت الرواية في هذه المرحلة أفكارًا اشتراكية بارزة، تمثلت في الدفاع عن الفقراء، وانتقاد الطبقات البرجوازية، والدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتغيير الثوري. وقد تجلى هذا التأثير في بناء الشخصيات الروائية التي أصبحت تمثل نماذج رمزية للصراع الطبقي،

---

[95] عبد الله إبراهيم، السردية العربية: مفاهيم وتجليات، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003، ص 157.

[96] غائب طعمة فرمان، النخلة والجيران، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1966.

[97] محسن جابر، "ملامح الواقعية النقدية في الرواية العراقية"، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 10، 1988، ص 33.

كثيرًا ما صُوّر البطل الروائي على أنه إنسان بسيط يعاني من القهر والظلم، ويسعى إلى مقاومة تلك الأوضاع عبر وعيه السياسي المتنامي. كما انتقلت الرواية من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي حيث غلبت الموضوعات العامة على الخاصة وأصبحت الرواية منصة للتعبير عن قضايا الأمة مثل الاحتلال والفقر والفساد والتفاوت الاجتماعي[98].

ومن أشهر من مثّل هذا التيار الروائي الأيديولوجي كان "مهدي عيسى الصقر" الذي انخرط في العمل الحزبي، وانعكس ذلك في رواياته من خلال تصويره لحياة العمال والفلاحين والنضال من أجل التحرر الاجتماعي والسياسي. ولم يكن الصقر وحده في هذا التوجه، بل كان جزءًا من حركة أدبية واسعة، وظفت الأدب كأداة نضالية ضد الظلم الاجتماعي والسياسي[99].

12. القضايا الموضوعية والفنية في الرواية العراقية

مرت الرواية العراقية منذ بداياتها بتطورات كبيرة شملت الجوانب الفنية والموضوعية، وجاءت هذه التحولات نتيجة تفاعلها المستمر مع التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشها العراق عبر العقود. فلم تكن الرواية مجرد أداة تعبير جمالي، بل كانت مرآةً عاكسة لصراعات الواقع وتحولاته، ومنبرًا لنقده وإعادة تشكيله سرديًا. ولأن العراق بلد شهد استعمارًا واحتلالًا وانقلابات وحروبًا متتالية، فقد أصبحت الرواية العراقية، في كثير من مراحلها، أدبًا ملتزمًا يحمل قضايا وطنية واجتماعية وإنسانية، إضافة إلى تطور أدواتها الفنية لمواكبة التيارات العالمية مثل الواقعية، والحداثة، وما بعد الحداثة. وانطلاقًا من هذه الخلفية، يمكن تقسيم القضايا التي تناولتها الرواية العراقية إلى قسمين رئيسيين: قضايا موضوعية تعكس هموم الواقع، وقضايا فنية تتعلق ببنية الشكل وتقنيات السرد.

---

[98] فيصل غازي، الرواية العراقية والواقع الاجتماعي، دار المدى، دمشق، 1998، ص 112.

[99] حسن ناظم، "أيديولوجيا الأدب في العراق الحديث"، مجلة الكلمة، العدد 20، 2002، ص 78.

أ. انعكاس الو اقع وتحولاته

إن دراسة الرواية العراقية لا يمكن أن تكتمل دون الوقوف عند البعدين المتداخلين فيها: البعد الموضوعي، الذي يتمثّل في المضامين والأفكار التي تتناولها الرواية والبعد الفني الذي يعبّر عن الأدوات السردية والتقنيات الشكلية التي تُبنى بها هذه النصوص. فالتحولات السياسية والاجتماعية والفكرية التي مرّ بها العراق على امتداد القرن العشرين، تركت آثارًا عميقة على الوعي الروائي وأنتجت خطابًا سرديًا يعكس أزمات الواقع ويعيد تأويله عبر أدوات فنية متطورة. من هنا، فإن دراسة القضايا الموضوعية والفنية في الرواية العراقية لا تعني فقط رصد الأفكار المركزية مثل الحرب، والهوية، والصراع الطبقي، بل تعني أيضًا تحليل كيفية تقديم هذه الموضوعات من خلال السرد وتطورها، وأساليب لغوية، وزوايا نظر تتيح للباحث اكتشاف الديناميكيات المعقدة بين الواقع والتخيل.

إن الرواية بوصفها فنًا سرديًا، تتفاعل مع السياق العام الذي تُنتَج فيه، ولذلك فإنّ تتبّع القضايا الموضوعية يكشف عن مستويات متعددة من الخطاب السياسي والاجتماعي، كما أن استقصاء القضايا الفنية يُظهِر مدى تطور الوعي الجمالي عند الروائيين العراقيين، وقدرتهم على إدماج التجريب الفني مع الالتزام الواقعي.

ب. القضية الوطنية والسياسية

تناولت الرواية العراقية العديد من القضايا المحورية، وكان من أبرزها القضية الوطنية المرتبطة بالاحتلال والاستعمار والنضال من أجل الحرية. ركزت كثير من الأعمال، خاصة في منتصف القرن العشرين، على مشاهد المقاومة ضد الاستعمار البريطاني، ثم لاحقًا على مواجهة الاحتلال الأمريكي، كما تجلّى ذلك بوضوح في روايات كتّاب مثل أحمد سعداوي وسمير خليل حيث كانت

الرواية هنا تحمل خطابًا سياسيًا يتقاطع مع السرد الواقعي، يطرح عبر شخصياته وأحداثه موقفًا من السلطة، ويعكس صوت المهمشين والمضطهدين.

ج. الصراع الطبقي والاجتماعي

حازت قضايا الفقر والبطالة والتفاوت الطبقي والفساد الإداري على حضور بارز في الرواية العراقية خصوصًا في العقود التي تلت انهيار النظام الملكي حيث ركز الكتّاب الواقعيون أمثال غائب طعمة فرمان ومهدي عيسى الصقر على تصوير معاناة الإنسان العراقي العادي في ظل التغيرات الاجتماعية. هذه الموضوعات لم تُطرح من منظور حيادي، بل كانت الرواية وسيلة لفضح التناقضات الاجتماعية والدعوة إلى التغيير.

د. الحرب والشتات والهوية

أدى اندلاع الحرب بين العراق وإيران (1980م–1988م)، ثم غزو الكويت، وأخيرًا الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003م، إلى موجات متتالية من الدمار والتهجير والنزوح، مما أسهم في ظهور اتجاه جديد في السرد الروائي. حاول التعبير عن الذاكرة الجماعية للحرب والشتات وطرح تساؤلات عميقة حول الهوية العراقية التي تمزقت بين الطوائف والانتماءات المختلفة. وقد أفرزت تلك المرحلة ما يُعرف بـ"أدب ما بعد الحرب"، وهو أدب يستند إلى تجارب ذاتية وجماعية في مواجهة العنف والموت والخراب.

هـ. تطور الشكل وتقنيات السرد

عكست القضايا الموضوعية في الرواية العراقية مضمون النص وعبرت عن مشكلات المجتمع وتغيراته، في حين عدت القضايا الفنية أساس البناء السردي، فهي ما منحت النص تميّزه الخاص وشكلت هويته الجمالية والفنية. فالفن الروائي لا يقتصر على ما يُقال بل يشمل أيضًا

الكيفية التي يُقال بها من حيث أساليب السرد، وبناء الزمن وتشكل الشخصيات ولغة النص والتقنيات التي يعتمدها الروائي لإيصال رؤيته إلى القارئ.

شهدت الرواية العراقية تحوّلات فنية كبيرة لا سيما منذ ستينيات القرن العشرين حيث ارتبطت بتأثر الكتّاب العراقيين بالاتجاهات العالمية في الرواية الحديثة وبالرغبة في تجاوز الشكل الكلاسيكي نحو أنماط أكثر تجريبًا وتعددًا. ويمكن القول إن هذه التحولات لم تكن ترفًا شكليًا، بل كانت ضرورة فنية واستجابة واعية لتعقيد الواقع العراقي، إذ لم تعد الأدوات التقليدية كافية للتعبير عن الحروب والانهيارات السياسية والتمزق النفسي والوجودي الذي عايشه المجتمع.

وتتجلى هذه القضايا الفنية في عدد من المحاور، من أبرزها: الانتقال من السرد الخطي التقليدي إلى سرد التشظي وتوظيف تقنيات تيار الوعي وكسر البنية الزمنية وتعدد الأصوات واستثمار التناصّ مع الموروثات الثقافية والأسطورية. كما تطورت اللغة الروائية من أداة وصفية إلى وسيلة تأملية تنبني أحيانًا على الإيحاء والتكثيف الشعري. لذلك فإن هذا المحور يسعى إلى تحليل أبرز ملامح التحوّل الفني في الرواية العراقية، من خلال استعراض التطور في بنية الشكل، والأسلوب، وطرائق السرد، بوصفها مؤشرات على نضج التجربة الروائية وتفاعلها الخلّاق مع التحوّلات الفكرية والجمالية الأوسع. وهذا ما سنتطرق اليه لاحقا في هذه الدراسة.

و. من السرد التقليدي إلى السرد الحداثي

بدأت الرواية العراقية تقليدية في بنيتها قائمة على التسلسل الزمني والسرد الخارجي والشخصيات النمطية. إلا أن التطور اللاحق في الرواية العراقية، خاصة بعد الستينيات كشف عن نزعة متزايدة نحو التجريب الفني عبر تقنيات مثل تعدد الأصوات وكسر التسلسل الزمني

والتقاطع بين الحلم والواقع[100]. هذا التأثر بالحداثة السردية الغربية أعاد تعريف العلاقة بين الكاتب والقارئ، إذ أصبح القارئ شريكًا في إنتاج المعنى.

ز. اللغة والأسلوب

تميّزت الرواية العراقية بتوظيف مستويات مختلفة من اللغة، تجمع بين الفصحى والعامية، وتلجأ أحيانًا إلى السرد الرمزي أو الشعري. فمثلاً، في روايات فاضل العزاوي، نلحظ أسلوبًا يمزج بين السرد الواقعي واللغة الشعرية الكثيفة، ما يمنح الرواية طابعًا جماليًا يتجاوز حدود التوثيق[101]. كما استُخدمت التناص مع الموروث الديني والأسطوري والتاريخي بوصفه تقنية لإثراء النص وتعميق دلالاته.

ح. الشخصية الروائية وبناؤها

تحوّلت الشخصية في الرواية العراقية الحديثة من مجرد عنصر في السرد إلى محور يعكس القلق الوجودي والتحولات النفسية العميقة. لم تَعُد الشخصية الرئيسية بطلة تقليدية، بل أصبحت نموذجًا لإنسان يعاني من الاغتراب والانكسار والعزلة بما يعكس أزمات الواقع العراقي. كما تطورت تقنيات عرض الشخصيات فاعتمدت على الحوار الداخلي وتيار الوعي والمونولوج مما أضفى عليها بعدًا نفسيًا وإنسانيًا أكثر عمقًا.

13. الهوية والانتماء في الرواية العراقية

ظلّت مسألة الهوية والانتماء من أهم القضايا التي تناولتها الرواية العراقية، وذلك بسبب ما مرّ به العراق من تحوّلات سياسية قاسية وصراعات طائفية وعرقية وتدهور اجتماعي وحروب متتالية. وقد جعل كل هذا سؤال "من أنا؟" سؤالًا أساسيًا في السرد الروائي. ففي كثير من هذه

[100] محسن جابر، تقنيات السرد في الرواية العراقية الجديدة، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 88، 2005، ص 66.

[101] فاضل العزاوي، آخر الملائكة، دار المدى، دمشق، 1992.

الروايات، تظهر الشخصيات وكأنها في رحلة بحث عن ذاتها، في ظل شعور بالانفصال عن الوطن، أو الاضطراب في الهوية الثقافية، أو التوتر بين الهوية الفردية والجماعية. في رواية فرانكشتاين في بغداد لأحمد سعداوي نلاحظ كيف تتجسد الهوية العراقية ككائن هجين مركّب من جثث ضحايا الحروب في استعارة عميقة عن تمزق الذات الوطنية واستحالة تشكيل هوية موحّدة في ظل الفوضى الأمنية والاجتماعية. هنا لا تصبح الهوية مفهوما سياسياً أو ثقافياً فحسب بل تتحول إلى كائن حيّ "مُركّب يحمل مظلومية الجميع دون أن ينتمي فعلاً إلى أحد"[102].

أما في روايات المنفى، كما في "المحبوبات" لعالية ممدوح، فإن أزمة الهوية تأخذ منحًى أكثر تعقيدًا حيث تتصارع الشخصية بين الحنين إلى الوطن ورفضه، وبين محاولة الاندماج في الآخر الغربي والشعور بالغربة. في هذا السياق، تصبح الرواية ذاتها حوارًا داخليًا عميقًا حول ماهية الانتماء، وحدود الذات، وتشتّت المرجعيات، ما يعكس رؤية نقدية للواقع السياسي والاجتماعي الذي دفع بهذه الشخصيات إلى الهروب والمنفى[103].

تتجلى الهوية كمرآة للانقسام الطائفي أو العرقي في روايات أخرى أو كفجوة بين الأجيال، كما في روايات محمود سعيد وعبد الخالق الركابي، حيث تمثّل الشخصيات الشابة هويات جديدة تبحث عن حرية فردية خارج البنى التقليدية التي تُثقل كاهلها، مما يؤكد أن الرواية العراقية ليست فقط شاهدة على تحولات الهوية، بل فاعلة في إعادة إنتاجها.

14. الرواية النسوية العراقية

برزت الرواية النسوية في العراق كأحد الأصوات الأدبية المتميزة التي عبّرت عن قضايا المرأة في ظل واقع مليء بالتحديات السياسية والاجتماعية. لم تكن هذه الروايات مجرد توثيق لمعاناة

[102] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، بيروت، 2013، ص 47.

[103] عالية ممدوح، المحبوبات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ص 103.

النساء بل جاءت كخطاب نقدي يسلط الضوء على قضايا الجندر والحرية والهوية من منظور نسائي واعٍ. استطاعت الكاتبات العراقيات أن يكسرن حاجز الصمت ويستخدمن الكتابة كوسيلة للمقاومة وإعادة تشكيل صورة المرأة في المجتمع. وتكمن أهمية هذا المسار الأدبي في كونه يعكس واقعًا متغيرًا، ويطرح أسئلة جريئة حول الأدوار الاجتماعية والسياسية. في ظل التوترات التي عاشها العراق، أصبحت الرواية النسوية نافذة لفهم أعمق للمرأة العراقية وتجربتها. ومن خلال دراسة هذه النصوص تتضح ملامح خطاب نسوي متطوّر يشارك في تشكيل المشهد الثقافي العراقي.

شهدت الرواية العراقية النسوية تحولات نوعية بارزة منذ النصف الثاني من القرن العشرين، مع تزايد وعي المرأة بحقوقها وظهور جيل من الكاتبات اللواتي اتخذن من الأدب وسيلة للتعبير عن معاناتهن وتجاربهن الخاصة. لم تعد المرأة في هذه الروايات مجرد شخصية هامشية أو عنصر مكمل في الحبكة بل تحولت إلى محور مركزي للسرد "تعبر من خلاله الكاتبة عن رؤيتها للعالم وتخوض نقاشًا جادًا حول القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تؤطر وجودها داخل المجتمع"[104].

برز صوت المرأة في الرواية العراقية بوصفه تعبيرًا عن ذات أنثوية تحاول استعادة موقعها في مجتمع أبوي طالما صادر حقها في التعبير والتفكير والاختيار. فقد أصبحت البطلة النسوية هي الراوية، والمحللة، والناقدة لواقعها وتجلّى ذلك في أعمال عدد من الروائيات البارزات مثل لطفية الدليمي وعالية ممدوح وأنعام كجه جي حيث "أعادت كل منهنّ رسم صورة المرأة خارج الأطر النمطية، وطرحن شخصيات نسائية واعية، متمردة، ومعقدة نفسيًا واجتماعيًا"[105].

[104] عبد الله فاضل، الرواية النسوية العربية: رؤية نقدية، دار الفارابي، بيروت، 2010، ص. 45.

[105] نادية صالح، الخطاب النسوي في الرواية العراقية المعاصرة. بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 2015، ص. 77.

قضايا الجندر والحرية من أبرز المحاور التي اشتغلت عليها الرواية النسوية العراقية حيث أنه خاضت الكاتبات في مناقشة الأبعاد الثقافية والسياسية للتمييز الجندري، وتعرض النصوص صورًا متعددة للقيود التي تفرضها الأعراف والتقاليد والدين على جسد المرأة وذاتها. فمن خلال الشخصيات النسوية التي كتبتها هؤلاء الروائيات، نجد مقاومة صريحة ومباشرة لمنظومة الهيمنة الذكورية، وسعيًا حثيثًا لإعادة تعريف مفاهيم مثل "الحرية" و"الهوية"، و"الكرامة"[106].

في رواية المحبوبات لعالية ممدوح، على سبيل المثال نجد طرحًا نقديًا عميقًا للعلاقة بين الجسد الأنثوي والمجتمع حيث تصور الكاتبة شخصية المرأة التي تحاول التحرر من القيود الثقافية المفروضة عليها وتحمل الرواية دلالات سياسية وجسدية متعددة تطرح أسئلة جوهرية حول الانتماء والمنفى والاستقلال الذاتي[107]. وهذا ما جعل الرواية النسوية في العراق مشروعًا فكريًا لا يقتصر على البعد الفني أو الجمالي، بل يتجاوزه إلى فضاء نقدي واسع يتناول العلاقات السلطوية والجندرية في المجتمع.

ولا يمكن فصل الخطاب النسوي الروائي في العراق عن السياق السياسي والاجتماعي الذي تشكّل فيه. فقد أسهمت الحروب، والحصار، والاحتلال الأمريكي، وما تبع ذلك من تحولات عنيفة في البنية المجتمعية، في تعميق الوعي النسوي لدى الكاتبات. فالنص الروائي عندهنّ لم يعد مجرد تعبير عن الذات الفردية، بل صار مرآة لواقع جمعي يعاني من القمع والتهميش والتفكك. وفي هذا السياق، تتحول الرواية النسوية إلى شكل من أشكال المقاومة الثقافية التي تسعى إلى إعادة تشكيل الخطاب الاجتماعي السائد[108].

---

[106] زهراء عبد المهدي، "التحليل الجندري في سرد المرأة العراقية"، مجلة الدراسات النسوية العربية، العدد 12، 2018، ص. 112.

[107] عالية ممدوح، المحبوبات، دار الآداب، بيروت، 2003.

[108] رجاء الكبيسي، "السرد النسوي والمقاومة في ظل الحروب"، مجلة الآداب العراقية، العدد 35، 2020، ص. 66.

إن الرواية النسوية العراقية بذلك مثل مساحة سردية مستقلة تحتفي بالصوت الأنثوي، وتؤسس لوعي نقدي متجدد حول قضايا الجندر، والحرية، والمساواة. فهي ليست فقط مجالًا لإبداع أدبي، بل أداة تحليل وتفكيك لواقع اجتماعي معقّد، تسعى المرأة من خلال الإبداع الأدبي إلى استعادة دورها وتأكيد وجودها كمواطنة كاملة في مجتمعها.

15. الرواية العراقية المعاصرة و آفاق المستقبل

أ. الملامح الأسلوبية والفكرية للرواية الحديثة

شهدت الرواية العراقية في العقود الأخيرة تطورًا لافتًا على المستويين الفني والمضموني، نتيجة التحولات العميقة التي مر بها المجتمع العراقي سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. وقد انعكس هذا التطور في ظهور أساليب سردية جديدة تعكس وعيًا متقدمًا لدى الروائيين العراقيين بضرورة كسر الأطر التقليدية والانفتاح على أشكال تعبير حداثية تواكب التحولات الفكرية والذوقية لجمهور القرّاء.

من ناحية الأسلوب لجأ العديد من الكتّاب إلى تجريب تقنيات سردية معقدة، كاستخدام تعدد وجهات النظر، واللعب على خطوط الزمن والمزج بين الحلم والواقع مما أضفى على النصوص طابعًا ديناميكيًا مفتوحًا على التأويل. كما تميزت بعض الروايات باستخدام لغة شعرية مكثفة وتناصات مع نصوص دينية وتاريخية في محاولة لاستحضار البعد الثقافي العميق للهوية العراقية[109].

أما على الصعيد الفكري فقد أولت الرواية الحديثة اهتمامًا كبيرًا بأسئلة الهوية والانتماء والسلطة والعنف. وتصدت بجرأة لقضايا مثل الحرب، والانكسار الداخلي وتمزق الذات،

[109] هناء زيدان، الرواية والهوية في العراق المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2018، ص. 109.

بالإضافة إلى رصد التحولات المجتمعية بعد الاحتلال الأميركي للعراق. وهكذا لم تعد الرواية مجرد حكاية عن الواقع، بل أصبحت فضاءً لتحليل البنية الذهنية والثقافية للمجتمع، ومرآةً لصراع الإنسان العراقي مع نفسه ومع محيطه[110].

من الأمثلة البارزة على ذلك أعمال كتّاب مثل علي بدر وسنان أنطون وأحمد سعداوي، حيث نجد روايات تتعامل مع الواقع بأسلوب نقدي يمزج بين الرؤية الفلسفية والتحليل الاجتماعي. كما أصبحت الشخصيات في هذه الروايات أكثر تعقيدًا وعمقًا، بما يعكس وعيًا جديدًا بالإنسان ككائن مأزوم يعيش في فضاء غير مستقر.

ب. التحديات والتجديدات في الرواية العراقية

تشهد الرواية العراقية في العصر الرقمي تحديات جديدة نتجت عن التغيرات الكبيرة في وسائل النشر وأساليب التلقي. فقد أصبح من الضروري على الكتّاب مواكبة هذا التحول، خاصة مع تغيّر طبيعة العلاقة بين المؤلف والنص والقارئ. لم تعد الرواية محصورة في النشر الورقي التقليدي، بل أصبحت تنتقل عبر الوسائط الرقمية إلى جمهور أوسع. هذا التغيير يتطلب فهمًا عميقًا للبيئة الجديدة التي باتت تتحكم في إنتاج النصوص وتلقيها، مما يفرض على الرواية العراقية إعادة النظر في أساليبها وتقنياتها لمواصلة الحضور والتأثير حيث أدى تطور التكنولوجيا إلى نشوء بيئة جديدة للكتابة تُعرف بـ"الرواية الرقمية"، وهي نمط من السرد التفاعلي يعتمد على الوسائط المتعددة، ويُخضع البناء الروائي لمنطق غير خطي، يُشرك القارئ في إنتاج المعنى.

أن التجربة العراقية في هذا المجال لا تزال محدودة، إلا أن هناك بوادر انخراط بعض الكتّاب الشباب في هذا النمط من الكتابة، خاصة من خلال المدونات والنصوص المنشورة على

[110] صادق محمود. "الأسلوب والتقنية في الرواية العراقية الجديدة"، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 344، 2020، ص. 88.

منصات القراءة الإلكترونية. وتشير هذه المحاولات إلى وعي جديد بضرورة مواكبة التحول التقني دون التنازل عن الخصوصية الثقافية والهوية المحلية للنص.

وتواجه الرواية العراقية أيضًا ضرورة الانفتاح على الآخر الثقافي، من خلال الترجمة والمشاركة في الجوائز والمهرجانات الأدبية الدولية. وقد حققت بعض الأعمال الروائية حضورًا لافتًا على الساحة العالمية، مثل "فرانكشتاين في بغداد" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية، مما يدل على إمكانية المزج بين المحلي والعالمي بنجاح، حين يتقاطع السرد مع قضايا إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية.

لكن هذا الانفتاح لا يخلو من الإشكالات، أبرزها خطر التماهي مع الذوق الغربي أو تكييف النص بما يتماشى مع متطلبات السوق العالمية، وهو ما يفرض على الروائي العراقي المعاصر مهمة مزدوجة: وهي الحفاظ على الأصالة والانفتاح الواعي على الآخر.

إن آفاق الرواية العراقية في المستقبل مرهونة بقدرتها على التجديد، والتفاعل مع الوسائط الرقمية، والانخراط في الحراك الأدبي العالمي دون فقدان العمق الثقافي، وهو ما يتطلب وجود مؤسسات نقدية وبحثية تحتضن هذا التطور وتوجهه.[111]

[111] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، منشورات الجمل، بيروت، 2013، سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، دار الجمل، بيروت، 2010.

الباب الثاني
تأثير الحروب في الأدب العراقي

الفصل الأول : الحروب الخليجية و انعكاسها على الأدب العراقي

الفصل الثاني : الغزو الأمريكي للعراق وتحول الخطاب الأدبي

الفصل الثالث : مختارات من الأدب العراقي في ظل الحروب

الباب الثاني
تأثير الحروب في الأدب العراقي

شكّلت الحروب في التاريخ العراقي الحديث قوةً محورية أثّرت بشكلٍ عميق في المسار الثقافي والإبداعي وتركَت بصمات لا تُمحى في وجدان الكتّاب وفي مضمون وجماليات النصوص الأدبية. فمنذ اندلاع الحرب العراقية الإيرانية عام 1980م، مرورًا بغزو الكويت وما أعقبه من حصار اقتصادي مرير وصولًا إلى الاجتياح الأمريكي للعراق عام 2003م، "ظلّ العراق ساحةً لصراعات مسلّحة متواصلة انعكست بوضوح في إنتاجه الأدبي ودفعت الكُتّاب إلى إعادة النظر في العلاقة بين الإنسان والسلطة وبين الوطن والمنفى وبين الذاكرة والهوية"[112].

تحوّل الأدب العراقي في ظل هذه السياقات المأساوية من وسيلة للتعبير الجمالي فحسب إلى أداة لتوثيق الألم وتحليل الواقع المتصدع وكشف آثار الحرب على الإنسان والمكان. ولم يقتصر هذا التحوّل على البنية الموضوعية للنصوص بل طال الأساليب الفنية أيضًا حيث لجأ العديد من الكتّاب إلى تقنيات سردية جديدة تحاكي التمزق الزمني والنفسي وتُعبّر عن شتات الذات في مواجهة الخراب[113].

لعبت الرواية دورًا محوريًا في تفكيك خطاب الحرب ليس بوصفها مجرد سرديات للحدث السياسي أو العسكري بل باعتبارها مرآةً لقلق الإنسان العراقي في زمن التحولات الحادة. فأصبحت الرواية العراقية مكاناً لصراع الذاكرة، وموضعًا لتأمل تداعيات الحرب على

[112] مازن الحسني، الرواية العراقية وتحولات الواقع بعد 1980، دار الأهلية، عمان 2017، ص. 22.

[113] فاضل فاضل. "الكتابة تحت الضغط: تمثلات الحرب في القصة العراقية القصيرة"، مجلة دراسات أدبية معاصرة، العدد 5، 2020، ص. 49.

الإنسان والمدينة والمصير[114]. كما أضحت الكتابة في كثير من الأحيان فعلًا وجوديًا في مواجهة القمع ومجالًا للمساءلة الأخلاقية للذات وللمجتمع[115].

ويهدف هذا الباب إلى رصد التحولات الكبرى في النص الأدبي العراقي في ظل الحروب، مع التركيز على تحليل أشكال تمثيل العنف والتهجير والانكسار الإنساني ودور الأدب في حفظ الذاكرة الوطنية. كما يستعرض التغيرات التي طرأت على الحساسية الفنية لدى الكُتّاب العراقيين من حيث اللغة والبنية والسرد، في ضوء تجربة الحرب بوصفها حدثًا وجوديًا فارقًا.

[114] نوال عبد الستار، الذاكرة السردية والحرب: دراسات في الرواية العراقية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2021، ص. 71.

[115] حيدر العزاوي، الحرب والهوية في السرد العراقي، المجلة العربية للنقد الأدبي، العدد 14، 2022، ص. 88.

الفصل الأول

الحروب الخليجية و انعكاسها على الأدب العراقي

أحدثت الحروب الخليجية ولا سيما الحرب العراقية-الإيرانية (1980م–1988م) وحرب الخليج الثانية (1990م–1991م)، تحولات جذرية في المسارات السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق. وقد امتدت آثار هذه الحروب إلى الأعماق النفسية والفكرية للأفراد، فانعكست بوضوح في النتاج الأدبي الذي أصبح مرآة لتجارب العنف والانهيار الجماعي. لقد شكّل الأدب العراقي في تلك المرحلة وسيلة أساسية لتوثيق المعاناة ومنصةً للتعبير عن الألم ومساحةً حرة نسبياً لطرح الأسئلة حول الواقع، في ظل حالة من التقييد السياسي المفروض من قبل السلطة آنذاك.

وقد تجلّت مشاعر التمزق والتوتر في أعمال تلك الفترة، حيث اتسمت النصوص الأدبية بالصراع بين الأمل واليأس والانتماء والاغتراب وطرحت موضوعات مثل الخسارة والدمار وتفتت الهوية والموت المجاني. كما انقسم الأدباء إلى قسمين فمنهم من تبنّى خطاب السلطة، ومنهم من تصدّى له بنصوص تنضح بالمقاومة، مما خلق مشهداً ثقافياً متنوعاً ومتضاداً في آنٍ واحد. ويهدف هذا الفصل إلى تتبع التأثيرات العميقة التي خلفتها تلك الحروب على بنية الأدب العراقي، من حيث المضمون والتقنيات، من خلال دراسة الاتجاهات والرموز والأساليب التي ظهرت في الشعر والرواية والمسرح خلال تلك الفترة.

ولا يخفى على القارئ أن هذه الحروب لم تقتصر آثارها على مضمون النصوص فقط، بل تركت بصمتها أيضاً على مستوى الشكل واللغة، حيث اتجه الكثير من الكتّاب نحو الرمزية والتجريب، وبرزت نبرة سوداوية تجسّد حالة من القلق والضياع الوجودي. وأسهمت هذه

المرحلة في إنتاج أدب يتعامل مع الذاكرة المجتمعية ويروي الوجع الوطني ويسعى لمقاومة النسيان وتثبيت إنسانية مهددة بالزوال.

"لقد أشار العديد من الباحثين إلى أن أدب الحرب في العراق، لا سيما في مرحلة الحروب الخليجية، قد شكّل ما يُشبه السجل الموازي للتاريخ السياسي حيث وظّف الأدباء نصوصهم لمساءلة السلطة وتوثيق العنف وإبراز صوت الإنسان الهش في مواجهة آلة الحرب والخراب."[116]

1. خلفية تاريخية لحرب الخليج الأولى (1980م-1988م)

الحرب العراقية الإيرانية التي تُعرف أيضًا باسم "حرب الخليج الأولى"، من أطول الحروب التقليدية وأكثرها دموية في القرن العشرين. بدأت هذه الحروب في شهر سبتمبر من عام 1980م، حين أطلق العراق بقيادة صدام حسين هجومًا عسكريًا شاملًا على الأراضي الإيرانية، وذلك عقب تصاعد الخلافات السياسية والحدودية بين البلدين خاصة بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979م، والتي غيرت ملامح النظام السياسي الإيراني، وأثارت قلق بغداد من محاولات طهران تصدير الفكر الثوري إلى دول الجوار.

ومن أبرز العوامل التي أدّت إلى اندلاع النزاع، الخلاف حول السيادة على شط العرب وهو معبر مائي استراتيجي يفصل بين البلدين حيث اعتبرته بغداد جزءًا لا يتجزأ من أراضيها بينما تمسكت طهران ببنود اتفاقية الجزائر الموقعة عام 1975م، والتي نصّت على تقاسم السيادة على الشط. وقد استغل العراق حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي عاشتها إيران بعد الثورة، لشنّ الحرب ظنًا منه أنها ستكون حربًا سريعة تُحقق أهدافه، لكنها سرعان ما تحولت إلى حرب

[116] عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي: السرد العربي الحديث والوعي بالتاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999، ص 215.

استنزاف طويلة استمرت ثماني سنوات، وخلفت مئات الآلاف من الضحايا، وأضرارًا اقتصادية وبشرية جسيمة على الجانبين.

شهدت هذه الحرب استخدامًا مكثفًا للأسلحة التقليدية والكيميائية واستُهدفت فيها المدن والمنشآت النفطية والبنى التحتية مما أدى إلى إنهاك الجيشين وتدهور الموارد الاقتصادية في كلا البلدين. ولم تقتصر آثارها على الصعيد الثنائي بل أدّت إلى تغييرات عميقة في موازين القوى في منطقة الخليج كما مهّدت الطريق لتدخلات إقليمية ودولية، وخلقت واقعًا سياسيًا وأمنيًا هشًا، سيكون له دور محوري في اندلاع حرب الخليج الثانية بعد غزو الكويت في عام 1990م.

وقد ترك هذا الصراع الدموي أثرًا نفسيًا واجتماعيًا بالغًا على الشعبين وأفرز موجة من الأدب والمواقف الثقافية التي عبّرت عن مأساة الحرب ومشاعر العبث والصدمة والخذلان. فالأدب الذي نشأ في ظل الحرب حمل ملامح الحزن والتوثيق والمعاناة، وسجّل فصولًا من الرعب والمعاناة الإنسانية التي عاشها الناس على جانبي الحدود.

"ويشير بعض الباحثين إلى أن الحرب العراقية – الإيرانية كانت نتيجةً لتراكمات تاريخية من التوتر المذهبي والقومي، وقد استغلّتها الأنظمة الحاكمة لتثبيت حكومتها الداخلية عبر خلق عدو خارجي يوحد الداخل حول السلطة."[117]

أ. أثر الحرب الإيرانية - العراقية على الرواية والشعر والمسرح العراقي

شكلت الحرب الإيرانية العراقية التي استمرت بين عامي 1980م و1988م نقطة تحول هامة وحاسمة في مسيرة الأدب العراقي حيث فرضت ظروفًا قاسية أثرت بشكل مباشر على جميع أشكال التعبير الفني وخاصة في مجال الرواية والشعر والمسرح. ففي هذه الحقبة انتقل الأدب

[117] عبد الرزاق السنهوري، العراق وإيران: جدلية الجغرافيا والتاريخ والسياسة، دار الفكر العربي، بيروت، 2004، ص 173.

من كونه وسيلة للتعبير الجمالي البحت إلى أداة قوية للمقاومة النفسية والوجودية حيث انعكست تجارب الحرب من عنف مستمر وموت يومي على المستوى الإنساني، مما جعل الأدب مسرحًا لصراعات داخلية يعايشها المجتمع العراقي عامة.

i. الرواية: من أبطال النصر إلى صور العبث والضياع

شهدت الرواية العراقية في تلك الفترة تغيرات جذرية في مضامينها وأساليبها السردية. فقد تقلصت الأدوار البطولية التقليدية، لتحل محلها سرديات تركز على الشعور بالضياع والقلق والانهيار النفسي والاجتماعي. أصبح البطل الروائي في الكثير من الأعمال مجسدًا للإنسان المهزوم، المتألم من حرب لا يستطيع فهم دوافعها أو مبرراتها. اعتمد العديد من الروائيين على تقنيات السرد غير الخطي، واللغة المليئة بالرموز والاستبطان النفسي، بهدف تجسيد التشوهات التي خلفتها الحرب في ذات الإنسان والمجتمع وأيضًا لتمثيل الانقسام الداخلي والتشتت.

ii. الشعر: نبرة الألم والتمرد الخفي

اتسم الشعر العراقي خلال هذه المرحلة بصراع داخلي بين صوت رسمي يناصر خطاب السلطة الحربية، وبين أصوات شعرية أخرى تعبر عن الاحتجاج والمرارة. ولقد استخدم الشعراء صورًا قوية تتناول الموت والفقد والحنين إلى السلام كما سيطرت على نصوصهم نبرة سوداوية تعبّر عن القمع النفسي والتمزق الداخلي.

برز الشعر كملجأ للعزاء والهروب من قسوة الواقع وميدانًا للتعبير عن المخاوف، الأحاسيس الإنسانية المختلطة بين الحب والفقد والتمرد غير المباشر على الأوضاع القائمة.

iii. المسرح: رمزية المواجهة والتلميح السياسي

واجه المسرح العراقي تحديات كبيرة بسبب الرقابة الصارمة التي فرضها النظام، لكنه تمكّن من الالتفاف على هذه القيود من خلال توظيف اللغة الرمزية والرموز المجازية. تركزت العروض المسرحية على مواضيع إنسانية واجتماعية، مثل قصص الجنود العائدين من الحرب والتجارب العبثية للوجود الإنساني في ظل الصراعات وتأثيرات الهيمنة والقهر التي فرضتها الحرب على الفرد. اتسم المسرح في تلك الحقبة بالتركيز على الرمزية والتكثيف البصري، ما سمح له بتوصيل رسائل سياسية واجتماعية عميقة رغم الضغوط التي فرضتها السلطة.

من خلال ما سبق نجد أن هذه المرحلة أفضت إلى ولادة أدب يتفاعل بشكل مباشر مع الذاكرة الجماعية ويطرح تساؤلات جدلية حول السلطة ويوثق مأساة الإنسان العراقي في زمن الحرب والدمار. لم يكن الأدب هنا مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل كان محاولة فاعلة لفهم الكارثة بشكل أعمق وخلق سرد بديل يساعد على مقاومة نسيان المأساة. "يرى بعض النقاد أن الحرب الإيرانية – العراقية فرضت على الأدب العراقي تحديًا وجوديًا حيث أصبح الكاتب يعمل داخل دائرة الخوف والرقابة، لكنه مع ذلك استطاع أن ينتج خطابًا موازياً يتسلّل عبر الرموز، ويُدوّن الحقيقة الممنوعة بلغة الفن."[118]

2. حرب الخليج الثانية (1990م – 1991م)؛ الأسباب والسياق السياسي

اندلعت حرب الخليج الثانية بين أغسطس 1990م وفبراير 1991م، وهي من أبرز وأعقد الصراعات التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط في العصر الحديث، إذ كان لها تأثيرات سياسية

[118] سامي مهدي، الحرب والسرد: دراسات في الرواية العراقية بعد 1980، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2003، ص 88".

وعسكرية واقتصادية عميقة امتدت انعكاساتها إلى مستوى المنطقة والعالم بأسره. لقد بدأ الصراع عندما قامت القوات العراقية بغزو دولة الكويت في الثاني من أغسطس عام 1990م، في خطوة مفاجئة وغير متوقعة أدت إلى استنكار واسع النطاق من قبل المجتمع الدولي ما دفع الأمم المتحدة والدول الكبرى إلى اتخاذ إجراءات حازمة لإجبار العراق على الانسحاب.

تعددت الدوافع التي دفعت العراق إلى اتخاذ هذه الخطوة وكانت السبب الجوهري فيها تراكم الأزمات الاقتصادية والسياسية التي كانت تحيط بالعراق في أعقاب الحرب العراقية-الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات.

بالإضافة إلى الأسباب الاقتصادية، كان للعوامل السياسية دور محوري في تفجير الأزمة. فقد كان صدام يسعى لتوسيع نفوذه في منطقة الخليج حيث رأى في غزو الكويت خطوة لتأكيد الهيمنة الإقليمية، ولردع ما اعتبره سياسات معادية من بعض الدول العربية، خصوصًا الكويت. وقد كان هناك أيضًا تدهور في العلاقات بين العراق ودول الخليج وفي غياب وحدة الموقف العربي أمام التهديدات الإقليمية الأمر الذي استغله العراق لتحقيق أهدافه. على الصعيد الدولي ونظرا لأن القوى الكبرى لم تستجب بما فيه الكفاية لتحذيرات العراق، ولم تقم بردع واضح، ما أدى إلى تصعيد الأمور إلى حد الحرب.

3. تطور أدب المنفى والشتات العراقي بعد الغزو الأمريكي

شهد الأدب العراقي بعد الغزو الأمريكي عام 2003م تحولات عميقة على مستوى المضامين والأساليب حيث ظهر نوع أدبي جديد يُعرف بـ"أدب المنفى والشتات" يعكس التجربة المركبة للمهاجرين والمهجرين قسرًا من وطنهم ولم يكن هذا الأدب مجرد تعبير عن الألم الفردي أو الحنين الشخصي بل أصبح مرآة واسعة لمأساة شعب بأكمله متصدع بين ذاكرة وطن ممزقة وواقع مهجر هش يواجه تحديات الغربة والاغتراب في بيئات غير مألوفة. ترافقت موجات

النزوح واللجوء مع انهيار البنية الاجتماعية والسياسية في العراق فوجد كثير من الكتّاب أنفسهم مجبرين على مغادرة البلاد ليبدأوا في الخارج رحلة صعبة في الحفاظ على هويتهم الثقافية والأدبية وسط ظروف غريبة وغامضة ما دفعهم إلى البحث عن لغة سردية تعبر عن التمزق الداخلي وتوثّق تجربتهم الجديدة.

تميز أدب الشتات العراقي بنبرة مأساوية، حملت بين سطورها الحنين الشديد إلى الوطن، لكن هذا الحنين لم يكن هروبًا من الواقع، بل كان أداة لمقاومة النسيان والتهميش، وسجلًا صادقًا لمأساة التشرد والفقد.

في هذا السياق صاغ الأدباء نصوصهم لتكون وثائق ثقافية تعكس الانكسارات التي أصابت المجتمع العراقي جراء الحروب المتتالية والعنف المستمر. هذا الأدب لم يعالج موضوعات الغربة والاغتراب فقط، بل تناول هذا الأدب الصراعات العميقة التي تحدث داخل الذات الممزقة بين الذاكرة والواقع، حيث يصبح الاغتراب ليس فقط حالة مكانية بل حالة نفسية ووجدانية. ويعكس هذا التمزق حالة الانفصال بين الجذور والتجذر بين الماضي والحاضر مما أدى إلى تطور أساليب سردية جديدة تعتمد على الرمزية، والتشظي السردي والتداخل بين الأصوات المختلفة، بهدف التعبير عن التجربة المركبة والمعقدة للشتات.

وفي وسط هذا المشهد الأدبي الجديد لعبت اللغة دورًا محوريًا في تشكيل هوية أدبية متجددة، حيث اختلطت اللغة العربية بلهجات متعددة ولغات أخرى، مما أضاف بعدًا جديدًا من التنوع والثراء للكتابات العراقية في الخارج. وهذا المزيج اللغوي لم يكن مجرد انعكاس للواقع الاجتماعي للمهجر، بل كان محاولة واعية لإعادة بناء الذات والهوية عبر وسائط لغوية متعددة، تعبر عن التجربة المتغيرة والمفتوحة. ومع ذلك، فإن هذه النصوص لم تكن انعكاسًا للحنين فقط بل حملت في ثناياها نقدًا سياسيًا واجتماعيًا للحالة العراقية بعد الغزو حيث

استخدم الكتّاب أدب الشتات كمنصة لمقاومة الظلم وتوثيق الانتهاكات وتسليط الضوء على صرخات المهمشين والمقهورين.

يرى الباحثون أن أدب المنفى والشتات لا يقتصر على سرد تجارب الفرد المهاجر فقط بل هو سجل ثقافي جامع يوثق تجربة أمة بأكملها في فترة من التشظي والصراع المستمر. فهو يجمع بين البعد الشخصي والبعد الجماعي في إطار سردي موحد يعبر عن الألم والحنين والانقسام. ويُعتبر هذا الأدب فضاء حيويًا لإعادة بناء الهوية الوطنية التي تعرضت للكثير من التشويش والتجزيء بفعل الحروب والنزوح إذ يساهم في حفظ الذاكرة الجمعية التي باتت مهددة بالضياع نتيجة الشتات والاغتراب.

يشير النقاد إلى "أن أدب المنفى والشتات العراقي بخلاف كونه انعكاسًا شخصيًا لتجارب الاغتراب، هو وثيقة ثقافية توثق حقبة مهمة من تاريخ العراق الحديث، تدمج بين البعد الشخصي والبعد الجماعي في سرد سرديات الألم والتشظي."[119] هذه العملية التوثيقية ليست مجرد وظيفة أدبية بحتة، بل تشكل أداة مقاومة فكرية وسياسية، حيث تستخدم النصوص الأدبية لتحدي النسيان الرسمي والتجاهل الدولي، وللحديث باسم أولئك الذين تم إقصاؤهم أو تهميشهم في الروايات الرسمية عن تاريخ العراق المعاصر.

علاوة على ذلك، فإن أدب الشتات يعمل كجسر يربط بين الماضي والحاضر بين الوطن والمهجر وينقل تجربة الشتات بكل تعقيداتها حيث تتشابك قضايا الهوية والتاريخ والثقافة والتجربة الإنسانية. ولأن هذا الأدب يعكس بعمق الصراعات الداخلية المستمرة التي تواجهها الجماعات العراقية في الخارج، لكنه في الوقت نفسه يمثل مساحة للتواصل بين الأجيال ولحوار مستمر

[119] ليلى حسن، أدب الشتات في العراق: دراسة تحليلية، دار الثقافة العربية، بيروت، 2010، ص 134".

يساهم في تشكيل وعي وطني جديد مستند إلى التجربة الجماعية لشعب متشظٍ. مما يجعله ذا قيمة معرفية وثقافية عالية.

ولا يمكن إغفال التأثير الكبير لهذا الأدب في المشهد الثقافي العراقي بشكل عام، فهو ساهم في إغناء المكتبة الوطنية بكتابات جديدة تُقدم رؤى متعددة حول الهوية العراقية الحديثة، وترصد تحولات المجتمع من خلال عدسة المهجر، مما فتح آفاقًا جديدة للبحث والتفسير في الأدب العراقي المعاصر.

أكدت الأبحاث "أن أدب الشتات ليس فقط سردًا شخصيًا أو جماعيًا، بل هو عملية مستمرة لإعادة تأسيس الذات في مواجهة التشظي القسري، وهو شكل من أشكال المقاومة الثقافية التي تحاول الحفاظ على الهوية ضمن فضاء جديد ومعقد."[120]

4. التأثير النفسي والاجتماعي على التحولات في اللغة والأسلوب

الحروب هي من أبرز الأحداث التاريخية التي تترك أثرًا عميقًا على البنى الثقافية والأدبية للشعوب لا سيما عندما تكون هذه الحروب ذات طبيعة مدمرة وطويلة الأمد، كما حدث في العراق خلال الحرب الإيرانية العراقية وحرب الخليج الثانية والغزو الأمريكي فقد تسببت هذه الصدمات في إحداث تغييرات جذرية في طريقة استخدام اللغة وفي الأساليب الأدبية، حيث بات التعبير عن المأساة، والألم، والدمار لا يتسع له الشكل التقليدي للكتابة، بل تطلب أدوات جديدة تعكس تعقيد التجربة الإنسانية في زمن العنف والخراب.

بدأت التحولات اللغوية في الأدب العراقي تأخذ منحى غير مسبوق، إذ تأثرت اللغة بشكل مباشر بالصدمة النفسية التي تركتها الحرب على الكاتب والمجتمع. فالحرب أزالت الحواجز التقليدية بين اللغة والتجربة وجعلت من التعبير اللغوي عملية معقدة تعبّر عن التشظي والتمزق

[120] نزار الجبوري، الهوية والمقاومة في أدب الشتات العراقي، مجلة الدراسات العراقية، العدد 12، 2018، ص 56".

النفسي وتخلت النصوص عن الوضوح المباشر الذي كان سائدًا في الأدب السابق لتتحول إلى لغة مشحونة بالرموز والاستعارات والصور التي تفتح مجالاً للتأويل والقراءات المتعددة وأصبحت اللغة وسيلة للتعبير عن الغموض والفقد وعدم اليقين وهي مشاعر متجذرة في تجربة الحرب التي تمزق الذات وتفرض حالة من الضياع.

قد اتخذ الكتّاب مسارات جديدة في استخدام اللغة، حيث جرى استبدال الوصف التفصيلي المباشر بأسلوب مكثف يعتمد على الإيحاء والرمزية، مما سمح بنقل الأبعاد النفسية والاجتماعية للحرب من خلال دلالات غير مباشرة تحمل تأثيرًا نفسيًا عميقًا على القارئ. إذ لم تعد الكلمات تحمل معانيها الظاهرة فقط، بل تحولت إلى عوامل لمشاعر متضاربة تتراوح بين الأمل واليأس، والحياة والموت، والحضور والغياب.

أ. التجريب في الأسلوب البنائي والسردي

شهد الأسلوب الأدبي تغييرات جذرية في جانب التحولات اللغوية، حيث أدت الحرب إلى تجاوز القوالب السردية التقليدية التي تركز على الخطية الزمنية والوحدة السردية. بات السرد في الأدب العراقي بعد الحرب أكثر تعقيدًا وتعددًا، إذ لجأ الأدباء إلى تبني تقنيات السرد المتشظي، والتداخل الزمني، وتعدد الأصوات، والتقطيعات النصية التي تعكس تجربة الحرب كمجموعة من الفوضى والتداخلات النفسية والاجتماعية.

يهدف هذا التكسير البنائي إلى محاكاة واقع الحرب الذي لا يخضع للنمط الواحد، بل هو مزيج من التناقضات والصدمة والانكسار. فقد أصبحت النصوص تقترب من التجارب الفردية والجماعية في آن واحد فتقدم سردًا متعدد الطبقات يعكس التوتر بين الماضي والحاضر، وبين الألم الشخصي والذاكرة المجتمعية. كما سمح هذا الأسلوب بالاحتفاء بالذاكرة المتنوعة وإعطاء صوت لمن هم في هامش المجتمع، الذين لم يكن لهم مجال في السرديات الرسمية.

فضلاً عن ذلك، انتشرت في هذا السياق التقنيات التعبيرية مثل الوعي التداعي والتقنيات السينمائية في السرد، التي تتلاعب بالزمن والمكان، وتدمج الواقع بالخيال لتخلق فضاء سرديًا يعكس حالة الاستقرار والاضطراب النفسي الذي خلفته الحرب.

"ويرى عدد من النقاد أن هذه التحولات في الأسلوب والسرد لا تمثل رفضًا للتقاليد الأدبية، بل هي محاولة جادة لإيجاد أدوات سردية تعبر بدقة عن الصدمات النفسية والاجتماعية، وأنماط التفكير والتجربة الجديدة التي أنتجتها الحرب."[121]

ب. تطور المفردات والأساليب البلاغية

تطورت المفردات المستخدمة في النصوص الأدبية بشكل ملحوظ، حيث أخذ الكتّاب يدمجون في لغتهم مفردات مستحدثة تعبّر عن ظروف الحرب وتداعياتها الاجتماعية والنفسية. كما ظهر في النصوص استخدام مكثف للتراكيب البلاغية المعقدة مثل التشبيهات المكثفة، والاستعارات المركبة والتورية التي تحمل في طياتها رسائل مزدوجة تعكس التوتر بين ما هو مرئي وما هو مكبوت في التجربة الحربية.

ولم يقتصر هذا التطور على الجانب اللفظي فقط، بل شمل هذا التطور البناء الصوتي والإيقاعي للنصوص إذ حرص الأدباء على استخدام تقنيات موسيقية لغوية داخل النص، مثل التكرار والإيقاع المتقطع، لتعزيز التأثير العاطفي والتعبيري وبالتالي استطاعوا تحويل النص إلى تجربة حسية شاملة تلامس المتلقي على مستويات متعددة.

هذه الأساليب البلاغية لم تعد أدوات زخرفية كما كانت في الأدب التقليدي، بل تحولت إلى أدوات فكرية تساعد في نقل التعقيدات النفسية والاجتماعية التي خلقتها الحرب، وتساهم في خلق حالة من التواطؤ بين النص والقارئ، يشارك فيها القارئ في فهم الأبعاد المخفية للمعاناة.

[121] سلمان محمود، اللغة والأسلوب في الأدب العراقي المعاصر: دراسة في أدب الحرب، دار الفكر، بغداد، 2012، ص 143".

وقد تميزت هذه التحولات في اللغة والأسلوب عبر جميع الأجناس الأدبية، فالرواية اعتمدت السرد المتشظي والتقنيات الحديثة، والشعر شهد تحولات في الشكل والمضمون نحو الأساليب الحرة والرمزية، والمسرح استخدم الرموز والإشارات لإيصال رسائل قوية ضمن حدود الرقابة والقمع.

تشير الدراسات إلى "أن هذه التحولات في اللغة والأسلوب تمثل نقلة نوعية في الأدب العراقي الحديث، إذ هي ليست مجرد تغييرات شكليه بل هي تعبير عن استجابة ثقافية عميقة لتجارب الصدمة، وتأكيد على قدرة الأدب في إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي والنفسي."[122]

[122] هدى الكيلاني، البلاغة والرمزية في الأدب العراقي الحديث، جامعة القاهرة، 2016، ص 98".

الفصل الثاني
الغزو الأمريكي للعراق وتحول الخطاب الأدبي

شكل الغزو الأمريكي للعراق عام 2003م نقطة تحول محورية في مسار تاريخ العراق الحديث، إذ لم يقتصر أثره على الميدان السياسي أو الأمني فحسب، بل امتد ليطال النسيج الثقافي والاجتماعي وأثر بعمق على الإنتاج الأدبي العراقي. هذا الحدث الذي مثل بداية فصل جديد من الفوضى والصراعات وضع المثقفين والكتّاب أمام واقع مأساوي جديد فرض عليهم إعادة تقييم أدوارهم، والبحث عن أشكال فنية جديدة تعبر عن الاضطراب النفسي والجماهيري الذي تسببت به الحرب والاحتلال.

تحوّل الخطاب الأدبي العراقي بشكل جذري في هذه المرحلة، حيث انتقل من كونه مجرد وسيلة لسرد الأحداث أو نقل الواقع اليومي، إلى خطاب نقدي عميق يستثمر التجربة الأدبية في مواجهة الاحتلال، والتعبير عن معاناة الناس، ومحاولات فهم الانعكاسات الحرب على الهوية والمجتمع. فالأدب أصبح بمثابة ساحة مقاومة ذهنية ونضال ثقافي ومحاولة لإعادة بناء ذاكرة وطنية تعرضت للتشويه والتفتت بفعل الاحتلال.

تعددت أشكال هذا التحول في الخطاب الأدبي بين الشعر والرواية والمسرح فبرزت نصوص تتناول المواضيع مثل العنف والتشرد والاغتيالات والحياة تحت الاحتلال ولكنها لم تكتف بذلك بل سعت إلى تفكيك الصور السياسية والاجتماعية المفروضة وتقديم سرديات بديلة تتحدى الخطاب الرسمي والإعلامي المهيمن. هذا التحول شكّل استجابة فنية وإنسانية لواقع معقد حيث تحولت الكتابة إلى فعل مقاومة يعبر عن الصدمة والوجع، ويرصد بشكل دقيق لتأثير الاحتلال على الحياة اليومية للفرد والمجتمع.

استجاب الأدب العراقي لهذه الأزمة بطرق سردية مبتكرة استخدم فيها الرمزية، والاستعارات، والتشظي السردي لتوصيل الرسائل، والتعبير عن الحالة النفسية والاجتماعية الممزقة التي أحدثتها الحرب. إن هذا التحول لم يكن مجرد تغيير في المواضيع أو الأساليب بل كان تجسيدًا لتحولات عميقة في الوعي الثقافي والاجتماعي، تعكس الانقسام، والفقد، والحنين، والتمرد.

يشير الباحثون إلى "أن الغزو الأمريكي شكّل مفترق طرق أدبيًا وثقافيًا في العراق حيث انتقل الأدب من حالة التوثيق الواقعي البسيط إلى خطاب نقدي معقد، يستخدم أدوات فنية متعددة لتفكيك الواقع السياسي والاجتماعي الجديد."[123]

فإن دراسة هذا التحول في الخطاب الأدبي بعد الغزو تشكل مدخلاً لفهم كيفية التعبير الأدبي عن الواقع السياسي والاجتماعي العراقي في ظل الاحتلال وكيف لعب دورًا مركزيًا في الحفاظ على الهوية الوطنية وفضح الانتهاكات وتعزيز الذاكرة المجتمعية فضلاً عن تقديمه منصة للحوار والتواصل بين الأجيال المختلفة داخل العراق وخارجه.

1. السياق السياسي والثقافي للغزو الأمريكي للعراق

أحدث الغزو الأمريكي للعراق عام 2003م تحولًا كبيرًا في تاريخ البلاد الحديث، إذ أثّر بعمق على مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. ومن الضروري دراسة السياقين السياسي والثقافي لفهم طبيعة هذا الحدث وتأثيراته الواسعة خاصة أن الغزو جاء نتيجة تفاعل عوامل محلية وإقليمية ودولية معقدة شكّلت الخلفية التي دفعت نحو هذا التغيير الجذري في مسار العراق ومستقبله.

شهد العراق في الداخل معاناة شديدة تحت حكم استبدادي قاده حزب البعث بزعامة صدام حسين اتسم بالقمع السياسي والتضييق على الحريات ونشر الخوف في المجتمع. تخلّلت هذه

[123]" أحمد العلي، الأدب العراقي بعد 2003: دراسة في التحولات والموضوعات، دار الكتب، بغداد، 2014، ص 27".

المرحلة انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان واضطهاد الأقليات وحملات تطهير طائفي وعشائري مما أدى إلى إضعاف النسيج الاجتماعي وبقاء البلاد في حالة توتر مستمر.

وكانت الحروب المتتالية والحصار الاقتصادي أحد أهم العوامل التي أدت إلى تردي الظروف المعيشية وتفكك المؤسسات الاجتماعية. فقد أدت هذه الأزمات إلى تزايد البطالة والفقر وتدهور الخدمات الأساسية مثل التعليم والصحة مما دفع قطاعات واسعة من الشعب العراقي إلى الشعور باليأس والعزلة وجعلهم أكثر عرضة للتأثر بالأحداث السياسية والعسكرية التي كانت تحدث حولهم.

كان المشهد الثقافي والفني يعاني أيضًا من القيود القمعية حيث فرضت الرقابة الصارمة على كل ما يتعلق بالتعبير عن الأفكار والآراء خاصة تلك التي تنتقد السلطة أو تعبر عن معاناة الناس. أدى ذلك إلى حالة من التردد والتقوقع بين المثقفين والأدباء الذين اضطروا إلى استخدام رموز وأساليب غير مباشرة في أعمالهم للتعبير عن الواقع المرير.

2. التأثير الثقافي والاجتماعي للغزو الأمريكي

أدى الغزو وتداعياته المباشرة إلى هزّ المجتمع العراقي بشدة على المستويين الاجتماعي والإنساني، حيث تصاعدت موجات النزوح واللجوء داخليًا وخارجيًا، وازدادت حوادث العنف والصراع الطائفي، مما عمّق الانقسامات وأشعل مزيدًا من الصراعات. هذا الواقع الجديد ترك أثرًا واضحًا على الإنتاج الثقافي حيث بدأ الأدب والفن يتناولان موضوعات الحرب والدمار والاغتراب والهوية الممزقة بطريقة لم تكن ممكنة أو متاحة في ظل النظام السابق.

ازدهر خطاب أدبي جديد يتسم بالمرارة والتمرد، يعكس صدمة الحرب وواقع الاحتلال ويصور معاناة الإنسان العراقي في ظل هذه الظروف القاسية. أصبح الأدب بهذا المعنى أداة المقاومة الثقافية ومنبرًا لتوثيق الأحداث والمآسي ومحاولة لفهم تداعيات الغزو على النفس الفردية

والجماعية بشكل أعمق عن الحروب الخليجية وظهرت نصوص تستخدم أساليب سردية جديدة، تعتمد على التشظي والرمزية والتعبير غير المباشر لتكون مرآة للواقع المعقد الذي يعيشه العراقيون.

يؤكد العديد من الباحثين "أن السياق السياسي والثقافي قبل وأثناء الغزو الأمريكي للعراق كان ذا تأثير مركب على الحياة العراقية حيث شكل نقطة تحوّل شاملة غيّرت من بنية المجتمع والهوية الوطنية."[124]

كما يشير النقاد إلى "أن الغزو لم يكن فقط حدثًا عسكريًا، بل كان أيضًا حدثًا ثقافيًا واجتماعيًا أعاد تشكيل خطاب المقاومة والهوية في الأدب والفنون العراقية."[125]

يرى الباحثون أن الغزو الأمريكي للعراق غيّر بشكل كبير الحياة في البلاد فقد أثّر على المجتمع والهوية الوطنية. لم يكن الغزو مجرد عمل عسكري بل كان أيضًا حدثًا ثقافيًا واجتماعيًا أثّر في الأدب والفن وأعاد تشكيل طريقة التعبير عن المقاومة والهوية.

3. التحولات الكبرى في الرواية العراقية بعد 2003م

شهدت الرواية العراقية تغيرات جذرية بعد عام 2003م مثلت انعكاسًا لتلك التحولات السياسية والاجتماعية العميقة التي اجتاحت العراق عقب الغزو الأمريكي والاحتلال الذي أعقب ذلك. ولم تكن هذه التغيرات مجرد تطورات شكلية أو تقنية في الأسلوب أو في البناء السردي، بل كانت تعبيرًا أدبيًا حيًا يعكس محاولات جادة ومتجددة لإعادة قراءة الواقع العراقي وفهم هويته المتغيرة والذاكرة الجماعية التي تعرضت لاهتزازات متكررة بفعل الحروب المتلاحقة والتقلبات السياسية والاجتماعية.

---

[124] زينب الشمري، السياسة والثقافة في العراق المعاصر، دار البيان، بغداد، 2015، ص 92".

[125] خالد سعيد، الغزو الأمريكي للعراق: أبعاد وتداعيات، مركز الدراسات الإستراتيجية، عمان، 2018، ص 45".

تتميز هذه التحولات الكبرى في الرواية العراقية بتعقيدها وعمقها حيث حاول الروائيون من خلال نصوصهم استيعاب تجارب متداخلة من الألم والمعاناة والانقسام والاغتراب.

بدأت الرواية تتخذ أشكالًا سردية جديدة تعتمد على تعددية الأصوات وتنوع وجهات النظر ما يخلق سردًا متعدد الأبعاد يعكس الواقع المعقد والمجزأ الذي تعيشه البلاد. فبدلاً من اعتماد سرد خطي تقليدي واحد اتجه الروائيون إلى بناء نصوص تنسجم مع الطبيعة المتعددة للواقع العراقي، مما يعكس تنوع التجارب والتناقضات التي يواجهها الأفراد والجماعات.

أصبحت الحرب وما نتج عنها من دمار وتشريد موضوعًا أساسيًا في الرواية العراقية منذ عام 2003م ولم يتناول الكتّاب الحرب باعتبارها حدثًا سياسيًا أو عسكريًا فقط، بل ركزوا على جوانبها الإنسانية العميقة وعلى تأثيرها في الحياة اليومية وعلى ما تتركه من ألم نفسي فردي وجماعي. وقد ظهرت في الروايات مشاهد النزوح واللجوء ومعاناة الأفراد في محاولاتهم لإعادة بناء حياتهم وسط واقع مليء بالفوضى وعدم الاستقرار.

كما لعبت الرواية دورًا مهمًا في استرجاع الذاكرة الوطنية التي تعرضت للتشويه أو الطمس بسبب الحروب المتكررة والتغيرات السياسية الكبيرة. استخدم الكُتّاب أعمالهم لتوثيق القصص الشعبية والتجارب الشخصية والذاكرة الجماعية التي حاولت بعض القوى محوها أو إعادة تشكيلها بما يخدم مصالحها. وبذلك أصبحت الرواية وسيلة لحماية الهوية الثقافية العراقية ومقاومة النسيان والتصدي لمحاولات فرض سرديات أحادية عن التاريخ.

وهنا نرصد التغيرات والتحولات كما يلي

أ. التعددية السردية والتجريب في البناء الروائي

شهدت الرواية العراقية تحولات بنيوية عميقة على مستوى البناء السردي بعد عام 2003م تمثلت في بروز ظاهرة التعددية السردية التي تتميز بتعدد الأصوات الروائية وتداخلها داخل

العمل الواحد، مما أدى إلى خلق سرد معقد متعدد الطبقات يفتح نافذة على تعدد وجهات النظر وهذه الظاهرة ليست مجرد تقنية سردية بل هي انعكاس مباشر للواقع العراقي المضطرب والمتشابك حيث لم يعد من الممكن فهم الأحداث وتحليلها من منظور وحيد أو أحادي البعد. فالتداخل بين الأصوات والروايات المختلفة يعكس انقسام المجتمع العراقي والتنوع العرقي والطائفي والانقسامات السياسية التي جعلت من تعدد وجهات النظر ضرورة لفهم الأزمة بجميع أبعادها الإنسانية والاجتماعية والسياسية.

أتاح هذا التعدد السردي للروائي أن يعرض حكايات متشابكة ومتداخلة، تحاكي تجارب شخصيات مختلفة تنتمي إلى خلفيات اجتماعية متباينة، وتعكس تجارب معيشية متنوعة. كما فتح المجال أمام تعبيرات مختلفة عن الألم والفقد والنزوح والخوف مما جعل الرواية العراقية بعد 2003م بمثابة فسيفساء سردية تلتقط تعددية العراق الاجتماعي والإنساني بشكل لم يكن ممكنًا في المرحلة السابقة.

اتجه العديد من الكتّاب في الوقت نفسه إلى تجريب أشكال جديدة في البناء الروائي متجاوزين التسلسل الزمني التقليدي ومعتمدين أساليب سرد غير خطية تتيح التنقل بحرية بين الماضي والحاضر والمستقبل مما أضفى على النصوص طابعًا أكثر ديناميكية وحيوية. هذا التداخل الزمني أسهم في إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية والفردية بطريقة عكست الصدمة النفسية والاجتماعية التي خلفتها الحرب والاحتلال. كما أن هذا البناء السردي غير التقليدي مكّن الروائي من تفكيك الأحداث واستعادتها من زوايا متعددة ما يعكس طبيعة التشظي التي طالت المجتمع العراقي.

إضافة إلى ذلك لجأ بعض الروائيين إلى دمج عناصر الخيال والواقع معًا، مما أنتج نمطًا سرديًا يمكن وصفه بالسرد السحري أو الفانتازي الذي يعبر عن حالات الاغتراب والكوابيس النفسية

وعن الرغبة في الهروب من واقع معقد ومؤلم وهذه التقنية ليست مجرد إضافة جمالية بل هي محاولة فنية لإيصال الشعور بالاضطراب النفسي وجوانب العنف المستتر الذي عايشته الشخصيات مما أتاح تعبيرًا متعدد المستويات عن التجربة الإنسانية في زمن الحرب.

شهدت اللغة المستخدمة في الروايات هي الأخرى تحولات مهمة فالسرد أصبح أقل رسمية وأكثر حيوية إذ تبنى أساليب مكثفة تعتمد على الرمزية والاختزال بعيدًا عن الإسهاب والتفصيل المفرط. هذا الاختزال اللغوي يعكس رغبة في الوصول إلى جوهر التجربة الإنسانية من خلال رموز وعلامات تحمل في طياتها معاني عميقة ومتعددة وهو ما أتاح للقارئ الانخراط في قراءة أكثر تأملاً وتفاعلًا.

كل هذه التجارب السردية الجديدة التعددية والتجريب الزمني ودمج الخيال بالواقع والتطور اللغوي شكل معًا حالة مستمرة من البحث والتجديد داخل الرواية العراقية المعاصرة وعكس تعقيدات الواقع العراقي الحديث وحاول تقديم سرديات بديلة تتجاوز الخطابات الرسمية والتقليدية التي عجزت عن استيعاب الواقع المأساوي الذي تعيشه البلاد.

يؤكد العديد من الباحثين "أن هذه الظواهر السردية، من تعددية الأصوات إلى التجريب الزمني، شكلت استجابة فنية ضرورية لتحولات اجتماعية وسياسية عميقة وحولت الرواية إلى فضاء متعدد الأبعاد يمكنه التعبير عن تجارب متناقضة ومتشعبة في آن واحد."[126]

ب. الموضوعات المحورية: الحرب والنزوح والهوية

شكل موضوع الحرب بعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003م وما تبعه من اضطرابات سياسية واجتماعية وأمنية عنصر محوري في الرواية العراقية ولم يعد مجرد خلفية سردية بل أصبح تجربة حياتية معقدة تُشكّل جوهر النصوص الروائية حيث برز تصوير العنف اليومي والدمار

[126] أحمد الزبيدي، التجريب السردي في الرواية العراقية بعد 2003، مجلة الدراسات الأدبية، العدد 12، 2019، ص 57".

الذي أصاب البنية التحتية والمجتمع إلى جانب الآثار النفسية والجسدية العميقة كسمات بارزة في تلك الروايات وتناول الأدب الروائي الحرب ليس كصراع مادي فقط بل كتجربة وجودية تؤثر على وعي وشعور الفرد العراقي حيث أخذت الرواية دورًا لنقل تجربة الاستنزاف النفسي والتشظي الاجتماعي والفقدان المتكرر للأمان.

أصبح النزوح الداخلي والخارجي موضوعًا بارزًا ومتكررًا في الروايات إذ وثقت النصوص حياة الملايين من المهجرين الذين أجبروا على مغادرة ديارهم قسرًا، سواء هربًا من القصف والاقتتال أو نتيجة للاضطهاد السياسي والطائفي أو بسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية. وتجاوز تناول الرواية للنزوح مجرد وصف الجغرافيا أو التنقل المكاني ليشمل أبعادًا نفسية وثقافية عميقة حيث أبرزت النصوص حالة التمزق الوجودي التي يعانيها اللاجئ أو المهاجر مع التركيز على فقدان الهوية والشعور بالغربة التي تصاحب الرحيل القسري. كما تناولت الروايات معاناة الفئات الضعيفة والمهمشة لا سيما النساء والأطفال الذين يمثلون جزءًا كبيرًا من التجربة الإنسانية للشتات والنزوح مما منح النصوص بُعدًا إنسانيًا مؤثرًا يطرح قضايا العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية في ظل الحرب والاحتلال.

برز موضوع الهوية بشكل واضح في الرواية العراقية المعاصرة وشهد تبلورًا ونقاشًا مستمرين حيث عكست هذه الروايات تعقيدات البنية الاجتماعية العراقية ذات الطابع المتعدد من حيث الأعراق والطوائف، في ظل تقاطع مكونات مختلفة تتأثر بالصراعات الداخلية والتدخلات الخارجية. شكلت الرواية ساحة فنية يعاد فيها طرح أسئلة حيوية حول معنى الانتماء الوطني والانتماءات الفرعية والهوية الشخصية في ظل بيئة مشحونة بالانقسامات الطائفية والسياسية. وسعى الكتاب إلى استكشاف الهوية من خلال الشخصيات التي تصارع من أجل تحقيق التماسك الذاتي والاجتماعي، ومحاولة إيجاد الوحدة وسط التشتت الذي

يفرضه الواقع السياسي والاجتماعي فبرزت في هذا السياق الرواية كفضاء للحوار الداخلي والخارجي حول ماهية العراق وطرق التعايش الممكنة بين مكوناته المختلفة في زمن يكتنفه النزاع والاضطراب.

4. دور الرواية في استعادة الذاكرة الوطنية

تعد الرواية العراقية بعد 2003م أحد أهم الوسائل الأدبية التي ساهمت في استعادة الذاكرة الوطنية التي تعرضت إلى عمليات طمس وتشويه متعمدة بفعل الحروب المتتالية والاحتلالات والصراعات السياسية الداخلية. فقد انشغل العديد من الروائيين باستحضار اللحظات التاريخية المفصلية وسرد القصص الشخصية والتجارب الجماعية التي لا تجد عادة مكانًا في الروايات الرسمية أو الإعلام الرسمي وهو ما جعل الرواية منصة حيوية لتعزيز الحضور الثقافي لتلك الذاكرة المستهدفة.

لم يقتصر الهدف على مجرد توثيق الأحداث وتسجيلها بل سعى الروائيون لبناء سرد بديل يعكس واقع العراقيين بكل تناقضاته وتعقيداته، بعيدًا عن التزييف السياسي أو المحاولات الممنهجة لإعادة كتابة التاريخ وبهذا تحولت الرواية إلى أداة مقاومة ثقافية استخدمت الفن واللغة لاستعادة حقائق مضيعة ولمواجهة المحاولات لنسيان التاريخ أو تشويهه. هذه المقاومة الأدبية للذاكرة جعلت الرواية محورية في عملية الحفاظ على الهوية الوطنية وتعزيز الوعي المجتمعي إذ ترسخت هذه الذاكرة كحائط صد ضد محاولات التضليل السياسي والاجتماعي.

ولم يقتصر هذا الدور على الأحداث الكبرى فقط، بل امتد ليشمل سرد تفاصيل الحياة اليومية التي تأثرت بالحروب والاضطرابات وهو ما منح الرواية بُعدًا إنسانيًا عميقًا جعل القارئ يتعايش مع الواقع العراقي من منظور شخصي وحميمي. ولتحقيق ذلك استُخدمت تقنيات

سردية متطورة مثل إعادة سرد التاريخ من منظور إنساني فردي مستخدما الرموز التي تعبّر عن المآسي الإنسانية بشكل فني راق مما عزز من عمق التجربة القرائية وجعلها أكثر تأثيرًا.

5. المرأة والحرب في الأدب العراقي المعاصر

شكلت الحرب في العراق عبر العقود الماضية سياقًا مأساويًا استثنائيًا ألقت بظلالها القاتمة على الحياة العامة والخاصة وكان للمرأة نصيبٌ عظيمٌ من هذا الثقل التاريخي والإنساني. فقد تعرضت المرأة العراقية خلال الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج الثانية والغزو الأمريكي للعراق عام 2003م، لموجات متكررة من الفقد والعنف والتشريد والانتهاك وفي هذا السياق لم تعد المرأة في الأدب العراقي مجرد رمز للخصوبة أو الحنين أو الأمومة بل تحوّلت إلى كائنٍ مقاومٍ ومجروح وناقلٍ لتجربة تتجاوز الطابع الشخصي لتلامس عمق المأساة المجتمعية.

أ. المرأة كضحية للحرب والسلطة

سلّط الأدب العراقي الحديث الضوء على معاناة المرأة كضحية مباشرة للحرب وممارسات السلطة القمعية. إذ شكّلت الرواية والمسرح والشعر فضاءً لتوثيق تجارب النساء اللاتي فقدن أبناءهن أو أزواجهن أو كنّ ضحايا للعنف الجنسي أو الحصار أو النزوح أو القمع السياسي وفي كثير من النصوص حضرت المرأة بصوتها الموجوع لا لتبكي الخسارة فقط بل لتدين النظام الاجتماعي والسياسي الذي جعلها طرفًا غير مرئي في مشهد الخراب الوطني وقد عبّرت الكثير من الكاتبات العراقيات عن أوجاعهن من خلال شخصيات أدبية تقاوم النسيان والتهميش وتنقل تجربة الحرب بوصفها عنفًا مضاعفًا تمارسه الدولة، والعدو والمجتمع في آنٍ معًا.

ومن أبرز ما يميز هذه التجربة هو أن صوت المرأة بدأ يظهر في الخطاب السردي لا كامتداد للرؤية الذكورية التقليدية بل ككيان مستقل له لغته وألمه ووعيه حيث تتكلم المرأة عن ذاتها لا بوصفها "موضوعًا أدبيًا" بل بوصفها ذاتًا فاعلة في إنتاج المعنى وتشكيل الذاكرة المجتمعية.

لذا لم يعد حضور المرأة مقتصرًا على الدور الرمزي أو الثانوي بل أصبحت تمثل وجهًا مأساويًا من وجوه الوطن وتجسيدًا دقيقًا لآثار الحروب على الجسد والروح والهوية.

ب. المرأة بوصفها رمزًا للهوية والصمود

تجاوزت صورة المرأة في الأدب العراقي، رغم فداحة المأساة دور الضحية فقط، لتظهر أيضًا كرمز للمقاومة في وجه الغزو والنفي والنسيان. فقد وظف الأدب شخصية المرأة كرمز للصمود والبقاء، فهي الأم التي تواصل الحياة وسط الأنقاض، وهي الزوجة التي تعيل أبناءها بعد فقد الزوج، وهي الابنة التي تروي القصة من هامش المدينة أو مخيم اللجوء أو الذاكرة المنهوبة. هذا التحول في تمثيل المرأة عكست تحولات في الرؤية الثقافية للأدوار التقليدية وأظهر قدرة المرأة العراقية على تحويل المحنة إلى فعل إبداعي يستنطق الألم ويعيد كتابة التاريخ من موقع الظلّ. جسّدت بعض الروايات المرأة كشاهد أساسي على الخراب حيث لا تكتفي بسرد الأحداث بل تضفي عليها بُعدًا رمزيًا وثقافيًا. ففي بعض النصوص تحوّل جسد المرأة إلى خريطة تعكس عنف الحرب وتشظياتها أو إلى رحم يحتضن ذاكرة الوطن ويمنح الحياة لجيل جديد يطمح إلى الخلاص. لقد نجح كثير من الروائيين والشاعرات في تحويل التجربة الأنثوية إلى أيقونة سردية تصوغ مقاومة مختلفة قائمة على الحفظ والحكي لا على السلاح والدم وعلى التماسك العاطفي، لا على الانخراط في الأيديولوجيات الذكورية.

يُشير النقاد إلى "أن صوت المرأة في الأدب العراقي الحديث لم يعد مجرد استثناء بل أصبح مكوّنًا بنيويًا رئيسيًا في بناء خطاب أدبي بديل يفتح أبواب الذاكرة والتجربة نحو سرديات أكثر إنسانية واتساعًا."[127]

[127] فاطمة المهداوي، سرديات النسوية في العراق ما بعد الحرب، المركز العربي للدراسات، بغداد، 2020، ص 41".

ج. أدب المرأة؛ من التوثيق إلى التغيير

تبرز أهمية فهم صورة المرأة في الأدب العراقي من خلال ما كتبته الكاتبات العراقيات أنفسهن، إذ عبّرن عن تجارب شخصية وجماعية عميقة تعكس واقع المرأة في ظل الحروب والتحولات الاجتماعية. فقد ظهرت أسماء بارزة مثل لطفية الدليمي وهدية حسين وديما ونوس وغيرهن، وقدمن رؤى جديدة للحرب من خلال زوايا إنسانية داخلية لم تكن مألوفة من قبل.

هؤلاء الكاتبات قدّمن أعمالًا أدبية متنوعة مثل الرواية والسيرة الذاتية والشعر وشكّلن ما يُمكن اعتباره "أدبًا نسويًا في زمن الحرب" إذ مزج بين التجربة الشخصية والوطنية وبين الجسد كرمز والواقع كحقيقة.

كان لهذا النوع من الأدب دور في مواجهة الصورة التقليدية الذكورية ومنح المرأة مكانة جديدة لا كضحية فقط بل كصوت فاعل أسهم في تشكيل الوعي الجمعي وإعادة بناء الواقع من بين أنقاض الحروب مع إبراز دورها الحقيقي في المستقبل الثقافي للمجتمع العراقي.

يرى بعض الباحثين "أن الكاتبات العراقيات قدمن مساهمة نوعية في إعادة صياغة العلاقة بين المرأة والحرب إذ شكلن جبهة أدبية توثق الوجع وتعيد إنتاج الأمل من خلال نصوص تنبض بالحياة رغم الموت."[128]

يرى بعض الباحثين أن الكاتبات العراقيات لعبن دورًا مهمًا في تقديم صورة جديدة للعلاقة بين المرأة والحرب حيث كتبن عن الألم والمعاناة، لكن في الوقت نفسه قدمن بصيص أمل من خلال أعمال أدبية حيّة تعبّر عن القوة رغم الدمار.

[128] جنان العزاوي، المرأة والأدب المقاوم في العراق المعاصر، مجلة الفنون والهوية، العدد 16، 2021، ص 77".

6. تطوير أدب المنفى والشتات العراقي بعد الغزو الأمريكي

شكّل الغزو الأمريكي للعراق عام 2003م لحظة مفصلية في تاريخ البلاد المعاصر ليس فقط من الجانب السياسي أو الجغرافي بل أيضًا على صعيد البنية الثقافية والرمزية التي كانت تسهم في تشكيل وعي العراقيين وهويتهم. ومع تصاعد العنف وتفكك مؤسسات الدولة وانتشار الطائفية والاقتتال الداخلي اضطر آلاف المثقفين والأدباء إلى الهجرة القسرية بحثًا عن بيئة آمنة تُمكّنهم من مواصلة الكتابة والإبداع بعيدًا عن القمع والملاحقة. وفي سياق هذا الشتات تبلور ما يُعرف بـ "أدب المنفى العراقي"، الذي نشأ خارج حدود الوطن لكنه ظل مشدودًا إليه بكل ما يحمله من ذاكرة وألم وحنين.

إن أدب المنفى العراقي بعد 2003 م لم يكن مجرد استمرارية طبيعية لتجربة سابقة من الهجرة بل كان نتاجًا لتحولات عميقة فرضها الواقع الجديد وتحول الأدب معه من نصّ يعالج الداخل من الداخل إلى نصّ يعالج الداخل من الخارج، من موقع الهامش الجغرافي ولكن من مركز شعوري ومعرفي أكثر حدةً ووضوحًا. فنجد في نصوص هذا الأدب حضورًا طاغيًا لفكرة الغربة المزدوجة غربة عن الوطن وغربة داخل الذات إذ أصبح الكاتب يعيش في مكانٍ لا ينتمي إليه تمامًا لكنه لا يستطيع الانتماء الكامل إلى وطنه أيضًا بسبب التحولات التي طرأت عليه وأفقدته معناه الرمزي والإنساني.

المنفى لا يُقدَّم فقط كحيّز مكاني بعيد بل كحالة شعورية كمعطى نفسي وفكري وكأفق سردي يتولد منه النص ويأخذ شكله وخصائصه. فالكاتب الساكن في المنفى لا يكتب عن تجربة السفر واللجوء فقط بل يعيد عبر السرد بناء ما تهدم من داخله محاولًا الإمساك بما تبقى من ذاكرة مدن ضاعت وأصوات خفتت وعلاقات انقطعت. ويشكّل المكان في هذه النصوص عنصرًا رمزيًا إذ لم يعد الوطن هو جغرافيا ثابتا، بل أصبح ذكرى متغيرة، يتم استعادتها وإعادة

تخيّلها وفق ما تسمح به الذاكرة والتجربة والحنين. وقد أكد عدد من النقاد "أن المنفى أصبح الحاضنة الجديدة لذاكرة الوطن المفقود وبوابة الكتابة الحرة التي عجزت عن الظهور داخل الحدود"[129].

تميّز أدب المنفى العراقي بطابعه المختلف من حيث الأسلوب والمضمون، إذ اعتمد الكتّاب تقنيات سردية مبتكرة ابتعدت عن النمط التقليدي السائد داخل البلاد. فبدلاً من التسلسل الزمني المعتاد، ظهرت أساليب مثل التقطيع الزمني والمونولوج الداخلي وتعدد الأصوات وهي تقنيات تعكس حالة التشتت النفسي والارتباك في الرؤية والانقسام في الهوية والمكان واللغة. وقد تحولت اللغة في هذا الأدب من وسيلة حيادية للسرد إلى عنصر جوهري من التجربة حيث عبّر الكثير من الكتّاب عن معاناتهم في التنقل بين العربية كلغة أم ولغات بلدان المهجر مما أضفى على نصوصهم طابعًا لغويًا متداخلًا يجمع بين الفصحى والعامية، وبين العربية ولغات أخرى كالإنجليزية أو الفرنسية، في محاولة لصياغة لغة تستوعب واقع الاغتراب والتشظي.

تميّز هذا الأدب بعودة مستمرة إلى الذاكرة، باعتبارها وسيلة لمقاومة النسيان والحفاظ على الصلة بالجذور. فالكثير من الأعمال التي كُتبت خارج العراق بعد عام 2003م، سواء كانت روايات أو مذكرات أو قصائد، انشغلت بإحياء الذاكرة الجماعية ولم تكن هذه العودة مجرد تسجيل للمعاناة بل محاولة لاستعادة سرد عراقي مستقل يتجاوز الرواية الرسمية ويمنح مساحة للذين طال صمتهم. من خلال هذه الكتابات تُستحضر الشوارع التي تهدمت والمدن التي نزح عنها سكانها والعائلات التي تفرّقت والأصوات التي أُخمِدت. كما كشفت بعض النصوص كيف تحوّل الوطن إلى شعور داخلي معقّد، يتداخل فيه الشوق والخوف والألم والرغبة المستحيلة في الرجوع.

[129] فاطمة محمود، كتابة المنفى: دراسات في الأدب العراقي بعد الاحتلال، المركز العربي للأبحاث، بغداد، 2021، ص 112".

تجاوزت هذه النصوص رغم ما تحمله من حنين الوقوع في فخ العاطفة المفرطة أو التجميل إذ تبنت موقفًا نقديًا صارمًا تجاه الدولة العراقية وغاصت في تحليل أسباب الانهيار بل وانتقدت المجتمع ذاته. وهذا ما جعلها كما وصفتها الباحثة مريم ياسين جزءًا من مشروع إعادة بناء العراق سياسيًا وثقافيًا من خارج حدوده. كما ناقش هذا الأدب قضايا الهوية والانتماء والمواطنة والسلطة برؤية حديثة ومنفتحة تتخطى المحلي وتتفاعل مع جمهور واسع داخل العالم العربي وخارجه. تكمن القيمة الحقيقية لأدب المنفى بعد الغزو في كونه لم يقتصر على عكس المأساة بل تجاوزها ليقدم رؤية فنية ناضجة سعت لإعادة تنظيم الفوضى وتخيل مستقبل أفضل وتأكيد أن الكتابة نفسها شكل من أشكال البقاء والمقاومة. ولهذا لا يمكن اعتبار هذا الأدب منفصلًا عن مسار الأدب العراقي بل هو امتداد حيّ له ينبض بالعراق من بعيد ويحمل في طيّاته الألم والأمل والحلم بالعودة ومقاومة الصمت بالكتابة.

"لقد أثبتت تجربة الشتات العراقي أن المنفى على قسوته لم يكن عائقًا أمام الإبداع، بل شكل محرّكًا جديدًا للكتابة فتح آفاقًا غير مسبوقة أمام الأدب العراقي وأسّست سردية عالمية جديدة لا تكتب العراق من داخله، بل تكتبه من روحه"[130].

كشفت تجربة الأدب العراقي في المنفى أن الغربة رغم قسوتها لم تُخمِد روح الإبداع، بل حفّزت على ولادة نوع جديد من الكتابة يحمل ملامح مختلفة وصوتًا أكثر تحررًا. فقد فتح المنفى أمام الكُتّاب العراقيين أفقًا سرديًا أوسع، سمح لهم بأن يكتبوا عن العراق ليس من أرضه بل من أعماق روحه وذاكرته ليشكّلوا بذلك خطابًا عالميًا يحمل نَفَسًا محليًا وإنسانيًا في آنٍ واحد.

[130] قيس العزاوي، المنفى والكتابة: قراءات في الأدب العراقي الجديد، دار الرافدين، بيروت، 2020، ص 133".

7. النقد الأدبي في مواجهة العنف السياسي

تزايدت أشكال العنف السياسي في العراق خلال العقود الأخيرة خاصة بعد الغزو الأمريكي عام 2003م ومع هذا التصاعد لم يبقَ الأدب وحده وسيلة للتعبير عن القلق الجماعي أو توثيق المعاناة بطريقة إبداعية، بل برز النقد الأدبي أيضًا كأداة فاعلة في تحليل هذا العنف وكشف أبعاده ومساءلته. لقد تحوّل النقد من كونه ممارسة تحليلية جمالية إلى فعل مقاومة فكرية وأخلاقية ضد مختلف أشكال الاستبداد القهر والتهميش والإقصاء حيث انبرى العديد من النقاد العراقيين والعرب إلى دراسة النصوص الأدبية في ضوء السياقات السياسية التي أنتجتها وقراءة ما تخفيه اللغة من دلالات سلطوية وصور مضمرة للعنف والاستلاب والانهيار.

أ. التحولات المنهجية في النقد بعد 2003م

شهد النقد الأدبي في العراق قبل عام 2003م ثباتًا بين مسارين أساسيين؛ مسار أكاديمي تقليدي يعتمد المناهج البنيوية والبلاغية وآخر صحفي سريع يتأثر غالبًا بالظروف السياسية. لكن بعد الغزو، ومع الانفتاح الثقافي وتغير المناخ السياسي طرأت تحولات منهجية واضحة على الحقل النقدي. فقد اتجه عدد من النقاد إلى اعتماد مناهج ما بعد الحداثة كالنقد الثقافي والنقد الأيديولوجي والتحليل النفسي بوصفها أدوات لفهم الخطاب السياسي داخل النصوص الأدبية. وبهذا، لم يعد النص يُقرأ كنظام لغوي مغلق بل كفضاء دلالي معقّد يحمل مضامين سياسية ورمزية تعبّر عن واقع مأزوم ومجتمع يرزح تحت تهديد دائم.

بدأ النقاد بتناول مفاهيم مثل السلطة والقمع والخطاب والجسد والمكان والتاريخ وضمن النصوص السردية والشعرية وذلك لتفكيك العلاقة المضمَرة بين الأدب والعنف. فظهرت دراسات تشتبك مباشرة مع النصوص الروائية التي تناولت الاستبداد أو الاحتلال أو الطائفية،

لتحلل كيف تُنتج هذه النصوص خطابًا مضادًا للعنف أو على الأقل تؤرشفه بطريقة جمالية تكشف فظاعته وتُعيد مساءلته[131].

ب. النص الأدبي كوثيقة للذاكرة ومجال للمقاومة

ساهم النقد الأدبي بعد 2003 م في إبراز النصوص التي لا تكتفي بوصف العنف بل تُمارس فعلًا مقاومًا له من خلال اللغة والتخييل. فالنصوص التي تنطوي على سرديات العنف الطائفي أو صور الاغتيال السياسي أو مشاهد النزوح والدمار، لم تُقرأ فقط على أنها تعبيرات انفعالية أو واقعية بل كوثائق أدبية تنتمي إلى ما يُعرف بـ "أرشفة الألم". وهنا جاءت مساهمة النقاد في توسيع دائرة القراءة النقدية للنصوص، عبر ربطها بالبنية الثقافية والسياسية للمجتمع العراقي وتحليل كيف يعيد الأدب إنتاج الذاكرة بطريقة تُقاوم النسيان وتسجّل التاريخ المسكوت عنه بلغة فنية.

تحوّل النص الأدبي من وجهة نظر عدد من الدارسين إلى ما يشبه "الوثيقة الرمزية" التي تنقل الحقيقة من داخل الخراب وتُعيد ترتيب سردية الوطن الممزق فأصبحت الروايات التي تتناول الاعتقال أو التعذيب أو العنف المذهبي تُقرأ باعتبارها مساحة للوعي والاحتجاج وهنا يأتي دور الناقد في تفكيك مستويات اللغة والصور والشخصيات لا من أجل الكشف الفني فقط، بل لفهم البنية السياسية العميقة التي تُنتج هذا العنف وتُعيده[132].

ج. المسؤولية الأخلاقية للنقد في ظل الفوضى

لم يعد للناقد في مرحلة ما بعد الغزو القدرة على البقاء محايدًا أو الاكتفاء بالتحليل الجمالي البحت، أمام حجم الكارثة التي عاشها العراق وما خلّفته من آثار إنسانية وسياسية عميقة.

---

[131] أحمد الجبوري، النقد الثقافي والأدب العراقي بعد الاحتلال، مجلة الآداب والنقد، العدد 54، 2020، ص 77".

[132] سهى عبد الحسين، النص الروائي بوصفه ذاكرة مضادة للعنف، المركز العراقي للدراسات الأدبية، بغداد، 2019، ص 129".

فقد باتت المسؤولية الأخلاقية للنقد ضرورية، حيث أصبح متوقعًا من الناقد أن لا يكتفي بتوصيف النصوص، بل أن يشارك في مسألة الواقع من خلال النص، وأن يُنتج خطابًا نقديًا واعيًا يسهم في بلورة الوعي الجماعي ويعزز من دور الأدب كأداة لفهم الذات والواقع وليس كترف فكري.

هذا التحول الأخلاقي لا يعني التخلي عن المنهجية بل يعني توظيف الأدوات النقدية بحس إنساني وشعور بالتورط المعرفي الذي لا ينفصل عن هموم الوطن وهنا يتحول النقد إلى فضاء يحرّك القارئ نحو التفكير لا في النص وحده، بل في ما يختبئ وراءه من سياقات سلطة وقمع ولذلك برز مصطلح "النقد المقاوم" أو "النقد المناهض للعنف" بوصفه اتجاهاً يسعى إلى فك رموز النصوص التي لا تكتفي بسرد الواقع، بل تسعى إلى تغييره.

إن النقد الأدبي العراقي بعد 2003م لم يعد مجرد ممارسة ثقافية محدودة في قاعات الجامعة أو صفحات المجلات بل أصبح جزءًا من جبهة معرفية وأخلاقية في مواجهة العنف السياسي. لقد أعاد النقاد تعريف وظائفهم وتوسيع أفق مقارباتهم فصاروا يشتبكون مع النصوص لا بوصفها أعمالًا فنية فقط بل بوصفها أدوات مقاومة وحقولًا حيوية لفهم المجتمع والسياسة والتاريخ. وبهذا ارتقى النقد من كونه تحليلًا لغويًا أو بلاغيًا إلى كونه خطابًا إنسانيًا يكتب ضد النسيان وضد القهر ويؤسس لوعي نقدي متجدد.

الفصل الثالث
مختارات من الأدب العراقي في ظل الحروب

شهد العراق عبر تاريخه الحديث سلسلة من الحروب والصراعات المتواصلة، بدءًا من الحرب العراقية الإيرانية مرورًا بحرب الخليج الثانية وصولًا إلى الغزو الأمريكي عام 2003م وما تبعه من اضطرابات داخلية وانهيارات أمنية واجتماعية طالت كل مفاصل الحياة. هذه الحروب لم تكن مجرد حوادث سياسية أو عسكرية بل تحوّلت إلى أحداث وجودية شكّلت وعي الإنسان العراقي وأثّرت بعمق في البنية النفسية والاجتماعية والثقافية للمجتمع، وانعكس ذلك بشكل واضح في خطاباته الإبداعية خصوصًا في الشعر والمسرح والمذكرات واليوميات والفنون الأدبية التي أصبحت مرآة لهذا الواقع المضطرب ومحاولة لتدوين المعاناة وتفسير المأساة والتمسك بما تبقى من الذاكرة والكرامة.

تجاوز الأدب العراقي خلال الحروب حدود التعبير الجمالي، وتحول إلى صوت جماعي يعبّر عن القلق الجماعي وعن انكسار الإنسان العراقي في مواجهة الحرب بوصفها قوة ساحقة لا تكتفي بتدمير المدن والمنشآت بل تمزق الوعي وتعيد تشكيل العلاقات بين الفرد والوطن وبين اللغة والموت وبين الذاكرة والنسيان. وفي ظل هذا المشهد لم يعد الإبداع الأدبي ترفًا ثقافيًا بل ضرورة وجودية وفعل مقاومة ضمنية لجأت إليه الذات الكاتبة لتوثيق الكارثة من ناحية والبحث عن المعنى وسط الفوضى من ناحية أخرى[133].

تميّزت الأجناس الأدبية في فترات الحرب بقدرتها على المزج بين الذاتي والجماعي والعاطفي والسياسي والرمزي والواقعي. فقد كتب الشعراء والمسرحيون وكتّاب اليوميات من داخل

[133] عبد العزيز المقالح، الأدب في زمن الحرب: قراءة في التجربة العراقية، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 94، 2010، ص 41

الحدث، لا كمراقبين بل كضحايا وشهود في الوقت نفسه. فأصبحت القصيدة مساحة للبوح وشهادة سياسية وأخلاقية والمسرحية وسيلة رمزية لإعادة بناء الفقد الإنساني واليوميات نصوصًا مفتوحة توثق لحظات الانهيار الاجتماعي والسياسي وتحفظ للأجيال القادمة تجارب الموت والانتظار والخيبة.

في هذا الفصل سنركّز على هذه الأجناس الأدبية التي أسهمت في صياغة المشهد الثقافي العراقي في ظل الحروب وعلى رأسها الشعر الذي ظل حتى أعتى مراحل الحرب ميدانًا حيويًا لتفريغ الألم وبناء الهوية ومساءلة السلطة ومخاطبة المستقبل إلى جانب المسرح الذي واجه الرقابة والعنف السياسي بلغة رمزية وأداء جسدي يحاكي الدمار الداخلي فضلًا عن اليوميات والمذكرات التي مثّلت توثيقًا ذاتيًا مباشرًا يعكس قسوة الحياة اليومية في زمن الرعب والانهيار. وسيتم استعراض وتحليل مختارات من الشعر والمسرح والمذكرات العراقية بما تمثّله من استجابات متنوعة للعنف وما تطرحه من رؤى حول الإنسان العراقي في لحظات التحول الجذري والخراب الشامل والتحدي الوجودي. وهذه النصوص ليست مجرد انعكاس للحدث السياسي بل هي مساهمات حقيقية في صياغة سردية عراقية موازية لما يكتبه المؤرخون والسياسيون وسردية تشتبك مع الأسئلة الكبرى للهوية والمعنى والمستقبل.

1. الشعر في زمن الحرب؛ من الغنائية إلى التوثيق

شهد الشعر العراقي تحوّلًا كبيرًا مع تصاعد الأزمات السياسية والحروب، خاصة منذ الحرب العراقية–الإيرانية، حيث بدأ يتخلى تدريجيًا عن نزعته الغنائية الرومانسية التي ركزت على الذات والعاطفة، ليتجه نحو توثيق الواقع وتسجيل الأحداث الكبرى ولم تعد القصيدة صوتًا حالِمًا بعيدًا عن الواقع، بل أصبحت شاهدًا مباشرًا على الدمار والخذلان وسفك الدماء. وقد عمل الشعراء على توثيق تفاصيل الحياة اليومية في ظل الحرب والحصار والاضطرابات،

فحوّلوا نصوصهم إلى أرشيف حي ينقل صرخة المواطن ووجعه وحيرته الوجودية أمام عنف لا ينتهي.

هذا التحول لم يكن فقط في الموضوع بل طال اللغة والأسلوب والبنية الفنية، إذ أصبح الشاعر يحاول جاهداً أن يكتب من "داخل النار" لا من خارجها، وأن يُبقي القصيدة مشدودة إلى التفاصيل الصغيرة للحياة المنكوبة، لا إلى المجازات العائمة فأصبحت القصيدة في هذا السياق تؤدي دور المؤرخ لا بالمعنى التقليدي، ولكن عبر الاحتفاظ بذاكرةٍ وجدانيةٍ وشعوريةٍ لا يستطيع التاريخ الرسمي توثيقها.

أ. القصيدة كشاهد عيان؛ توثيق الموت والانهيار

تقدّم الشعر العراقي الحديث كشاهد على الكارثة ولم يكتفي بسرد الوقائع، بل قدّمها من منظور وجودي وشخصي وإنساني عميق ومن خلال الصور الشعرية الكثيفة تم توثيق لحظات الفقد؛ فقد الأهل فقد الوطن فقد المعنى. والقصيدة هنا ليست فقط ساحة للبوح بل أصبحت وثيقة بديلة للتاريخ تُسجّل بصوت الفرد ما تجاهلته أو أخفته الروايات الرسمية.

وقد برع الشعراء العراقيون في تقديم هذه الشهادة الشعرية عبر تصويرهم للجثث الملقاة في الشوارع ولصراخ الأمهات ولخوف الأطفال ولفراغ البيوت بعد القصف وللتشظي الذي أصاب الإنسان العراقي نفسيًا ووجوديًا. يقول أحد النقاد؛ "القصيدة العراقية أصبحت تقدم شهادتها لا كمجرد انعكاس للحرب بل كصوت الضحية التي تكتب نفسها وتدوّن وجودها وسط الإنكار والتشويه لتصبح فعلًا مقاومًا يوثق الألم ويمنح المعاناة صوتًا وذاكرة "[134].

[134] عبد الجبار الداودي، القصيدة بوصفها وثيقة: دراسات في الشعر العراقي الحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2020، ص 89".

ب. التحولات الأسلوبية واللغوية في القصيدة

واكب التحول في وظيفة الشعر تغيّر جذري في بنية القصيدة العراقية، حيث لم يعد الشكل التقليدي الموزون والمقفى قادرًا على التعبير عن تعقيد تجربة الخراب والموت. لذلك لجأ العديد من الشعراء إلى كتابة قصيدة النثر، معتمدين أساليب تتسم بالتكثيف والاختزال واللغة الصادمة. اتجه الأسلوب نحو التكسر والاختزال والتشظي في الصور بما يعكس التمزق الداخلي للذات العراقية. كما أصبحت اللغة أكثر خشونة وقسوة خالية من الزخارف وغارقة في سوداوية تعبّر عن اليأس والانكسار وعدم جدوى الحلم. ومع ذلك لم تخلُ هذه اللغة من محاولات لاستعادة الجمال وسط العتمة بل منحت الألم قدرة على التحول إلى نص فني فريد. وهذا ما جعل الكثير من النقاد يرون أن "التحول الأسلوبي لم يكن مجرد اختيار فني بل ضرورة وجودية فرضتها لحظة السقوط والفجيعة الجماعية"[135].

ج. الشعر بوصفه مقاومة رمزية

تجاوز الشعر دوره التوثيقي ليصبح وسيلة رمزية لمقاومة الظلم السياسي والاجتماعي. ففي أزمنة القمع مثّل الشعر مساحة للكلمة الحرة وجمالًا يواجه القهر والعنف. عبّر عمّا يصعب قوله بصراحة ونقل الألم دون أن يستسلم له. فهو لم يكن فنًا محايدًا بل صوتًا مقاومًا يقول "لا" بلغة رقيقة لكنها قوية التأثير. ومن خلال الصور الشعرية والأداء الصوتي أعاد تشكيل وعي الناس ودفعهم إلى التفكير والتساؤل فأصبحت بعض القصائد منبرًا بديلًا يتكلم فيه الناس عن معاناتهم ويكشفون من خلاله قناع السلطة القمعية وخداع الشعارات الوطنية.

[135] ليلى مهدي، التحول الأسلوبي في قصيدة ما بعد الغزو، مجلة النقد الثقافي، العدد 32، 2021، ص74

د. الشعر والذاكرة الجماعية

تحاول الحروب في كثير من الأحيان طمس الذاكرة الجماعية وتحويل الناس إلى شهود صامتين على الفجيعة وكأنها تسلبهم حق الكلام وحق الحزن وحق التذكّر فيأتي الشعر ليلعب دور "الذاكرة البديلة" إذ يحتفظ بالألم ويُعيد سرد الأحداث من منظور الإنسان العادي بعيدًا عن التوظيف الإعلامي أو الأيديولوجي.

ساهم الشعر في تكوين سردية جديدة للعراق سردية يكتبها الضحايا لا المنتصرون ويُدوّنها المحزون لا السياسي. ومن خلال آلاف القصائد التي ظهرت بعد عام 2003م، يمكن قراءة العراق مرة أخرى؛ لا كدولة فاشلة أو بؤرة عنف بل كوطن مكسور يبحث عن صوته وسط الركام وأصبحت القصيدة لا سيما في زمن الخراب "دفتر التاريخ المفتوح" و"الوثيقة الحية" التي تُعاند الموت وتؤرخ لما تبقى من الوطن داخل اللغة وتحوّلت القصيدة إلى سجلّ حيّ للتاريخ توثّق ما تبقى من الوطن بالكلمات وتقاوم النسيان والموت عبر اللغة.

2. تحليل نماذج مختارة: الرؤية الفنية والبناء السردي

تميّز الإبداع الأدبي في التجربة العراقية المعاصرة بعدم الاكتفاء بعكس واقع الحروب والانقلابات والدمار بل ساهم في تشكيل هذا الواقع ومساءلته. وبرز ذلك بوضوح في الرؤى الفنية والبنى السردية المتنوعة التي قدّمتها الأجناس الأدبية المختلفة كالشعر والمسرح واليوميات والرسائل لتُكوّن مشهدًا تعبيريًا غنيًا يعكس عمق التوترات السياسية والاجتماعية والنفسية فالرؤية الفنية في هذه النماذج المختارة تتسم غالبًا بالتشابك بين الذاتي والوطني، بين الخاص والعام حيث لا يُفصل الشاعر أو الكاتب نفسه عن الجماعة بل يُعيد إنتاج تجاربه الشخصية بوصفها تمثيلًا لمأساة شعب بأكمله. اتسمت هذه الرؤية بميل واضح إلى تفكيك السلطة والعنف سواء عبر الصور الشعرية المجازية أو عبر الحوارات المسرحية الرمزية أو من

خلال تقنيات السرد المقطّع واليومي. ويُلاحظ أن الرؤية لا تنطلق من موقف حيادي، بل من وعي مقاوم يحمل رسالة، ولو بشكل رمزي، تجاه الوجود والهوية والوطن في زمن الخراب.

أما على مستوى البناء السردي فنجد تغيرات واضحة تواكب الأحداث الكبرى، إذ اتجه كثير من الأدباء إلى تفكيك البنية التقليدية للنص. ففي الشعر على سبيل المثال ظهرت بنى متحررة من الإيقاع والقافية، ولجأت إلى الانفلات اللغوي والتكثيف الرمزي بينما في المسرح استخدمت التقنيات البصرية والجسدية لتجسيد الصدمة بدون معنى. وفي الرسائل واليوميات كان السرد متقطعًا، متوترًا يفتقر أحيانًا إلى الترتيب الزمني التقليدي مما يعكس اضطراب الحياة نفسها، ويفضح اختلال الزمان والمكان داخل وعي الكاتب.

إن هذه النماذج تقدم ما هو أكثر من شهادات شخصية، إنها محاولات جادة لإعادة كتابة الذاكرة عبر لغةٍ تستنطق الألم وتُعيد تنظيم الفوضى. لقد تراجعت الخطابات المباشرة لصالح التلميح والإيحاء وظهرت صور الانكسار من خلال أبطالٍ هامشيين وأصواتٍ منسية ومساحات صمت أكبر من الكلمات. وهذا كله يعكس قدرة الأدب، خصوصًا في هذه النماذج على تجاوز التوثيق نحو صناعة وعي جمالي – تاريخي مضاد للخطابات الرسمية.

إن ما يميز هذه النماذج أيضًا، هو اعتمادها على تقنيات فنية متعددة منها: الاسترجاع الزمني والحوار الداخلي والمونولوج والرمز والتناص والتقاطع مع التراث فالأديب العراقي في هذه النصوص لا يكتفي بتمثيل الحرب بل يُجري حوارًا مع النصوص الكبرى: الدينية والأسطورية والتاريخية لخلق سردية عراقية بديلة تأخذ من الرماد ضوءًا ومن الموت معنى ومن الكارثة إصرارًا على الكتابة والنجاة.

وعليه فإن تحليل النماذج المختارة لا يهدف إلى إبراز التقنية فقط بل إلى فهم كيف يشتبك الشكل مع المضمون وكيف يعبّر البناء عن أزمة وكيف تُصبح الرؤية الجمالية شكلًا من أشكال

المقاومة فتحت سطح الصور والرموز هناك وطن جريح يصرخ بلغة الشعر والمسرح والسرد الشخصي، وهناك كاتب لا يملك إلا الكلمة ليواجه بها كل هذا السقوط من حوله[136].

3. الرمزية والأساليب الجديدة في التعبيرعن المعاناة

شهد الأدب العراقي في فترات الحروب المتعاقبة تحوّلات جذرية في طريقة التعبير عن الألم الوطني والمعاناة الجماعية وكان للرمزية والأساليب الأدبية الجديدة دور مركزي في هذا التطور. فمع تعاظم القيود السياسية والرقابية وتحول المشهد الاجتماعي إلى فضاء من الدمار والتشريد، أصبح التعبير المباشر عن المعاناة محفوفًا بالمخاطر الأمر الذي دفع الكتّاب والشعراء إلى تبني رموز وأساليب فنية تعبر عن الواقع المرير بطريقة غير مباشرة، لكنها عميقة وذات قدرة على إيصال الرسائل الإنسانية والسياسية بطريقة أكثر حيوية وفاعلية.

أ. الرمزية كوسيلة فنية لمواجهة الرقابة والقمع

اعتمد الكتّاب الرمزية كضرورة فنية ملحّة في ظل واقع سياسي قمعي فرض قيودًا صارمة على حرية التعبير، فأصبحت الرموز أداتهم للتعبير عن الغضب والاحتجاج دون الوقوع في شرك الرقابة المباشرة أو العقوبات وتحوّلت هذه الرموز إلى لغة مضمّنة تحمل معاني متعددة تختبئ خلفها رسائل سياسية واجتماعية لاذعة. فمثلاً قد تشير 'الصحراء' إلى التيه الوجودي، و'النار' إلى الخراب و'الظل' إلى القهر، لتتحوّل بذلك إلى مفاتيح لفهم واقع ملبّد بالخوف والخذلان. "هذا الاستخدام المكثف للرموز يجعل من النص الأدبي مساحة آمنة ونوعًا ما للمقاومة حيث يمكن للمتلقي أن يفكّ شفرات النص، ويدرك ما يختبئ وراء الكلمات فيما تبقى النصوص محمية من المنع والحظر"[137].

---

[136] ماجد السامرائي، تشكّلات السرد العراقي في ظل الأزمات، مجلة الأدب والنقد، العدد 117، 2021، ص 94

[137] سمير جابر، الرمزية في الشعر العراقي الحديث: آليات ومقاصد، مجلة الدراسات الأدبية، بغداد، 2019، ص 112.

ب. الرمزية بين التعبيرعن الألم والمقاومة الثقافية

الرمزية في الأدب العراقي لم تعبّر فقط عن الحزن والمعاناة، بل مثلت أيضًا شكلًا من أشكال المقاومة الثقافية والمعنوية وفي لحظات القهر الشديد استخدمت الرموز للتشبث بالأمل وإعلان الصمود في وجه العنف والتدمير. فصور مثل النار التي لا تحرق تمامًا، أو الظل الذي لا يختفي تعبر عن استمرارية الهوية وحضور الذاكرة رغم محاولات القمع والإبادة.

هذه الرموز منحت الأدب بعدًا فلسفيًا وروحيًا يتجاوز مجرد سرد الألم ليصبح فعلًا إبداعيًا يعيد بناء الذات والهوية الجماعية ويشكل بمثابة رافعة نفسية تسمح للمجتمع بإعادة الاعتبار إلى وجوده وسط الدمار.

ج. التأثيرات الشخصية والتجارب الذاتية في إثراء الأساليب التعبيرية

انطلق العديد من الأدباء العراقيين الذين عاشوا تجربة اللجوء والشتات في مزج معاناتهم الشخصية مع الرمزية والأساليب الحديثة مما أضفى على نصوصهم بُعدًا إنسانيًا عميقًا ومؤثرًا عبّر عن ألم الفقد والتوق للهوية والتصالح مع الذاكرة. فالألم الفردي تحوّل إلى تجربة جماعية عابرة للحدود تعبر عن مأساة الإنسان في كل مكان يعاني من النزوح أو القمع أو التمزق. وهذا المزيج بين الشخصي والجماعي جعل النصوص أكثر تواصلًا مع المتلقي، وأكثر قدرة على التعبير عن المشاعر المعقدة التي لا يمكن للأشكال التقليدية حملها.

4. الابتكارات الأسلوبية: قصيدة النثروالتناص والتشظي

استدعت تعقيدات التجربة العراقية تجاوز الأساليب الأدبية التقليدية التي لم تعد قادرة على التعبير عن عمق المأساة وتشعب أبعادها النفسية والاجتماعية. ونتيجة لذلك برزت ابتكارات أسلوبية أعادت تشكيل بنية القصيدة والنصوص الأدبية عمومًا. وانتشرت قصيدة النثر على

نطاق واسع إذ منحت الكُتّاب حرية في التعبير عن مشاعر وأفكار متقطعة ومكثفة تعكس حالة الاضطراب الداخلي والانقسام الاجتماعي.

كما لجأ العديد من الأدباء إلى التناص وهو الإشارة إلى نصوص أو رموز أخرى من التراث الديني الأسطوري أو الأدبي لخلق حوار بين الماضي والحاضر وتقديم قراءة نقدية للواقع العراقي. التناص لم يكن تزيينًا أدبيًا فقط بل أداة لتعميق المعنى وربط الألم الفردي بالذاكرة الجماعية. بالإضافة إلى ذلك ظهرت ظاهرة التشظي السردي في النصوص حيث يتم تفكيك الزمن والحدث إلى مشاهد متفرقة متداخلة تعكس حالة الفوضى واللا استقرار التي يعيشها الإنسان العراقي في زمن الحرب والشتات وتبعث إحساسًا حادًا بالقلق النفسي. كل هذه الأساليب الأدبية الحديثة ساعدت على توسيع مجال التعبير، وفتحت آفاقًا جديدة لمخاطبة القارئ، وجعلت النصوص أكثر قدرة على استيعاب تعقيدات التجربة الوطنية التي تفوق القدرة على الوصف المباشر[138].

5. أثر الرقابة والمنفى في توجيه الإنتاج الأدبي

شكّلت الرقابة والمنفى عاملين رئيسيين أثّرا بعمق في مسار الإنتاج الأدبي العراقي خلال العقود الأخيرة خاصة في ظل ما شهدته البلاد من أحداث سياسية عنيفة وحروب متلاحقة. فلم تكن هذه الظواهر مجرد وقائع عابرة بل جاءت محمّلة بتداعيات ثقافية ونفسية وأدبية حوّلت النصوص إلى مساحات توتر ومقاومة تُعبّر عن الرفض وتواجه القمع والاغتراب بالكلمة.

[138] رنا عبد الله، ابتكارات أسلوبية في أدب الحرب العراقي، دار الفكر، عمان، 2021، ص 76

أ. الرقابة و أثرها على حرية التعبير الأدبي

اتّسمت الرقابة في العراق بالشدة والاستمرارية لا سيما خلال فترات الحروب والحكم الاستبدادي إذ كانت السلطات تفرض رقابة صارمة على كل ما يُكتب أو يُنشر في محاولة دؤوبة لإسكات أي صوت معارض أو كاشف لانتهاكاتها. هذا الواقع دفع الكتّاب إلى ابتكار أساليب تعبير ملتوية ومعقدة فبدلاً من الطرح المباشر لجأ العديد منهم إلى الرمزية والتلميح واستخدام تقنيات فنية تُمكّنهم من إيصال رسائلهم دون أن يقعوا تحت طائلة المنع أو العقاب. ونتيجة لذلك ظهرت ما يُعرف بـ "الكتابة المزدوجة" حيث يحمل النص ظاهرًا ينسجم مع الخطاب الرسمي، وباطنًا يعبّر عن الاحتجاج والرفض والوجع الشعبي. لم تكن هذه الأساليب مجرد وسيلة للالتفاف على الرقابة، بل شكّلت في حد ذاتها فعلًا مقاومًا وسياسيًا وثقافيًا.

6. تجربة المنفى؛ بين الاغتراب والحرية

المنفى لم يكن مجرد موقع جغرافي بل تجربة وجودية عميقة تعكس التمزق بين الانتماء والفقد، بين الوطن والشتات. كثير من الأدباء العراقيين، ممن اضطروا لمغادرة بلادهم هربًا من الاضطهاد أو العنف وجدوا في المنفى مساحة حرة للتعبير لم تكن متاحة لهم في الداخل. لكن هذه الحرية لم تخلُ من ألم الغربة والحنين الأمر الذي أضاف بعدًا جديدًا لإنتاجهم الأدبي.

الكتابة في المنفى كانت محاولة لاستعادة الهوية الممزقة وتحقيق التواصل مع وطن تمزق بفعل الحروب والقمع. الأدب هنا تحول إلى "مختبر تجارب" يدمج ما بين الألم الشخصي والوجع الوطني، ويحاول بناء سرد جديد يعكس واقع العراقيين وفي الشتات. في هذا السياق أصبحت موضوعات الاغتراب، الفقد، والهوية جزءًا لا يتجزأ من النصوص التي خرجت من رحم المنفى.

أ. تأثير الرقابة والمنفى على مضامين وأشكال الأدب

تزامنت تجربة الرقابة مع تجربة المنفى في دفع الأدباء إلى البحث عن أساليب ومضامين جديدة تسمح لهم بالتعبير عن واقعهم المضطرب. على المستوى الموضوعي برزت مواضيع مثل الانكسار والغربة والمقاومة والذاكرة والهوية الممزقة. أما من الناحية الأسلوبية، فقد أصبحت الرمزية والإيحاء والكتابة المتقطعة أدوات ضرورية. اتسمت كثير من النصوص بالتجريب اللغوي والتفكيك البنائي، حيث عكست الشكل حالة التشظي النفسي والاجتماعي التي يعيشها الفرد العراقي.

هذه الأساليب لم تكن فقط رد فعل على القمع، بل أيضًا محاولة لإيجاد صوت فني خاص يعبر عن التداخل بين الشخصي والجماعي، بين الألم الفردي والتاريخ الوطني.

ب. التفاعل بين أدب الداخل والشتات

ساهمت الفروق الجغرافية بين الأدباء داخل العراق وخارجه في تنويع التجربة الأدبية لكن ذلك لم يمنع التفاعل الحيوي بين الطرفين. فقد وجدت النصوص المنفية طريقها إلى القارئ العراقي وأسهمت في بلورة وعي جديد في حين استلهم الكتّاب في الداخل قضايا المنفى والشتات مما أضفى على الأدب العراقي المعاصر بعدًا إنسانيًا وثقافيًا أكثر عمقًا وتنوعًا. هذا التبادل بين الداخل والمنفى ساهم في بناء فضاء أدبي متعدد الأصوات يعكس التنوع والتمزق لكنه في الوقت نفسه يحمل أملًا في التلاحم من خلال الكتابة ويؤكد على الدور المحوري للأدب في مواجهة الأزمات.

في ضوء ما تم استعراضه من دراسات معمقة ورؤى نقدية، يتضح أن الحروب المتكررة التي شهدها العراق تركت بصمة عميقة على مسار الأدب العراقي، فحوّلته إلى مرآة حية تعكس معاناة الوطن، ووسيلة قوية لمقاومة الظلم وتوثيق لحظات الانكسار. ولم يعد الأدب يكتفي

برواية الأحداث، بل تطور إلى خطاب متعدد الأبعاد يجمع بين الجمال الفني والمواقف السياسية والاجتماعية متأثرًا بسياقات البلد المتغيرة. وقد أضفى هذا التفاعل غنىً وتنوعًا على النصوص الأدبية سواء من حيث الأسلوب أو من حيث المضامين.

ورغم القسوة التي فرضتها الحروب شهد الأدب العراقي تحوّلات نوعية خصوصًا على مستوى اللغة والتقنيات التعبيرية. فبرزت لغة جديدة ومشحونة بالرمز والتجريب قادرة على حمل التناقضات والمشاعر المركّبة الناتجة عن صدمات الحرب ما منح النصوص بعدًا فلسفيًا ووجوديًا أعمق. ولم يكن هذا التحول ناتجًا عن رغبة جمالية فقط، بل كان ضرورة فرضتها الحاجة إلى التعبير عن معاناة لا يمكن للكلمات المباشرة أن تحتويها. وهكذا أصبح الأدب وسيلة لبناء الذاكرة الجماعية، وحصنًا للهوية العراقية في وجه محاولات التغييب والنسيان".[139]

كما أن الرقابة والاضطرابات السياسية لعبت دورًا مزدوجًا؛ فعلى الرغم من فرضها لقيود خانقة فقد دفعت الكتّاب إلى ابتكار أساليب مراوغة مثل الرمزية والتلميح مما ساعدهم على تجاوز الخطوط الحمراء وفتح مساحات جديدة للحرية الإبداعية. وفي السياق نفسه أضفت تجربة المنفى والشتات بُعدًا إنسانيًا عميقًا على النصوص فمزجت بين الألم الشخصي والجراح الجماعية وجعلت من النص الأدبي صوتًا للذات المغتربة والمنفية.

انطلاقًا من ذلك يمكن القول إن الأدب العراقي لم يكن مجرد تسجيل تاريخي للنكبات بل كان فعلًا مقاومًا وجماليًا يُعيد قراءة الواقع ويجترح المعنى من الألم ويؤكد باستمرار أن الكلمة قادرة على تجاوز الهدم وصياغة الأمل من قلب الفجيعة. فالأدب هنا ليس مجرد انعكاس لما حدث بل هو أداة لإعادة تشكيل الوعي واستنهاض القدرة على الحلم وسط الركام.

[139] نجم، عبد الله. الكتابة تحت الرقابة: الأدب العراقي في ظل الحروب والأنظمة الشمولية. مجلة الثقافة العربية، العدد 75، 2018، ص. 112.

الباب الثالث

الروايات العراقية وحالة المجتمع قبل الحروب وبعدها

الفصل الأول : الحياة الاجتماعية في الروايات العراقية

الفصل الثاني : المكان والهوية في الروايات العراقية

الفصل الثالث : التحولات الثقافية في المجتمع العراقي كما عكستها الروايات

الباب الثالث

الروايات العراقية وحالة المجتمع قبل الحروب وبعدها

الرواية العراقية هي أحد الأشكال الأدبية الأكثر قدرة على توثيق التحولات الاجتماعية والثقافية التي مر بها المجتمع العراقي حيث لعبت دورًا محوريًا في كشف التشققات الداخلية والاضطرابات البنيوية التي أصابت البنية المجتمعية سواء في فترات الاستقرار النسبي قبل الحروب أو خلال فترات الانهيار والصراع بعد اندلاعها. لقد تجاوزت الرواية في العراق دورها الكلاسيكي كوسيلة للسرد والمتعة الجمالية، لتتحول إلى مرآة فكرية عاكسة ومجهر تحليلي نافذ إلى تفاصيل الحياة اليومية والأزمات الطبقية وتحولات الهوية وانهيارات القيم مما جعلها وثيقة أدبية موازية للمؤرخين والباحثين الاجتماعيين في قراءة المجتمع العراقي عبر الزمن، كما يشير الباحث فاضل غياث في دراسته: "الرواية العراقية وبنية المجتمع المتحول"[140].

قبل أن تنفجر دوامة الحروب التي ضربت العراق منذ الثمانينيات، كانت الروايات تميل إلى استكشاف الظواهر الاجتماعية والثقافية بتوازن نسبي، مع ميل نحو التعبير الواقعي، وتسليط الضوء على قضايا التمدن وبناء الطبقة الوسطى وصعود الحركات الفكرية والثقافية والتوتر بين الريف والمدينة. لقد استثمر الروائي العراقي هذه الفترة لتوثيق ملامح مجتمع في طور التحوّل ومشغول بأسئلة الهوية الوطنية والعدالة الاجتماعية والمساواة والتعليم وحرية المرأة، في ظل نظام اجتماعي تقليدي لكنه بدأ بالتصادم مع معالم التحديث السريع. في هذه النصوص، كانت الرواية أداة للتأمل والبناء، وليست فقط للتفكيك أو البكاء على الأطلال.

[140] فاضل غياث، الرواية العراقية وبنية المجتمع المتحول، المركز العربي للبحوث، بغداد، 2019، ص 88.

أما بعد اندلاع الحرب العراقية–الإيرانية، وما تبعها من حرب الخليج الثانية ثم الغزو الأمريكي للعراق في 2003م، فقد انقلب المشهد الروائي بالكامل وتحولت الرواية إلى مساحة اعتراف جماعي وغدت لغة الكتابة محمّلة بالألم والقلق والصدمة وتحول الروائي نفسه من مراقب خارجي إلى شاهد على الجرح بل في أحيان كثيرة، إلى طرف مشارك فيه عبر معايشة التهجير أو الفقد أو الرقابة أو العنف السياسي المباشر. لقد تغيرت طبيعة الشخصيات الروائية، كما تغيرت الأمكنة واللغة والإيقاع وحتى البنية الزمنية للنصوص، لتتماهى مع التحولات العنيفة التي ضربت بنية المجتمع العراقي. أصبح السرد أكثر تشظيًا، واللغة أكثر كثافة وقلقًا، فيما باتت الهوية الروائية نفسها مأزومة، كما لو أنها تبحث عن معنى جديد للكتابة في عالم مهدد بالزوال، وهو ما تؤكده منى فاضل في كتابها "صوت الحرب في الرواية العراقية المعاصرة"[141].

لقد مكّنت هذه المرحلة من ولادة نمط جديد من الكتابة الروائية، تمزج بين التوثيق والتخييل، وتعيد طرح أسئلة كبرى عن الوطن والانتماء والذاكرة والمستقبل. وكأن الرواية أصبحت تمارس فعل المقاومة الثقافية، لا بالسلاح، بل بالكلمة واللغة والخيال. في هذا السياق، لم تعد الرواية مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل صارت منتجة للمعنى، وصانعة للوعي، وساحة مفتوحة لإعادة كتابة سردية العراق، من داخل التجربة المعاشة لا من الخطابات السلطوية أو التاريخية الرسمية.

ولا شك أن دراسة الرواية العراقية في ضوء هذه التحولات تفتح أفقًا بحثيًا خصبًا لفهم التداخل العميق بين الأدب والمجتمع، وتمنحنا وسيلة لتفكيك صور الهوية العراقية، في علاقتها بالمكان وبالزمن وبالسياسة وبالإنسان ومن هنا، تبرز أهمية هذا الباب من الدراسة،

[141] منى فاضل، صوت الحرب في الرواية العراقية المعاصرة، دار المدى، بيروت، 2021، ص 133

إذ يسعى إلى مقاربة الروايات العراقية بوصفها سجلاً أدبيًا للذاكرة العراقية المعاصرة، ووثيقة فكرية وجمالية قادرة على إعادة تشكيل وعي القارئ بالتاريخ الاجتماعي والثقافي الذي أنتجها.

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية في الروايات العراقية

إن الأدب الروائي مرآةً حساسة تعكس تفاصيل الحياة الاجتماعية بمختلف أبعادها ومستوياتها والرواية العراقية بشكل خاص حملت على عاتقها مهمة توثيق تحولات المجتمع العراقي عبر عقود من الاضطرابات السياسية والحروب والتغيرات الثقافية. فقد اتّخذت الرواية العراقية موقعًا متقدمًا في رصد مظاهر التغير داخل النسيج الاجتماعي، من خلال تتبع العلاقات الأسرية والصراعات الطبقية، والفوارق بين الريف والمدينة وأزمات القيم والعادات، خاصة في ظل تصاعد حدة التحولات بين الأجيال. وبذلك لم تكن الرواية مجرد أداة سردية تهدف إلى المتعة الجمالية بل تحوّلت إلى وثيقة اجتماعية ومجهر نقديّ يُفكّك بعمق القيم التي سادت وتبدلت وسجّل أثرها على الفرد العراقي في واقعه اليومي.

واجه المجتمع العراقي منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى ما بعد الغزو الأمريكي عام 2003م سلسلة من التحولات العنيفة التي لم تترك جانبًا اجتماعيًا إلا وغيّرته. وقد عبّر الروائيون عن هذه التغيرات عبر شخصيات تتصارع بين المحافظة والتجديد وبين الانتماء والانفصال، فبرزت صورة المجتمع العراقي ككائن متحول، تتداخل فيه البنى التقليدية مع إيقاع العصر الحديث، كما استدعت الرواية أنماطًا سردية متعددة لرسم صورة دقيقة عن تطور الحياة الاجتماعية، من البنية الأسرية وسلطة الأب، إلى ملامح الانقسام بين الطبقات والتمزق بين الريف والمدينة وتوتر العلاقة بين الأجيال.

وينطلق هذا الفصل في تحليل جوانب محددة من هذه الحياة الاجتماعية كما تمثلها النصوص الروائية العراقية باحثًا في طبيعة الأسرة والعلاقات العائلية، والصراع الطبقي والتحول المكاني من الريف إلى المدينة وتبدل القيم والعادات، كما يسعى إلى فهم الكيفية التي عكست بها

الرواية، كجنس أدبي، نبض المجتمع العراقي وتصدعاته الداخلية، بوصفها مرآة للوعي الجماعي وساحة لتقاطع الأسئلة الوجودية والاجتماعية الكبرى.

1. بنية الأسرة والعلاقات العائلية

تعد الأسرة اللبنة الأولى والأساسية في بناء المجتمع فهي المؤسسة الأولى التي يتكوَّن فيها وعي الفرد وتتشكل من خلالها منظومته القيمية والاجتماعية. وفي الرواية العراقية، حظيت بنية الأسرة والعلاقات العائلية باهتمام سردي واضح بوصفها انعكاسًا حيًّا للمجتمع العراقي بما فيه من تناقضات وتحولات. وقد لعبت الأسرة في الرواية دورًا مزدوجًا؛ فهي من جهة تمثل إطارًا حميميًا يحتضن الشخصيات ومن جهة أخرى تظهر كبيئة مشحونة بالتوترات والصراعات المرتبطة بالتقاليد والسلطة الأبوية والضغط الاجتماعي خاصة في ظل التحولات السياسية والاجتماعية المتلاحقة التي عصفت بالعراق خلال العقود الأخيرة.

وقد استخدم الروائي العراقي بنية الأسرة كأداة رمزية تعكس الديناميكيات الأعمق داخل المجتمع، مثل التفاوت الجيلي والأدوار الجندرية وتحولات القيم والعادات. فالرواية لا تكتفي بعرض شكل العائلة الظاهري بل تتوغّل في تحليل العلاقات النفسية والاجتماعية بين أفرادها، مركّزة على الأثر العاطفي والسياسي الذي يتركه المجتمع الخارجي على التركيبة الأسرية الداخلية. وفي كثير من الأحيان تُجسَّد الأسرة باعتبارها حقلًا للمقاومة أو ساحة للصراع بين ما هو موروث تقليدي وما هو متحول حداثي، مما يعكس مأزق الهوية والانتماء داخل البيئة العراقية المتأرجحة بين الاستقرار والانهيار.

يهدف هذا القسم إلى تحليل كيفية تمثيل الأسرة والعلاقات العائلية في الروايات العراقية مع التركيز على صورتها ما قبل الحرب وبعدها وعلى الكيفية التي تتغير بها العلاقات بين الآباء والأبناء وبين الرجال والنساء في ظل العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة في المجتمع العراقي.

فهذا التمثيل لا يُقرأ فقط على المستوى الواقعي، بل يفتح الباب لفهم أعمق لأزمات الفرد العراقي في ظل سلطة الجماعة، وتقلّب الزمان، وتبدل المرجعيات القيمية.

أ. الروابط العائلية والتقاليد الأسرية

تشكل الأسرة في الرواية العراقية وحدة مركزية تعكس من خلالها بنية المجتمع وهويته الثقافية إذ تُصوَّر على أنها الكيان الذي يحتضن الفرد ويشكّل شخصيته منذ النشأة الأولى. لطالما اعتُبرت الروابط العائلية مصدرًا للقوة والانتماء، وفي الوقت نفسه موضعًا للصراع الداخلي والتوترات الناتجة عن تغيرات العصر، فالرواية لا تقدم الأسرة على أنها نموذج مثالي ساكن، بل تكشف ديناميكيتها وتحوّلها بتأثير التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدها العراق في فترات ما قبل الحرب وبعدها. وفي كثير من الروايات، تظهر الأسرة ككيان هشّ يتعرض للانهيار أمام صدمات الفقد والفقر والهجرة والعنف، مما يجعلها نقطة محورية لتحليل عمق التغيرات الاجتماعية في البلاد.

إن الكثير من الروايات العراقية تصف المشهد الأسري في ضوء منظومة تقليدية صارمة، تحكمها الأعراف والعادات، خاصة في البنية الأبوية الصارمة التي تُعلي من سلطة الرجل وتقمع أصوات المرأة والشباب ومع ذلك، بدأت ملامح التمرد تظهر داخل النصوص الأدبية مع تصاعد الحداثة وتأثير التعليم والثقافة والإعلام، فبرزت شخصيات روائية تسعى إلى التحرر من القيود الأسرية، وتعيد تعريف علاقتها بالعائلة، مما يدل على صراع داخلي يعكس تحول البنية الاجتماعية في المجتمع العراقي ككل[142].

وقد لجأ العديد من الكتّاب إلى تصوير هذا التوتر ضمن سرديات حافلة بالتفاصيل الدقيقة، تسلط الضوء على التداخل بين الواجب العائلي والرغبة في الاستقلال، كما تضع القارئ أمام

[142] عبد الحسين الجبوري، تحولات العائلة في الرواية العراقية المعاصرة، دار سطور، بغداد، 2017، ص 63.

تساؤلات جوهرية حول معنى الانتماء والواجب والحرية في مجتمع لا يزال متمسكًا بجذوره التقليدية، رغم كل مظاهر الحداثة الظاهرية وتبدو هذه المقاربات جلية في الروايات التي تنتمي إلى فترة ما بعد الغزو الأمريكي، حيث تُصور الأسرة كمؤسسة مهددة، تنهار تدريجيًا بفعل الحرب والشتات والتفكك القيمي.

ب. الأدوار الجندرية داخل الأسرة بين التقليد والتغير

تلعب الرواية العراقية دورًا مهمًا في تفكيك الأدوار الجندرية داخل الأسرة حيث تسلط الضوء على كيفية توزيع السلطة والمسؤوليات بين الذكور والإناث في السياق العائلي. فبينما حافظت بعض الروايات على صورة المرأة كأم أو زوجة ملتزمة بالدور التقليدي نجد أن هناك تطورًا ملحوظًا في كيفية تمثيلها في روايات أكثر حداثة إذ باتت تظهر بوصفها فاعلًا اجتماعيًا يتحدى الحدود المفروضة عليه، ويسعى لإعادة تعريف موقعه داخل الأسرة وخارجها.

ويتجلى هذا التغيير في تصوير الروايات لصراعات النساء مع السلطة الأبوية أو الزوجية ومحاولتهن كسر الحواجز الثقافية والدينية التي كبّلت حرياتهن لعقود، كما أن بعض الروايات تبرز تحوّل الرجل نفسه في ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية إذ لم يعد هو المركز المطلق للسلطة داخل الأسرة، بل أصبح هو الآخر ضحية لفقد السيطرة أو لتغير النظام الاجتماعي التقليدي الذي كان يضمن له مكانة ثابتة. ويشير بعض النقاد إلى أن "الرواية العراقية الحديثة قدّمت مراجعة نقدية معمقة للأدوار الجندرية، حيث انتقل السرد من الطاعة والخضوع إلى المواجهة والتحليل والتشريح النفسي والاجتماعي لهذه الأدوار"[143].

هذا التغير في الأدوار الجندرية لا يُفهم إلا ضمن التحولات العامة التي مر بها المجتمع العراقي، فمع الانفتاح الثقافي من جهة والحروب والانهيارات من جهة أخرى وجدت الأسرة العراقية

[143] رجاء كاظم، الهوية الجندرية وتمثلاتها في السرد العراقي، مجلة الدراسات الثقافية، العدد 22، 2020، ص 114

نفسها أمام تحديات جديدة، انعكست بوضوح في المتخيل الروائي، خاصة فيما يتعلق بالهوية الجندرية وإعادة تعريف الذات في مواجهة مجتمع مأزوم.

2. الطبقية الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي

تعد الطبقية الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي من أهم الظواهر التي تشكل بنية المجتمع العراقي وقد انعكست هذه الظواهر بوضوح في الرواية العراقية التي تناولت تجارب الإنسان في سياق الصراعات الطبقية والتفاوت في الفرص والثروات. فالأدب الروائي لم يقتصر على تصوير الفوارق المادية فقط بل سعى إلى الغوص في أبعادها النفسية والاجتماعية مستعرضًا كيف تتشابك الطبقات الاجتماعية المختلفة وكيف يؤثر التفاوت الاقتصادي على الهوية والعلاقات والمصير الفردي والجماعي.

استخدمت الرواية العراقية الفقر كخلفية دائمة للشخصيات التي تمثل الشرائح المهمشة من المجتمع والتي تعاني من قسوة الواقع والحرمان من الحقوق مما خلق سرديات متشعبة تتناول مشاعر العجز واليأس والمقاومة في آن واحد وفي مقابل ذلك برزت طبقة النخبة والطبقة الوسطى كحضور بارز في النصوص الروائية لا بوصفها مجرد فئات اجتماعية بل كممثلين لمواقف سياسية وثقافية متباينة تعكس تعقيدات الصراع الطبقي في العراق.

كشفت الروايات كيف أن الفوارق الاقتصادية لم تكن مجرد أرقام جامدة، بل كانت عنصرًا أساسيًا في البنية الاجتماعية. كما سلطت الرواية الضوء على الانقسامات التي تحدث بين الطبقات، حيث أبرز النص الروائي حالة الاغتراب التي تعانيها الفئات المهمشة داخل مجتمعاتها، وفي الوقت نفسه يفضح الترف والانعزال الذي تعيشه الطبقات العليا، ما يُجسد واقعًا من التناقضات الاجتماعية الحادة.

يسعى هذا القسم إلى استكشاف كيف جسدت الرواية العراقية الطبقية الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي من خلال شخصياتها وأحداثها، مع تحليل الأدوار التي تلعبها الطبقات المختلفة في بناء السرد الروائي، وكيفية تعبيرها عن الأزمات والآمال التي تصاحب هذا الواقع الطبقي المتغير.

أ. انعكاس الصراع الطبقي والفقر في الرواية العراقية

يشكل الصراع الطبقي أحد الملامح الرئيسة في بنية المجتمع العراقي، وقد التقطته الرواية العراقية بوعي فني وواقعي، فعبّرت عن التفاوت الاقتصادي والتهميش الاجتماعي بمستويات سردية متعددة توزعت بين الواقعية المباشرة والتأمل الرمزي، فالرواية لم تكن مجرد انعكاس للمظاهر الخارجية للفقر والطبقية، بل كانت حقلًا خصبًا لتحليل أسباب هذا التفاوت البنيوي، والكشف عن آثاره النفسية والثقافية على الفرد والجماعة.

في كثير من الأعمال الروائية العراقية، يُصوَّر الفقر كقوة قاهرة، تشكل بيئة حياة الشخصيات وتتحكم بمصائرها حيث تبدو الشخصيات محاصرة بضيق العيش وانعدام الفرص وانسداد الأفق مما يولد مشاعر الإحباط واليأس أو في أحيان أخرى الغضب والتمرد. وغالبًا ما تتقاطع هذه التصورات مع أوضاع سياسية مضطربة وحكومات غير قادرة على تقديم عدالة اقتصادية واجتماعية، فتظهر الرواية وكأنها ساحة للمساءلة والمقاومة الرمزية لهذا الواقع المجحف. ويذهب بعض النقاد إلى أن "الرواية العراقية استخدمت الفقر كأداة سردية لكشف عمق الشرخ الطبقي ولفضح السياسات التي أنتجت هذا التفاوت وهو ما جعل النص الروائي وثيقة اجتماعية بامتياز"[144].

[144] شيماء العاني، التفاوت الطبقي في الرواية العراقية بعد 2003، مجلة الفكر الجديد، العدد 17، 2021، ص 44

واللافت أن هذه المعالجة لا تقف عند عرض الفقر كمعاناة مادية فقط بل تتجاوزه إلى فضاء المعاناة النفسية والعاطفية حيث تنعكس أزمة الكرامة والإحساس بالنقص وتآكل القيم داخل الأحياء المهمشة وكلها مكونات يعاد إنتاجها سرديًا في شخصيات مقهورة وعلاقات اجتماعية مضطربة.

ب. حضور النخبة والطبقة الوسطى والمهمشين في السرد

حضرت الطبقة النخبوية في الرواية العراقية غالبًا باعتبارها جزءًا من البنية السياسية والثقافية المتحكمة وصورت أحيانًا كمصدر للسلطة وأحيانًا أخرى كطبقة معزولة عن واقع المجتمع الحقيقي فاقدة للشرعية الأخلاقية خاصة في سياق فترات الحرب والفساد. وفي المقابل، مثلت الطبقة الوسطى في كثير من الروايات مرآةً لتقلبات المجتمع العراقي فهي الطبقة التي انبثقت منها حركة التنوير والتعليم لكنها أيضًا الطبقة التي عانت من التدهور والانهيار الاقتصادي خاصة بعد الحصار الاقتصادي في التسعينيات وما أعقبه من اضطرابات بعد الغزو الأمريكي.

الطبقات المهمشة كالعمال والفقراء والنازحين وسكان الأحياء العشوائية أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من المتن السردي للرواية الحديثة لا بوصفهم حالات فردية منعزلة بل كصوت جماعي يتحدث عن العجز والتهميش والخذلان وقد نجحت الرواية العراقية في كثير من الأحيان في تقديم هذه الشخصيات ليس كضحايا فقط، بل ككائنات تمتلك وعيًا وإنسانية حتى لو كانت محطمة اجتماعيًا، مما يضيف للنص عمقًا إنسانيًا وأخلاقيًا في مقاربة الطبقات الضعيفة.

يؤكد بعض الباحثين أن "تحوّل الرواية العراقية إلى سرد المهمّشين لم يكن خيارًا فنيًا فقط بل جاء كضرورة ثقافية لتوسيع نطاق الوعي الاجتماعي، والتأكيد على أن قاع المجتمع يحمل أيضًا

حقيقته ومأساته وصوته"[145]. هذه الرؤية تؤكد الدور التوثيقي والفني للرواية، بوصفها منبرًا تعبيريًا متجاوزًا للطبقات المسيطرة ثقافيًا وسياسيًا.

3. المدينة والريف: جدلية التمدن والتحول الاجتماعي

يشكّل الانتقال من الريف إلى المدينة في المجتمع العراقي ظاهرة غنية بالأبعاد الاجتماعية والثقافية وقد تناولها الأدب الروائي بعمق من خلال سرديات تكشف التحولات الكبيرة في أسلوب الحياة والهوية الاجتماعية، فالريف في الرواية العراقية غالبًا ما يُصوَّر كمكان للأصالة والارتباط بالجذور والتقاليد حيث تستقر القيم المجتمعية في إطار متماسك يحافظ على نظام اجتماعي محدد، أما المدينة فتجسّد وجه التمدن والتطور لكنها في الوقت ذاته تمثل بيئة معقدة تشهد تحولات مستمرة في البنية الاجتماعية والقيم وتفرض تحديات جديدة على الفرد خاصة فيما يتعلق بالانتماء والهوية.

إن التحول من حياة ريفية تقليدية إلى بيئة حضرية حديثة لا يُعرض فقط كظاهرة مكانية بل هو في جوهره عملية اجتماعية وثقافية تؤدي إلى إعادة تشكيل البنى الاجتماعية والقيمية، مما يولّد صراعات وجدلية مستمرة داخل المجتمع وقد تناول الروائيون العراقيون هذه الجدلية من خلال إبراز التوترات بين المحافظة والتحديث بين التقاليد المتجذرة في الريف والانفتاح والتغير الذي يصاحب الحياة في المدينة وهو ما ينعكس في حياة الشخصيات وتفاعلها مع محيطها الاجتماعي.

بالإضافة إلى ذلك، تستعرض الروايات كيف تؤدي هذه التحولات إلى إحداث انقسامات ثقافية وقيمية عميقة بين أبناء الريف والمدينة مما يؤدي إلى خلق فجوات في الفهم والتواصل بين الأجيال والمجتمعات المختلفة ويرى بعض الباحثين أن "الصراع بين الريف والمدينة في

[145] عبد الرزاق كاظم، سرد المهمّش في الرواية العراقية، دار الرافدين، بيروت، 2020، ص 79

الرواية العراقية يشكل إطارًا سرديًا يعكس الصراعات الداخلية التي يعيشها المجتمع العراقي في خضم التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية"[146].

أتاحت الرواية العراقية نافذة لفهم التحولات الاجتماعية التي رافقت التمدن، وكيف أثرت على تصور الفرد لهويته ومكانه في المجتمع، مقدمةً بذلك رؤية نقدية ثرية تسهم في توثيق الواقع العراقي المعاصر.

أ. التحول من الحياة الريفية إلى الحضرية

شكّل الانتقال من الريف إلى المدينة في الرواية العراقية تحولًا عميقًا لم يقتصر على المكان بل طال الجوانب النفسية والاجتماعية للشخصيات وغالبًا ما يرتبط الريف في هذه الأعمال بصورة لحياة هادئة ومستقرة تقوم على علاقات القرابة والتقاليد، بينما ترمز المدينة إلى التغيير والتعقيد والانفتاح على مستويات مختلفة، منها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وفي كثير من الروايات يُقدَّم هذا التحول كصدمة حضارية يمر بها الفرد العراقي حيث يجد نفسه ينتقل من عالم مألوف ومنظم إلى بيئة حضرية سريعة الإيقاع ما يؤدي إلى شعور بالقلق والاغتراب. إن التحول من الحياة الريفية إلى الحضرية لا يُقدَّم في النصوص الروائية كحدث جغرافي فقط بل بوصفه مسارًا متشعبًا تتداخل فيه عناصر الحداثة والاغتراب الطموح والانكسار الانفتاح والانهيار القيمي. فالمدينة رغم كونها رمزًا للفرص والتنمية تمثّل أيضًا بيئة ضاغطة لا تتيح للفرد دائمًا تحقيق ذاته بل قد تزيد من غربته وتشظّيه النفسي خاصة لأولئك الذين يحملون معهم إرثًا قرويًا لا ينسجم بالضرورة مع القيم الحضرية الحديثة. ويؤكد بعض

[146] سلمان عبد الرحيم، التحولات الثقافية والاجتماعية في الرواية العراقية الحديثة، مجلة الدراسات العراقية، العدد 25، 2022، ص 56".

النقاد أن "الرواية العراقية استخدمت المدينة بوصفها أداة سردية ترمز للتحوّل القسري والمواجهة بين الماضي الريفي البسيط والحاضر المدني المعقد"[147].

وتتناول كثير من الروايات هذا التحول من خلال شخصيات تنتمي إلى القرى أو الأرياف وتنتقل إلى مدن كبرى مثل بغداد أو البصرة، حيث تصطدم بتحديات الاندماج الثقافي وتواجه أشكالًا من التهميش الطبقي أو الاستغلال الاقتصادي وهذا التصوير يعكس التوتر القائم بين الماضي الريفي والحاضر الحضري، ويُبرز قسوة التغيرات التي طالت المجتمع العراقي.

ب. الانقسام الثقافي والقيمي بين الريف والمدينة

برزت في الرواية العراقية المعاصرة ثنائية الريف والمدينة كإحدى الثنائيات المحورية التي تسهم في تشكيل الصراع الداخلي والخارجي في المتن السردي، إذ غالبًا ما يعبّر الريف عن قيم الأصالة والكرامة والارتباط بالأرض بينما تُمثّل المدينة نموذجًا للتمدن المشوب بالتفكك الأخلاقي والانفلات الاجتماعي وهذا التوتر الثقافي لا يتم تقديمه دائمًا من خلال خطاب مباشر، بل عبر الرموز والسرد النفسي وتقنيات الزمن المتداخل مما يمنح الرواية عمقًا فنيًا إضافيًا.

ويُلاحَظ في بعض الأعمال الروائية أن الريف يُستحضَر بوصفه فضاءً مفقودًا، يعكس الحنين إلى البساطة والنقاء في حين تُنتقَد المدينة باعتبارها موطنًا للعزلة والازدواجية وضياع الهوية. وفي الوقت ذاته ظهرت نصوص أخرى تُعيد الاعتبار للمدينة كمجال للتعددية، والتفكير النقدي، والانفتاح على الآخر مما يعكس تطورًا في رؤية الكتّاب لأبعاد هذا الانقسام وتحولهم من ثنائية تبجيل الريف وانتقاد المدينة إلى قراءة أكثر موضوعية وتعقيدًا.

لقد مكّن هذا الانقسام الثقافي بين الريف والمدينة الرواية العراقية من إنتاج نص أدبي قائم على التوتر الدلالي والمعرفي، يحمل في طياته تحليلًا عميقًا لتحولات المجتمع، خاصة في ظل

[147] حيدر الزبيدي، تحولات المكان في الرواية العراقية المعاصرة، دار الأمل للنشر، بغداد، 2020، ص 91.

التحولات الاقتصادية والنزوح الريفي والتغيرات السياسية الكبرى التي أثرت في بنية المكان والهوية. وفي هذا الإطار يرى بعض الباحثين أن "ثنائية الريف والمدينة أصبحت حقلًا سوسيولوجيًا داخل النص الروائي العراقي، يُظهر تصادم القيم وتعدد المرجعيات الثقافية بين التقليدي والحديث"[148].

4. العلاقات الاجتماعية والصراع بين الأجيال

شكلت العلاقة بين الأجيال المختلفة داخل الأسرة والمجتمع أحد المحاور الرئيسية التي عكستها الرواية العراقية، خاصة في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية العميقة التي مر بها العراق خلال العقود الأخيرة. إذ ظهرت في النصوص الروائية حالة من التوتر والتباين بين جيل الآباء الذي غالبًا ما يمثل القيم والتقاليد الراسخة وجيل الأبناء الذي ينشد التغيير والتجديد ويتبنى رؤى وأفكارًا مختلفة عن تلك التي نشأ عليها آباؤه.

رصد الأدب الروائي هذه الصراعات عبر تصوير الاختلاف في وجهات النظر والأولويات وأنماط الحياة بين الأجيال مما يعكس عمق التحولات الاجتماعية التي يعايشها المجتمع العراقي. فتجسدت في الروايات معاناة الأفراد الذين يحاولون التوفيق بين الالتزام بالتقاليد ورغبتهم في الحرية الفردية ما يؤدي إلى تصادمات داخلية وعائلية توضح مدى تأثير السياق الاجتماعي والسياسي في إعادة تشكيل الهوية والقيم.

علاوة على ذلك استخدمت الرواية كأداة فعالة لعرض التحولات في العادات والتقاليد إذ تسلط الضوء على الصراعات التي تنشأ نتيجة محاولات الجيل الجديد إعادة تعريف ذاته وسط ضغط المجتمع التقليدي مما يجعل الصراع بين الأجيال ليس مجرد نزاع عائلي بل انعكاسًا للأزمات الاجتماعية الكبرى والتغيرات الثقافية التي تعصف بالمجتمع.

[148] إيمان الرماحي، المدينة والريف في السرد العراقي: دراسة في التمثلات الثقافية، مجلة الثقافة المعاصرة، العدد 18، 2021، ص 127.

ويشير بعض النقاد إلى أن "الصراع بين الأجيال في الرواية العراقية يتجاوز الاختلافات الفردية ليصبح صورة مصغرة للصراع بين الماضي والحاضر وبين الثبات والتغير وبين التقليد والحداثة، مما يجعل الرواية مساحة خصبة لفهم التحولات الاجتماعية العميقة التي يشهدها العراق"[149].

بهذا المعنى يعكس هذا الصراع التحديات التي تواجه المجتمع في محاولة التوازن بين إرثه الثقافي والتطورات المعاصرة، ويبرز الدور الهام للرواية كمرآة تعكس هذه التغيرات وتطرح أسئلة حول المستقبل.

أ. اختلاف الرؤى بين الآباء والأبناء

إن الصراع بين الأجيال هو أحد أبرز المحاور التي تناولتها الرواية العراقية وخاصة في الفترات التي شهد فيها المجتمع تغيرات اجتماعية وثقافية واقتصادية عميقة، فقد أدى تتابع الأزمات والحروب والتقلبات السياسية والانفتاح التكنولوجي والثقافي إلى خلق فجوة واسعة بين جيل الآباء الذين تشبثوا بالقيم التقليدية والأنماط السلوكية المحافظة وجيل الأبناء الذين نشأوا في ظروف متغيرة تبحث عن حرية الفكر والانعتاق من قيود الماضي وتتبنى رؤى أكثر انفتاحًا تجاه الذات والمجتمع.

غالبًا ما تمثّل الروايات العراقية هذه العلاقة المتوترة من خلال شخصيات الأب والابن أو الأم والابنة حيث تتجسد الهوة بين الجيلين في مواقف يومية وصراعات فكرية وتصورات متباينة عن المستقبل وعن معنى الهوية والانتماء، ففي حين يحرص الآباء في كثير من النصوص على حماية الإرث الثقافي والديني والعائلي يُعبّر الأبناء عن ضجرهم من هذا الإرث ويرون فيه قيدًا يكبّل حريتهم في بناء ذواتهم المستقلة.

[149] نوران الخالدي، الصراع بين الأجيال في الأدب العراقي: دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2020، ص 88".

ويشير بعض الباحثين إلى أن "الرواية العراقية استطاعت أن ترصد هذا الصراع بأدوات فنية دقيقة، تجمع بين السرد الواقعي والتأمل الفلسفي وتُظهر أن اختلاف الرؤى بين الأجيال ليس مجرد خلاف فردي بل هو نتيجة طبيعية لتحول بنية المجتمع من مجتمع تقليدي مغلق إلى مجتمع متعدد المرجعيات والقيم"[150]. هذا التحول، كما عبرت عنه الرواية لا يُعالج دائمًا بالمواجهة المباشرة، بل كثيرًا ما يتخذ شكل المسافة الصامتة أو الانسحاب أو الغربة العاطفية التي تضعف الروابط داخل الأسرة وتكشف عن أزمة تواصل متفاقمة.

5. الرواية كأداة لعرض التحولات في القيم والعادات

الصراع بين الأجيال في الرواية لم يُعرض كموضوع منفصل، بل وظّف كمدخل لكشف التحولات العميقة في القيم والعادات داخل المجتمع العراقي، فالقيم التي كانت تمثل قاعدة للتماسك مثل الطاعة والتكافل والانتماء، بدأت تضعف تحت تأثير العولمة والانهيارات السياسية والحروب وما تبعها من تغيرات اقتصادية وثقافية.

كشفت الروايات العراقية هذا التبدّل عبر مفارقات سردية تجمع بين مشاهد من الماضي والحاضر وتسلط الضوء على تصادم المرجعيات الثقافية والاجتماعية مما يعكس حالة التوتر التي يعيشها الفرد بين تقاليد ترسخت في الذاكرة وتحولات فرضها الواقع الجديد ومرجعية الآباء المرتكزة على الهوية الجمعية والدين والسلطة الأبوية ومرجعية الأبناء التي تتجه نحو الفردانية والحرية وإعادة تعريف الذات. ومن خلال هذه المفارقات تتمكن الرواية من تقديم نقد اجتماعي عميق يكشف ليس فقط عن فشل جيل في فهم الآخر بل أيضًا عن فقدان مرجعية موحدة قادرة على جمع أفراد المجتمع تحت قيم مشتركة.

[150] هدى سلمان، تجليات الصراع بين الأجيال في الرواية العراقية الحديثة، مجلة الآداب، العدد 44، 2019، ص 102.

أصبحت الرواية وسيلة لفهم أزمة القيم الحديثة عبر بناء شخصيات تعيش التمزق بين ما هو موروث وما هو مكتسب وبين ما هو مقدس في أعين الجيل الأكبر وما هو عبء في نظر الجيل الأصغر. ويؤكد بعض النقاد أن "الرواية العراقية ما بعد 2003م، وعلى وجه الخصوص مارست نوعًا من التحليل الأنثروبولوجي للقيم فرصدت كيف تآكلت العادات وأعادت بناء صورة المجتمع ككائن متغير لا ثابت"[151].

وهكذا نرى أن الرواية ليست مجرد مرآة للمجتمع بل هي صوت تحليل وتفكيك وأداة لإعادة بناء الوعي الجمعي في ظل صراع الأجيال الذي بات يشكل ملمحًا ثابتًا من ملامح الحياة الاجتماعية العراقية المعاصرة.

[151] علي نجم، تحولات القيم الاجتماعية في الرواية العراقية بعد الغزو الأمريكي، دار الأفق، بغداد، 2021، ص 76.

الفصل الثاني

المكان والهوية في الروايات العراقية

المكان في الرواية العراقية أكثر من مجرد خلفية جغرافية تدور فيها الأحداث، إذ يتحول إلى أداة سردية ذات دلالات رمزية عميقة تساهم في بناء السرد وتشكيل الهوية الفردية والجماعية على حد سواء. في هذا السياق أصبح المكان مرآةً تعكس التحولات النفسية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع العراقي حيث تستقر فيه ذاكرة الحروب والشتات والدمار إضافة إلى الحنين الدائم إلى الأرض والذاكرة الأصلية.

اتخذت الروايات العراقية المدينة وخاصة بغداد مكانة مركزية تجمع بين الحداثة والدمار حيث عكس هذا الفضاء المتناقض تاريخًا معقدًا من التقدم والتدهور وعبر عن الصراعات القائمة بين الانتماء والاغتراب وبين الاحتفاظ بالذاكرة الجماعية وبين محاولات إعادة تعريف الهوية في ظل التشظي والشتات. يتناول هذا الفصل كيف استخدمت الرواية المكان كأداة رمزية لتوثيق هذا الواقع المركب، مع التركيز على العلاقة الجدلية بين المكان والهوية في ظل ظروف الحروب والتغيرات الاجتماعية.

يناقش الفصل موضوع الهوية الوطنية التي تعرضت لأزمات حادة بعد الحروب والنزوح، وكيف تحولت تجربة المنفى والشتات إلى موضوع محوري في الرواية العراقية حيث تقدم الكتابة من موقع الاغتراب رؤية خاصة عن الانتماء والهوية المتغيرة. كما يستعرض الفصل التفاعل العاطفي والوجودي مع المكان المفقود، إذ تغلغلت ذاكرة المكان في النصوص الروائية كعامل مؤثر في صياغة سرديات الحنين والاغتراب.

تسعى هذه الدراسة إلى فهم الدور المركزي الذي لعبه المكان في بناء السرد الروائي، وكيف تترابط الأبعاد الرمزية للمكان مع تعقيدات الهوية والانتماء، مما يجعل الرواية العراقية منصة حيوية للتعبير عن تجربة المجتمع العراقي وتوثيق مآسيه وتحولات هويته.

"أشار الباحث حسن الجاف إلى أن المكان في الرواية العراقية ليس فقط فضاءً مكانيًا بل هو حامل لذاكرة جماعية وأداة لتشكيل الهوية، خاصة في ظل تجارب الاغتراب والشتات التي عاشها العراقيون خلال العقود الماضية"[152].

1. المكان كأداة سردية وبناء رمزي

شكّل المكان في الرواية العراقية أكثر من مجرد خلفية للأحداث، بل تحوّل إلى عنصر رمزي ساهم بعمق في بناء السرد وتكوين هوية الشخصيات معبّرًا عن التحولات النفسية والاجتماعية التي يعيشها الإنسان العراقي. عبر المكان تمكن الكاتب من التعبير عن الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي الذي يعيشه المجتمع إذ تحول إلى مرآة تعكس التحولات المجتمعية، والتجارب الإنسانية، والصراعات الداخلية.

حظي المكان بخصوصية استثنائية في الروايات العراقية بسبب تاريخ العراق المليء بالتقلبات والحروب التي تركت آثارًا واضحة على المدن والأرياف، وعلى حياة الناس ومشاعرهم. استخدمت الأمكنة في النصوص كرموز تحمل معانٍ متعددة، تجاوزت وظيفتها الجغرافية لتصبح فضاءً سرديًا يرمز إلى الهوية، والانتماء، والحنين، وأحيانًا إلى التشظي والاغتراب.

عرض الكاتب الأماكن كمساحات حيوية تتفاعل معها الشخصيات بعمق حيث بني هذا التفاعل ضمن نسيج سردي كشف الأبعاد النفسية والاجتماعية. وبهذا لم يبقى المكان مجرد إطار جامد، بل تحوّل إلى عنصر حي يشارك في تشكيل الحدث والتأثير فيه.

---

[152] حسن الجاف، الذاكرة والمكان في الرواية العراقية: دراسة تحليلية، دار الفرات للنشر، بغداد، 2018، ص 45

ويمكن القول إن "المكان في الرواية العراقية مثل أداة سردية ذات وظيفة رمزية ساعدت على إبراز القضايا الجوهرية التي واجهت المجتمع وقدمت رؤى نقدية عميقة للتجربة الإنسانية في ظل الظروف المتغيرة"[153].

أ. الوظيفة الرمزية للمكان في تشكيل السرد

احتل المكان في الرواية العراقية مكانة جوهرية لم تقتصر على كونه موقعًا جغرافيًا أو خلفية سردية فحسب بل اتخذ أبعادًا رمزية تحاكي الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي عايشه المجتمع. اتضح هذا الاستخدام العميق للمكان في كيفيّة توظيفه من قبل الروائيين ليصبح جزءًا لا يتجزأ من بناء السرد، حيث وظّف المكان ليتحول إلى رمز يحمل دلالات عدة، مثل الانتماء والتاريخ والذاكرة الجماعية وكذلك الصراع والتهجير.

تحول المكان في الرواية العراقية إلى مرآة عكست مآسي الحروب والدمار والتغيرات المستمرة، فلم يمكن فصله عن السياق المأساوي الذي عاشته البلاد، فالأمكنة المدمّرة تنطق بالصمت، شاهدة على الفقد والمعاناة، بينما تستحضر الأماكن القديمة والريفية مشاعر الحنين والاستقرار. وهكذا، غدا المكان صوتًا خفيًا يحكي عن الغياب والألم، وعبّر في الوقت ذاته عن توق الإنسان العراقي إلى الكرامة واستعادة الهوية.

عزز هذا التوظيف الرمزي للمكان من تجربة القارئ حيث لم يقتصر على متابعة الأحداث فحسب بل شارك في فهم أعمق للرسائل التي يحملها النص. كما يشير الباحثون إلى أن "المكان في الرواية العراقية عمل كرمز متداخل الأبعاد يعكس النزاعات بين الفرد والمجتمع وبين الحاضر والماضي وهو أداة مهمة لتعميق المعاني داخل النص السردي"[154].

---

[153] علي العزاوي، المكان والرمزية في الرواية العراقية، دار الفكر المعاصر، بغداد، 2018، ص 23.

[154] سعيد الجبوري، الوظيفة الرمزية للمكان في الرواية العراقية المعاصرة، مجلة الدراسات الأدبية، بغداد، 2020، ص 134

2. الأمكنة كمرآة للهوية والتحولات النفسية

عكست الأمكنة في الرواية العراقية إلى جانب رمزيتها تحولات الهوية النفسية والاجتماعية للشخصيات إذ ارتبطت بعمق بالحالة الذهنية والانفعالية للأفراد. ومن خلال هذا الترابط تحولت دلالات المكان إلى مرآة للصراعات الداخلية التي تواجهها الشخصيات ما منح السرد بعدًا نفسيًا وإنسانيًا مؤثرًا.

وظفت الرواية الأمكنة لتجسيد حالة التمزق بين الانتماء والاغتراب خاصة في ظل الحروب والشتات التي أدت إلى تهجير واسع النطاق، مما جعل من تجربة المكان تجربة مؤلمة متشابكة مع الذاكرة الفردية والجماعية فالأماكن المهجورة أو المدمرة تمثل حالة الانكسار النفسي، في حين تمثل الأمكنة التي تعكس ذكريات الطفولة أو الفترات المستقرة حالة من الحنين والرغبة في استعادة الذات والهوية.

تحولت الأمكنة في الرواية إلى مواقع للصراع النفسي بين الثبات والتغير حيث يظهر هذا الصراع في وصف الرحلات من الريف إلى المدينة أو من الوطن إلى المنفى وهذا التنقل المكاني رافقه نزاع داخلي حول الهوية، ويطرح تساؤلات حول معنى الانتماء في ظل ظروف التغيرات السياسية والاجتماعية العنيفة.

وقد أكد الباحث محمد الكيلاني على هذا الجانب قائلاً؛ "إن الأمكنة في الرواية العراقية ليست فقط فضاءات مكانية، بل هي محاور تعبير نفسي وروحي، تعكس رحلة الإنسان العراقي بين جذوره وهويته المتغيرة، في سياق الحروب والشتات التي أضرت بالترابط الاجتماعي والنفسي"[155].

[155] محمد الكيلاني، المكان والهوية في الرواية العراقية: أبعاد نفسية وروحية، دار الثقافة للنشر، بيروت، 2021، ص 102

3. المدينة في الرواية: بغداد كنموذج

المدينة في الرواية العراقية أكثر من مجرد فضاء جغرافي؛ فهي تعبير حيّ عن التغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يمر بها المجتمع. وعلى رأس هذه المدن تأتي بغداد التي تمثل قلب العراق النابض ومركزًا تاريخيًا وحضاريًا فتحولت إلى رمز في الأدب العراقي يحمل أبعادًا متعددة من الحداثة والتاريخ، والدمار والبعث.

لعبت بغداد دورًا مركزيًا في تشكيل البنية السردية حيث لم تقتصر على كونها موقعًا للأحداث فحسب بل أصبحت شخصية فاعلة أثرت في مسارات القصص وشخصياتها. عكست من خلال وصف المدينة تطورات المجتمع العراقي التوترات بين الأصالة والحداثة بين الماضي العريق والحاضر المضطرب. وبسبب الحروب المتكررة والاحتلالات، أصبحت بغداد في النصوص الروائية مساحة تتداخل فيها مظاهر الحياة اليومية مع آثار الدمار والخراب، مما خلق سردًا متشابكًا يعكس الواقع المركب.

كشفت الرواية عن تحوّل بغداد إلى حاضنة للذاكرة حيث تختزن شوارعها وأزقتها ومبانيها حكايات الفقد والحنين جنبًا إلى جنب مع مشاهد المقاومة والصمود. وتُسلّط النصوص الروائية الضوء على آثار الحروب في تشكيل ملامح المدينة وعلى الذاكرة الجمعية لسكانها، لتتحوّل المدينة إلى شاهد حي على التحولات الاجتماعية والسياسية التي عصفت بها.

كما يؤكد الباحث جاسم العبودي أن "بغداد في الرواية العراقية ليست مجرد مكان جغرافي، بل فضاء سردي رمزي يعكس صراع الهوية والتاريخ والحداثة في قلب المجتمع العراقي"[156].

[156] جاسم العبودي، بغداد في الأدب العراقي: المدينة كرمز سردي، دار الفرات، بغداد، 2019، ص 45

4. المدينة كفضاء للحداثة والدمار

بغداد في الرواية العراقية أكثر من مجرد مكان جغرافي فهي فضاء حيوي يعبّر عن تناقضات متعددة الأوجه بين الحداثة والتقاليد، بين التقدم والدمار وبين الأمل واليأس. إذ أخذت المدينة في النصوص الروائية دورًا مركزيًا يعكس صراعات المجتمع العراقي وتناقضاته، حيث تظهر بغداد كمدينة تشهد تغيرات دائمة بداية من تطورها العمراني والثقافي وصولًا إلى التدهور الذي خلفته الحروب.

مثلت بغداد في الرواية فضاءً يعكس التجربة العراقية المعاصرة بكل ما فيها من تناقضات، فهي من جهة مركز للحداثة يتسم بالحركة والنشاط الثقافي والاجتماعي، ومن جهة أخرى مسرح للدمار والخراب الناتج عن النزاعات المسلحة والحصار، مما حوّلها إلى مشهد متقلب يتنقل بين البناء والهدم بين الحياة والموت. هذا التناقض جعل من المدينة رمزًا للوطن العراقي بأكمله حيث تتشابك مظاهر الازدهار والدمار في آنٍ واحد، وتصبح المدينة شخصيّة سردية تتمتع بحضور قوي، يحدد معالم الأحداث ويؤثر في تشكيل حياة الأفراد.

أظهرت الروايات كيف أن الحداثة في بغداد ليست مجرد تطور مادي، بل تحمل أبعادًا اجتماعية وثقافية، تعكس آمال ورغبات سكان المدينة في مستقبل أفضل، لكنها في الوقت نفسه تواجه واقعًا مريرًا متمثلًا في الحروب المتكررة والعنف الذي يؤثر على النسيج الاجتماعي والنفسي للمدينة وسكانها.

5. تأثير الحرب على البنية المكانية والذاكرة المدينية

تجاوز أثر الحروب حدود الدمار المادي الذي لحق بأبنية بغداد ومرافقها ليمتد إلى عمق الذاكرة الجماعية والنسيج الاجتماعي للمدينة. وكشفت الرواية العراقية هذا الأثر من خلال

تصوير الأحياء التي تهدمت، والأماكن التي فقدت رموزها الثقافية والتاريخية، إلى جانب انهيار المؤسسات التي كانت تشكّل نبض الحياة اليومية لسكانها.

جسدت الرواية الصراع القائم بين استعادة المدينة كبنية مادية وبين استعادة ذاكرة المدينة ككيان ثقافي وروحي حيث تجلى الحنين إلى بغداد القديمة التي تمثل مركزًا للهوية الوطنية مع التحديات التي تفرضها الذكريات المؤلمة والدمار المستمر. وبذلك تحولت المدينة إلى مساحة متنافرة بين الحضور والغياب بين الذكرى والنسيان حيث يعيش سكانها في حالة اغتراب داخلي ناجم عن فقدان روابطهم مع المكان.

هذا التمزق المكاني انعكس أيضًا على الهوية الشخصية والجماعية، إذ أصبحت المدينة رمزًا للحياة المتغيرة، وللتحولات النفسية والاجتماعية التي يعايشها السكان. فعلى سبيل المثال، تعرض العديد من سكان بغداد لشعور بالاغتراب وعدم الانتماء، وهو ما عكسه الكتاب الروائيون من خلال الشخصيات التي تعيش صراعًا داخليًا بين البقاء في المكان أو الهجرة والبحث عن ملاذات أخرى.

وقد أكد الباحث علي العزاوي أن "ذاكرة المدينة في الرواية العراقية ليست مجرد تسجيل للأحداث التاريخية بل هي مسرح للصراعات النفسية والاجتماعية حيث تتداخل تجارب الحرب مع الحياة اليومية، لتشكل رواية متشابكة تعكس المآسي والتحديات التي تواجه سكان بغداد"[157].

[157] علي العزاوي، الذاكرة والمدينة في الرواية العراقية، دار الكتب الحديثة، بغداد، 2019، ص 77".

كما تشير الدراسات إلى أن "التحولات المكانية في بغداد على خلفية الحروب لا تؤثر فقط في البنية العمرانية، بل تُحدث تأثيرات نفسية عميقة على الأفراد، مما يجعل المدينة مرآة لتجربة الاغتراب الداخلي والمعاناة الاجتماعية"[158].

عكست الرواية العراقية صورة بغداد كذاكرة نابضة لم تقتصر على توثيق الأحداث، بل جسدت صراعات نفسية واجتماعية ناتجة عن الحروب. وبيّنت كيف تؤثر التحولات المكانية في المدينة على الحالة النفسية للأفراد، لتغدو المدينة مرآةً للاغتراب والمعاناة.

6. الهوية والانتماء في ظل الشتات والتشظي

عكس الرواية العراقية في فترة ما بعد الحروب حالة معقدة من التشظي والشتات التي أثرت بشكل كبير على مفهوم الهوية والانتماء لدى الأفراد والمجتمع على حد سواء فالتهجير القسري والنزوح الداخلي والخارجي أجبر الكثير من العراقيين على مغادرة أوطانهم مما أدى إلى أزمة هوية حادة يعيشها المهاجرون في المنافي المختلفة، وبينما تتغير جغرافيا الانتماء تبقى ذاكرة الوطن حاضرة بقوة في الوجدان الإنساني.

تناولت الروايات هذه الأزمة من خلال تصوير الصراعات النفسية والاجتماعية التي واجهت الشخصيات وهي تحاول التوفيق بين جذورها التاريخية وهويتها الثقافية من جهة، ومتطلبات الاندماج في بيئات جديدة من جهة أخرى. ظهر الانتماء كمسألة معقدة ومتعددة الأبعاد، تتأرجح بين الحنين العميق إلى الوطن وبين التكيف مع واقع الشتات حيث تشابكت التجارب الفردية مع التجربة الجماعية لتشكيل سرد موحد يعبر عن وجع الهوية الممزقة.

أبرزت النصوص الأدبية كيف تحول الشتات إلى تجربة وجودية تشكل تحديًا للهوية الوطنية إذ لم تعد الهوية مرتبطة بمكان ثابت، بل أصبحت حالة مستمرة من البحث عن الذات

[158] هدى جاسم، الأبعاد النفسية للتحولات المكانية في الأدب العراقي، مجلة الدراسات الثقافية، العدد 12، 2021، ص 43".

والانتماء في عالم متغير ومتقلب وهذا ما يجعل من الرواية مساحة حيوية للتأمل في معاني الهوية والتساؤل حول مصير الانتماء في ظل التشظي الجغرافي والسياسي.

كما أشار الباحث فؤاد العطار إلى أن "الرواية العراقية في زمن الشتات تقدم رؤية نقدية حول أزمة الهوية، حيث تتحول الكتابة إلى فعل مقاومة للتيه والضياع وتجسد الصراع بين الانتماء الوطني والاغتراب الثقافي"[159].

7. أزمة الهوية الوطنية بعد الحرب

شكلت الحروب المتتالية التي مر بها العراق بدءًا من حرب الخليج الأولى مرورًا بغزو عام 2003م وما تلاه من نزاعات داخلية نقطة تحول جوهرية في مفهوم الهوية الوطنية لدى العراقيين. فقد تسببت هذه الحروب في انهيار البنية الاجتماعية والسياسية مما أدى إلى تشظي المجتمع وتفككه على المستويات العرقية والطائفية والثقافية. لم تعد الهوية الوطنية كيانًا موحدًا ومستقرًا بل أصبحت تتعرض لتوترات وصراعات داخلية أدت إلى حالة من الضياع والاغتراب حتى داخل الوطن نفسه.

عكست الرواية العراقية هذه الأزمة من خلال شخصيات تعاني صراعًا داخليًا بين رغبتها في الحفاظ على الهوية الوطنية وبين شعورها بالاغتراب نتيجة الانقسامات المجتمعية ففي النصوص أبرز الصراع بين مكونات المجتمع المتنوعة حالة الانفصال النفسي والاجتماعي التي يعاني منها الأفراد ما يجعلهم في مواجهة مستمرة مع واقع متغير ومليء بالاضطرابات. عكس هذا التمزق الحاصل في الهوية الوطنية نوعًا من التجزئة في البنية الذاتية للأفراد، حيث تتصارع قوى الانتماء مع عوامل التهجير والاقتلاع.

[159] فؤاد العطار، الهوية والانتماء في الرواية العراقية المعاصرة، مجلة الدراسات الثقافية، بيروت، 2021، ص 74

استخدمت الرواية كأداة لإعادة بناء الذاكرة الوطنية، ومحاولة توحيد الفُرَقاء عبر استحضار قيم مشتركة وذكريات تاريخية تجمع بين العراقيين. هذه العملية فتحت أمام القراء بابًا لفهم تعقيدات الهوية في مجتمع يعاني من تجارب عنف وتشظي مستمرة، مما جعل الرواية وسيلة للحوار الداخلي والخارجي بشأن معنى الانتماء والهوية.

8. الرواية والمنفى: الكتابة من موقع الاغتراب

شهد الأدب العراقي بعد الحروب تدفقًا واسعًا للأدباء والكتّاب إلى خارج العراق ما أدى إلى بروز ظاهرة الكتابة من موقع المنفى التي أصبحت مجالًا خصبًا للتعبير عن تجربة الشتات والاغتراب. مثلت هذه الكتابة محاولة لإعادة بناء الذات في ظل غربة جغرافية وثقافية حيث عبر الأدباء من خلالها عن معاناة الاغتراب وحالة الفقد والحنين إلى الوطن والبحث عن هوية جديدة وسط بيئات غير مألوفة.

تميزت الكتابة من موقع المنفى بعمقها النفسي والاجتماعي فهي عكست حالة التمزق والتشتت التي تصاحب حالة الشتات ولكنها في الوقت ذاته تحمل أملًا في التماسك واستعادة الهوية. تناولت النصوص الروائية قضايا التكيف الثقافي والصراع مع الهوية الممزقة والتمزق بين الانتماء للوطن الأم والرغبة في الاندماج في المجتمع الجديد وبذلك أصبحت الرواية منصة للتعبير عن مأساة الإنسان العراقي في الشتات ومجالًا لإعادة صياغة الهوية الوطنية من منظور جديد.

كما أن الكتابة من موقع الاغتراب تضيف بعدًا نقديًا على الحالة السياسية والاجتماعية التي أدت إلى التهجير القسري وتعمل على توثيق التجربة الإنسانية للمهجّرين، مما جعل من الرواية مرآة للمآسي الوطنية ومصدرًا لإحياء الذاكرة الجماعية والتأكيد على استمرار الانتماء حتى في ظل الشتات.

وقد أشار الباحث سامي عبد الله إلى أن "الكتابة من موقع الاغتراب تمثل جسرًا بين الماضي والحاضر، بين الوطن والمنفى، وهي محاولة لاستعادة الذات الممزقة وتحقيق هوية متجددة تنبثق من تجربة التشظي والشتات"[160]. في حين ترى الباحثة ليلى محمود أن "الرواية في المنفى لم تقتصر على سرد الحكاية الشخصية، بل أصبحت مساحة للاحتجاج السياسي والاجتماعي، حيث تتشابك معاناة الفرد مع قضايا الأمة"[161].

9. المكان بين الحنين والاغتراب

عكس المكان في الرواية العراقية بعد الحروب والشتات حالة مزدوجة تجمع بين الحضور والغياب وبين الذاكرة والواقع حيث يتلاقى الحنين إلى الوطن مع مرارة الاغتراب ولم يظهر المكان كخلفية محايدة للأحداث فحسب بل تبلور كعنصر أساسي اسهم في تشكيل الهوية والانتماء وعبّر عن التوتر القائم بين التشبث بالجذور والشعور بالفقد والابتعاد عن الوطن. عبرت الروايات عن ذاكرة المكان باعتبارها مخزونًا من الصور والمشاعر التي ترتبط بالهوية الجماعية والفردية خاصة في ظل تجارب التهجير والتشريد التي تركت أثرها العميق على النفوس. تحكت هذه النصوص عن الحنين إلى الأماكن التي فقدت بفعل الحروب أو بسبب النزوح القسري، حيث أصبح المكان رمزًا لما هو مفقود، ورابطًا بين الماضي والحاضر بين الوطن والغربة.

تجلى التفاعل العاطفي والوجودي مع المكان المفقود في تجارب الشخصيات التي تعيش الاغتراب الجغرافي والثقافي حيث يتحول الحنين إلى حالة نفسية تمزج الألم بالأمل وتجعل من الرواية فضاءً للتعبير عن صراعات الهوية والبحث عن الذات في ظل فقدان المكان الجسدي.

[160] سامي عبد الله، الكتابة من موقع الاغتراب: الشتات والهوية في الرواية العراقية، مجلة الدراسات الثقافية، بيروت، 2022، ص 59.

[161] ليلى محمود، الرواية العراقية في المهجر: سرديات الاغتراب والاحتجاج، دار الفكر العربي، بيروت، 2023، ص 112".

ظهر هذا التفاعل في تنقل الشخصيات بين الذكريات والأماكن الجديدة وفي صراعهم مع الانتماءات المتعددة التي فرضتها عليهم ظروف الشتات.

وقد أكدت الباحثة ندى حسين أن "ذاكرة المكان في الرواية العراقية مثلت رابطًا حيويًا بين الفرد وهويته، حيث شكل الحنين والاغتراب أبعادًا متشابكة تعكس الصراعات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها المهجرون"[162].

أ. ذاكرة المكان في الروايات العراقية

عكس المكان في الروايات العراقية المعاصرة الذاكرة الجماعية والتجارب الشخصية فلم يُعد مجرد خلفية للأحداث بل تحول إلى رمز للهوية والانتماء وجسدت الأحياء القديمة وبيوت الطفولة ملامح الحنين والفقد خاصة في ظل الحروب والشتات التي مر بها المجتمع العراقي ليصبح المكان شاهدًا صامتًا على التحولات العميقة التي عصفت بالوطن.

أبرزت الروايات كيف أن فقدان هذه الأماكن بفعل التدمير أو الهجرة القسرية شكل صدمة عميقة للسكان لأن الأماكن ليست فقط مواقع مادية بل روابط وجدانية تربط الإنسان بماضيه وهويته. إنه تكرار استدعاء هذه الأماكن في النصوص يُعد محاولة للحفاظ على الذاكرة الجماعية ولتأكيد وجود الهوية وسط محاولات محوها عبر العنف والشتات.

هذه الذاكرة ليست مجرد استذكار عابر بل هي فعل مقاومة حي ضد النسيان الثقافي والسياسي عبرت من خلالها الرواية عن صراع من أجل التمسك بالجذور والتاريخ رغم محاولات التهميش والإلغاء، فكما يشير الباحث محمد العاني فإن "ذاكرة المكان في الرواية

[162] ندى حسين، الحنين والاغتراب في الأدب العراقي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 2022، ص 56".

العراقية تعد نبضًا للوجدان الوطني، حيث تتداخل التجارب الشخصية مع الأحداث الوطنية لتخلق سردًا مضادًا يحاول مقاومة الطمس الثقافي"[163].

ب. التفاعل العاطفي والوجودي مع المكان المفقود

شكل المكان المفقود في الرواية العراقية أكثر من مجرد حيز مادي؛ إنه كيان روحي ونفسي له وقع عميق على هوية الفرد والمجتمع والشخصيات في الرواية تتعامل مع المكان المفقود بوجدان معقد، يتراوح بين الحنين الذي يبعث على الأمل والألم الذي يخلق شعورًا بالاغتراب العميق.

تحول الحنين إلى الوطن أو إلى أماكن الطفولة والماضي في سياق النزاعات والتهجير إلى حالة وجودية يعاني منها الأفراد حيث أصبح فقدان المكان معادلًا لفقدان الذات والهوية والروايات جسدت هذه الحالة من خلال تجارب أبطالها الذين يعيشون توترات داخلية بين رغبتهم في الاستقرار والحاجة إلى الانتماء وبين قسوة الواقع الذي يجعل المكان الذي كانوا ينتمون إليه ذكرى بعيدة ومفتقدة.

هذا التفاعل العاطفي مع المكان المفقود عكس أيضًا التوترات الاجتماعية والثقافية الناتجة عن النزوح والشتات حيث واجه المهجّرون صعوبة في التكيف مع البيئة الجديدة وشعروا بالغربة حتى داخل أوطانهم الجديدة. كما أبرز النص الروائي كيف أن المكان المفقود تحول إلى رمز للهوية الضائعة وحالة مستمرة من المقاومة للاغتراب الثقافي والسياسي.

توثق الباحثة ندى حسين هذا الأمر بقولها؛ "التفاعل الوجداني مع المكان المفقود يعكس صراعًا وجوديًا في الرواية العراقية، حيث يتحول الحنين إلى فعل مقاومة ثقافية للحفاظ على الهوية في مواجهة التهجير والإقصاء"[164].

---

[163] محمد العاني، ذاكرة المكان والهوية في الرواية العراقية، مجلة الدراسات العربية، بغداد، 2020، ص 91.

[164] ندى حسين، الحنين والاغتراب في الأدب العراقي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 2022، ص 56

الفصل الثالث

التحولات الثقافية في المجتمع العراقي كما عكستها الروايات

شكل الأدب وبالأخص الرواية مرآةً تعكس التحولات الثقافية العميقة التي شهدها المجتمع العراقي خلال العقود الأخيرة خاصة في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية التي تركت أثرًا بالغًا على بنية المجتمع وقيمه. تناولت الروايات العراقية قضايا متعددة ترتبط بالتقاليد الثقافية التي تحولت بفعل الحداثة وتصور الصراعات بين الأجيال المختلفة حول مفاهيم الهوية والانتماء. إذ لم تعد الثقافة مجرد تراث جامد بل أصبحت مجالًا للنقاش والنقد والتجديد.

لعبت الرواية دورًا محوريًا في تقديم صورة المثقف العراقي الذي يتحمل أعباء الدور السياسي والاجتماعي في زمن الأزمات حيث يتأرجح بين موقع السلطة وموقع المقاومة وبين الأمل والخذلان، مما يعكس أزمة أعمق في المجتمع نفسه. ويبرز في هذا السياق تحولات الوعي النسوي، حيث تتحول صورة المرأة في الرواية من رمز صامت ومهمش إلى شخصية فاعلة تعبر عن تطلعات جديدة وتعيد إنتاج الخطاب النسوي في أبعاد متعددة.

عكست الروايات العلاقة المعقدة بين الدين والتدين الشعبي وبيّنت كيف استخدم الخطاب الروائي الرموز الدينية لتناول قضايا السلوك المجتمعي، ما يعكس الصراعات الداخلية بين الموروث الديني والتغيرات الاجتماعية الحديثة. فالدين لا يمثل فقط بعدًا روحيًا، بل يُستثمر أيضًا كرمز ثقافي له دلالات متعددة في بنية السرد الروائي.

إن هذا الفصل يسلط الضوء على الدور الحساس الذي لعبته الرواية في توثيق وتحليل هذه التحولات، مما يجعلها أداة فاعلة لفهم الثقافة العراقية المعاصرة بكل تعقيداتها وتناقضاتها.

"تُعتبر الرواية العراقية منصة حيوية للنقاش الثقافي، حيث تقدم سرديات تعكس تحولات المجتمع وقيمه في مواجهة تحديات الحداثة والهوية"[165].

1. تمثيل القيم الثقافية التقليدية والتحولات الحديثة

رسمت الرواية العراقية، خاصة بعد سنوات طويلة من الاضطرابات السياسية والاجتماعية، ملامح التغير في منظومة القيم داخل المجتمع العراقي، من خلال تصوير التفاعل بين التقاليد الثقافية الراسخة وتحديات الحداثة. فقد شهد العراق منذ منتصف القرن العشرين وحتى اليوم، تحوّلات متسارعة ومتشابكة شملت مختلف جوانب الحياة من الأسرة والعلاقات الاجتماعية إلى الدين والسلطة والتعليم ودور المرأة. وبفعل هذه المتغيرات، باتت الرواية لا تكتفي بتوثيق الواقع، بل تمارس دورًا نقديًا يعيد مساءلة القيم السائدة ويكشف حدودها وتناقضاتها.

أبرزت الرواية في هذا السياق القيم الثقافية كعنصر حيّ يتأثر بالتحولات ويتعرض للضغط والتبدّل فلا تُصوَّر على أنها معطى جامد بل كقوة ديناميكية في مواجهة التغيرات. فنجد أن القيم التقليدية، مثل احترام الكبار وتقديس العائلة والمحافظة على الأعراف والخضوع للسلطة الأبوية والدينية تُعرض في السرد الروائي إما بوصفها ركيزة للاستقرار الاجتماعي أو كعائق يحدّ من تطور الفرد ويقمع حريته. ويتقاطع هذا مع صعود مفاهيم جديدة ترتبط بالتحرر والاستقلال والهوية الفردية، مما يخلق صراعًا سرديًا مشحونًا بالتوتر الرمزي والمعنوي.

إن قراءة الرواية العراقية بوصفها مرآة للقيم الاجتماعية والثقافية تكشف حجم التوتر الذي تعيشه الشخصية العراقية بين الوفاء للتقاليد والانجذاب نحو الحداثة. ففي العديد من

[165] سمير ناصر، الرواية والتحولات الثقافية في العراق، دار الشرق الأوسط، بغداد، 2021، ص 32

النصوص تصبح هذه التحولات محفزًا دراميًا داخل السرد وتتحول الشخصيات إلى ساحة مواجهة بين ماضٍ مهيمن ومستقبل غامض. وهذا ما يجعل من تحليل تمثيل القيم والتحولات الثقافية أمرًا محوريًا لفهم طبيعة التغير الاجتماعي في العراق الحديث ولتحديد موقع الرواية داخل هذا المشهد المتغير. وإذا كانت القيم التقليدية قد صمدت لعقود بفعل سلطتها الرمزية في المجتمع العراقي، فإن الرواية الحديثة عملت على تفكيك تلك السلطة، وكشف عمقها الداخلي واستكشاف وجوهها المتعددة؛ أحيانًا بالتعاطف معها، وأحيانًا أخرى بالمواجهة المباشرة. وهنا يظهر الدور النقدي العميق الذي تلعبه الرواية في إعادة تشكيل الوعي الجمعي وفي إنتاج خطاب ثقافي يعكس لحظة عراقية مثقلة بالموروث ومفتوحة على المجهول في آنٍ واحد.

2. من التقاليد إلى الحداثة: الرواية كوسيط نقدي

لعبت الرواية العراقية دورًا محوريًا في استعراض التوتر القائم بين القيم الثقافية التقليدية التي تشكلت عبر قرون من العادات والتقاليد، وبين التحولات الحديثة التي فرضتها التغيرات الاجتماعية والسياسية السريعة. إذ أبرزت النصوص الروائية كفضاءات نقدية تطرح أسئلة جوهرية حول طبيعة العلاقة بين الماضي والحاضر بين الثبات والتغيير وتسعى إلى إعادة تقييم القيم السائدة وموقعها في المجتمع المعاصر.

في العديد من الروايات يتم تصوير التقليد الثقافي ليس فقط كموروث يجب الحفاظ عليه بل كمجال يمكن أن يكون مصدرًا للجمود والصراعات، خاصة حين تتعارض هذه القيم مع متطلبات الحياة الحديثة والحرية الفردية. من خلال طرح شخصيات وتجارب متباينة، تُسلط الرواية الضوء على التحديات التي تواجه المجتمع العراقي في التوفيق بين تراثه الثقافي وهويته

المعاصرة، كما تعرض أبعاد هذا الصراع في الحياة اليومية، من قرارات شخصية إلى تحديات مجتمعية واسعة النطاق.

استخدمت الرواية كأداة نقدية لتفكيك البنى التقليدية التي تعيق التطور، وكمنصة للحوار بين الأجيال، حيث تعبر عن الانتقادات والآمال المتصلة بالتحولات التي تشهدها المجتمعات العربية عامة والعراقية خاصة في ظل العولمة والتحديث السريع. ومن خلال هذا النقد الأدبي، يظهر دور الأدب في فتح نقاشات عميقة حول مفهوم الحداثة في سياق ثقافي معقد ومتعدد الأبعاد.

3. صراع الأجيال حول الثقافة والهوية

شكل صراع الأجيال محورًا رئيسيًا في الرواية العراقية حيث يُجسد التوتر بين القيم القديمة التي يحملها الجيل الأكبر والقيم الجديدة التي يتمسك بها الشباب. هذا الصراع ليس مجرد خلافات سطحية، بل هو تجسيد لصراع أعمق حول الهوية الثقافية والانتماء حيث يحاول كل جيل تأكيد موقفه من التقاليد والتحديث.

تناولت الروايات الصراعات الأسرية والاجتماعية التي تنشأ بين الأجيال، مثل الخلافات حول أدوار المرأة، والتعليم، والحريات الشخصية، والتوجهات السياسية. وغالبًا ما أبرزت النصوص هذه الصراعات من منظور إنساني يعكس الصراع النفسي والاجتماعي للشخصيات، مما يمنح القارئ فهمًا عميقًا لتداعيات هذا التحول الثقافي.

ينتج عن هذا الصراع أحيانًا حالة من الانقسام المجتمعي، ولكن في الكثير من الأحيان، تفتح الرواية آفاقًا للتفاهم والتقارب بين الأجيال، من خلال إبراز نقاط التلاقي والاحترام المتبادل. وهكذا، يصبح الأدب وسيلة لإعادة التفكير في مفهوم الهوية الوطنية والثقافية، من خلال سرد قصص تحاكي الواقع وتدعو إلى الحوار.

وقد أشار الباحث سامي الكيلاني إلى أن "الرواية العراقية تشكل مساحة حيوية يعبر من خلالها المجتمع عن صراعاته الداخلية بين التمسك بالموروث الثقافي، والرغبة في التجديد، مما يجعلها شاهدة على التحولات العميقة في الهوية الوطنية"[166].

4. المثقف العراقي في الرواية؛ الدوروالخذلان

يحتل "المثقف" موقعًا محوريًا في البنية الرمزية والاجتماعية للرواية العراقية ليس بوصفه شخصية عابرة في السرد بل كصوت يمثل الوعي النقدي والهمّ الأخلاقي والرهان على التغيير. وقد تجلّت هذه الشخصية بقوة في النصوص السردية التي تناولت التحولات الجذرية في المجتمع العراقي خاصة في فترات الحروب والاستبداد والانكسار الوطني. ففي ظل تلك التحولات عُرض المثقف داخل الرواية إما كبطل مأزوم يحمل همّ الجماعة أو ككائن مأخوذ بالخذلان والانكفاء ما يعكس التوتر الوجودي بين الدور المنشود والواقع القاسي الذي يكبّله.

لقد واجه المثقف العراقي كما تعكسه الرواية تناقضات مريرة؛ بين التطلع إلى حرية الفكر والتعبير وبين ضغط السلطة السياسية والدينية والاجتماعية فبعض النصوص صورته ضميرًا حيًا يقاوم القمع ويدفع ثمن مواقفه بينما أظهرته نصوص أخرى كعاجز أو متواطئ أو منسحب من المشهد العام. وهذه التباينات في التمثيل تعكس تعقيد العلاقة بين المثقف والسلطة، كما تبرز معضلة العمل الثقافي في مجتمع تتآكله الأزمات وتتسيد فيه مؤسسات القمع.

ومن خلال هذا الطرح الروائي برز المثقف بوصفه رمزًا مزدوجًا؛ يحمل إمكانية الفعل والتحول من جهة ويختزن في داخله خيبات الأمل المتكررة من جهة أخرى. وهو بذلك يتحول إلى مرآة لأسئلة الهوية الوطنية والالتزام الأخلاقي وحدود الإمكان داخل واقع يتنازعه العنف والانكسار،

[166] سامي الكيلاني، صراع الأجيال والهوية في الرواية العراقية المعاصرة، مجلة الدراسات الأدبية، بغداد، 2022، ص 78

والرقابة. وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الرواية العراقية ما بعد 2003م، صارت ترى في المثقف صورة للذات العراقية الجريحة التي فشلت في حمل مشروع الخلاص لكنها لا تزال تحاول فهم ما حدث وتوثيقه بلغة أدبية مؤلمة.

5. صورة المثقف بين السلطة والمقاومة

ظهرت شخصية المثقف العراقي في الروايات بوصفها من أكثر الصور تعقيدًا وتناقضًا حيث يُصوَّر المثقف في بعض النصوص كعنصر من عناصر السلطة أو كشريك ضمن النظام القمعي الذي يتحكم بالمجتمع، بينما في نصوص أخرى يتجسد كمقاوم وشاهد على الظلم والاضطهاد يحاول تحدي الواقع المفروض. هذا التباين أظهر الانقسام الداخلي الذي يعيشه المثقف بين انتمائه لمجتمعه وواجبه في محاربة الظلم وبين الضغوط السياسية والاجتماعية التي تدفعه إلى التكيف أو الصمت.

ابرزت المواقف المتعددة للمثقف فتجد شخصيات تمثل المثقف المتواطئ الذي يقبل بالرضا عن الوضع حفاظًا على مكانته أو سلامته في مقابل آخرين يظهرون كرموز للمقاومة الفكرية والسياسية ويحاولون من خلال الكتابة والفكر أن يحيوا الأمل ويكشفوا زيف السلطة. وهذا يعكس التوترات الحقيقية التي يعيشها المثقف العراقي في سياق مجتمع معذب بين الحروب والاحتلالات.

إن تصوير المثقف في هذه الحالة هو تصوير لمفارقة، إذ غالبًا ما يُتوقع من المثقف أن يكون صوت الضمير والرفض، لكنه يجد نفسه محاصرًا في دوامة من القمع والخذلان، مما يعكس مأساة الوعي في ظل الواقع السياسي العراقي.

6. المثقف كرمز للأزمة والانكسار

جسّد المثقف العراقي في الرواية إلى جانب دوره الاجتماعي والسياسي صورةً للأزمة الوطنية والانهيار النفسي الذي يمر به المجتمع وأظهرت النصوص الروائية معاناته من الإحباط نتيجة القيود على حريته الفكرية وتدهور الأوضاع السياسية والآثار المدمرة للحروب المتتالية وغالبًا ما تظهر الشخصيات المثقفة محاطة بالعزلة والخذلان وتخوض صراعات وجودية تعبّر عن الإحساس بالضياع واليأس والانقسام الداخلي.

أظهرت الرواية هذه الأزمات من خلال الصراعات الداخلية التي يعيشها المثقف سواء في علاقته بالسلطة أو بمجتمعه إذ يمر المثقف بفترات من الصمت القسري، أو الاضطرار إلى التنازل عن المبادئ أو حتى الفقدان الكلي للأمل. وهذا الانكسار الفردي يرمز إلى أزمة أوسع وأعمق تتعلق بمكانة الثقافة والفكر في المجتمع العراقي، ومدى تأثير القهر السياسي والاجتماعي على القدرة الإبداعية والنقدية.

يُنظر إلى المثقف في بعض الروايات على أنه حامل لمأساة وطنية مجسدة حيث يلتقي الانكسار الشخصي مع الانكسار الجماعي فيحكي بذلك قصة مجتمع بأكمله يحاول أن يجد سبيله بين الألم والدمار. كما أكد الباحث محمد جاسم أن "المثقف في الرواية العراقية يعبر عن انكسار مزدوج؛ انكسار الذات أمام ضغوط الواقع، وانكسار المجتمع أمام التحديات السياسية والاجتماعية"[167].

إن دراسة صورة المثقف في الرواية توفر نافذة مهمة لفهم التحولات الثقافية والاجتماعية التي شهدها العراق، كما تبرز كيف تتفاعل الأدب مع الأزمات المعاصرة لتشكيل وعي نقدي يحاول استكشاف أفق جديد في زمن الفوضى.

[167]" محمد جاسم، المثقف العراقي: بين المقاومة والانكسار، مجلة الدراسات الثقافية، بغداد، 2023، ص 56".

7. صورة المرأة وتحولات الوعي النسوي

جسّدت صورة المرأة في الرواية العراقية التحولات العميقة التي مرّ بها المجتمع خصوصًا في ظل الحروب والتغيرات السياسية والاجتماعية المتلاحقة. وانتقلت المرأة من حضور هامشي إلى دور محوري، تعبّر من خلاله عن الفعل والمقاومة وامتلاك الصوت المستقل. فالروايات العراقية خاصة في العقود الأخيرة بدأت تخرج من الأطر التقليدية التي كانت تحصر المرأة في قوالب نمطية إلى آفاق أكثر رحابة تتيح للمرأة أن تكون كيانًا مستقلًا يمتلك الإرادة والوعي والتأثير. لم تعد المرأة ذلك "الرمز الصامت" في خلفية السرد بل أصبحت قوة فاعلة تشارك في صياغة الأحداث وتتحمل مسؤولياتها الكاملة في النص، كما هو حالها في المجتمع.

تجلّى هذا التحول في تقديم نماذج نسائية تتحدى السلطة الذكورية وتقاوم القيود الاجتماعية وتتمرد على أدوار الطاعة والامتثال. ففي روايات ما بعد الحروب كثيرًا ما نجد المرأة ضحية مزدوجة؛ ضحية للعنف الخارجي الذي تمارسه الحروب والاحتلالات وضحية للعنف الداخلي المرتبط بالسلطة الذكورية والتقاليد الاجتماعية الصارمة. لكن هذه المرأة لا تظهر في حالة استسلام بل على العكس كثيرًا ما تقدمها الرواية في مواجهة عنيدة مع واقعها تحاول فيه أن تخلق لنفسها مكانًا وأن تُعيد تشكيل مصيرها الشخصي والإنساني من خلال السرد. وهذا ما جعل الرواية تتحول إلى منصة بديلة تسمح للمرأة باستعادة صوتها المسلوب وتدوين حكايتها الخاصة خارج هيمنة الرجل أو السلطة السياسية.

الرواية أيضًا لعبت دورًا جوهريًا في إنتاج خطاب نسوي عراقي محلي نابع من بيئة الصراع والتناقضات الثقافية والاجتماعية. هذا الخطاب لم يكن مستوردًا من الفكر النسوي الغربي، بل جاء نتيجة تفاعل المرأة الكاتبة – والمرأة كشخصية روائية مع واقعها اليومي حيث الفقد

والقمع والنزوح والفقر والتمييز لذا فإن الخطاب النسوي في الرواية العراقية كان خطابًا كاشفًا لا فقط لألم المرأة بل أيضًا لوعيها العميق بذاتها وحقها في الوجود والمشاركة.

وقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا التحول في السرد هو جزء من وعي جمعي يتشكل في ظل الأزمات حيث "أصبحت المرأة في الرواية العراقية الحديثة تمثّل الذات المتفجرة بالسؤال لا الجسد المستسلم للقدر حاملة بذلك مشروعًا إنسانيًا يتجاوز حدود الجندر ليمسّ كل ما هو مهمّش ومقصي"[168]. كما أن هذا التحول لم يكن حكرًا على الكاتبات فقط بل ساهم فيه كتّاب رجال أيضًا عبر تقديمهم لنماذج نسوية أكثر واقعية وتعقيدًا، تتجاوز الثنائية السطحية للمرأة المظلومة أو الخائنة إلى تصوير الإنسانة بكامل هشاشتها وقدرتها على التغير والنمو.

الرواية العراقية إذن أصبحت فضاءً سرديًا تستعيد فيه المرأة العراقيّة حقها في صياغة خطابها الخاص، خطاب لا يعبر فقط عن المظلومية، بل يطالب بالعدالة والمشاركة، ويسائل القيم الذكورية والسلطوية. وقد عبّرت الباحثة زينب عباس عن هذا التحول بالقول: "إن الرواية العراقية الحديثة منحت المرأة منصة صوت، لا مجرد موقع رمزي، تُقاوم من خلاله النسيان والتهميش، وتعيد بناء ذاتها من ركام الحرب والحرمان"[169].

8. الدين والتدين الشعبي كظاهرة ثقافية

يحضر الدين في الحياة العراقية بوصفه عنصرًا جوهريًا، لا يقتصر على كونه إيمانًا روحيًا، بل يتجاوز ذلك ليؤطر العلاقات الاجتماعية ويضبط السلوك الفردي ويسهم في تشكيل التصورات الثقافية. ومن بين مظاهر هذا الحضور يبرز التدين الشعبي كأحد أكثر الأشكال تعبيرًا عن تفاعل الإنسان العراقي مع دينه ذلك التدين الذي لا ينفصل عن الموروث الشعبي

[168] فاضل الحمداني، المرأة والتمرد السردي في الأدب العراقي المعاصر، دار الفرات، بغداد، 2021، ص 88

[169] زينب عباس، خطاب المرأة في الرواية العراقية بعد 2003، مجلة دراسات ثقافية، جامعة الموصل، العدد 22، 2023، ص

والعادات والطقوس بل يتماهى معها ليشكّل هوية ثقافية متجذرة في الوعي الجمعي. وقد التقطت الرواية العراقية هذا البعد بدقة وعبّرت عنه من خلال شخوصها وسردها وأجوائها مما جعلها أداة قوية لتحليل الدين كتجربة إنسانية ومجتمعية مركبة.

أ. الدين والسلوك المجتمعي في الرواية العراقية

ظهر التدين الشعبي في النصوص الروائية العراقية على أنه انعكاس مباشر لطبيعة المجتمع وما يمر به من أزمات حيث يتحول الدين من منظومة عقائدية خالصة إلى شبكة من السلوكيات والممارسات التي تحكمها التقاليد والمناسبات والطقوس الجماعية. وغالبًا ما يتجلى هذا التدين في لحظات الانكسار الإنساني كالحرب والموت والفقد واللجوء حيث يصبح الدين ملجأً نفسياً ومصدرًا للعزاء. إلا أن الرواية لا تقدم هذا التدين من زاوية تبجيلية فحسب، بل تنتقد أحيانًا ممارساته الشكلية والتناقضات التي ترافقه خاصة حين يُستخدم لتبرير الاستبداد أو لتكريس السلطة الذكورية والاجتماعية.

برزت في عدد من الروايات شخصيات تلجأ إلى الرموز الدينية وتتشبث بالطقوس الشعبية، في محاولة لفهم واقع فوضوي أو مرعب، أو كآلية للبقاء ومقاومة الانهيار القيمي الذي يحيط بها. هذا التدين الشعبي إذًا يُعرض في الرواية بوصفه تجربة مشروطة بالظروف التاريخية وليس بوصفه تصورًا روحانيًا محضًا. "ويُشير بعض الباحثين إلى أن الرواية العراقية خاصة بعد 2003م، قد تناولت مظاهر التدين الشعبي لا بوصفها حالات فردية بل كمرآة لانقسام المجتمع بين الإيمان الحقيقي والتدين الطقسي المنغلق"[170].

[170] حسن جاسم الكعبي، تمثلات التدين الشعبي في الرواية العراقية بعد الاحتلال الأمريكي، مجلة البحوث الأدبية، جامعة بغداد، العدد 28، 2021، ص 97".

ب. الرموز الدينية ودورها في بناء الخطاب السردي

استحضرت الرواية العراقية الرموز الدينية كأدوات سردية متعددة الدلالات تتراوح بين الأمل والسخرية. فالحسينيات والمراقد والأدعية والزيارات إضافةً إلى القصص القرآنية والأحاديث النبوية توظف في سياقات نقدية وتحليلية تعكس تعقيدات الواقع العراقي وتجلياته الروحية والثقافية. ففي كثير من النصوص استخدمت الرموز الدينية لإبراز معاناة الإنسان أو لتأكيد عبثية الحرب أو لتسليط الضوء على الفجوة بين الخطاب الأخلاقي المعلن والممارسات الواقعية. هذا الاستخدام ليس فقط إبداعيًا، بل أيضًا تفكيكيًا حيث يعمل على إعادة قراءة الرموز من منظور إنساني وواقعي بعيدًا عن التقديس المطلق أو التسطيح الدعائي.

وظف بعض الكتّاب هذه الرموز بأسلوب يربط بين الفرد والمجتمع وبين الخاص والعام ليطرحوا أسئلة جريئة حول العدالة والقدر والتضحية والتناقض بين الخطاب الديني وسلوك السلطة. كما قدموا شخصيات تتراوح بين الورع الديني والنفاق الاجتماعي لتُظهر الرواية بذلك وعيًا عميقًا بأثر الدين في الحياة اليومية. "وتؤكد الكاتبة ميسون الطائي أن توظيف الرمز الديني في الرواية العراقية لم يكن بهدف تعزيز البنية الدينية للنص، بل كان وسيلة فنية لفهم الشرط الإنساني في ظل أزمنة العنف والتيه"[171].

إن هذا التوظيف السردي للدين والتدين الشعبي لم يمنح الرواية فقط بُعدًا ثقافيًا، بل جعل منها أداة تحليل اجتماعي تكشف عن التحولات التي طرأت على بنية المجتمع العراقي كما تساعد على فهم العلاقة بين الفرد والدين بوصفها علاقة متغيرة، متوترة، ومليئة بالرموز والتأويلات.

[171]" ² ميسون الطائي، الرمز الديني وتحولات الخطاب الروائي العراقي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2020، ص 64".

ج. توظيف الرموز الدينية في الخطاب الروائي

مثّلت الرموز الدينية في الرواية العراقية امتدادًا طبيعيًا للإرث الثقافي والروحي العميق في المجتمعات العربية لتصبح أداة فنية غنية بالتأويل تُستخدم لاستكشاف الواقع والتعبير عن الأسئلة الوجودية والتوترات بين المقدّس والدنيوي. لم تظهر هذه الرموز كزخارف لغوية سطحية بل كوسائل سردية قوية تحمل دلالات نقدية ومعرفية وتُسهم في تعميق البعد الفني والفكري للنص الروائي.

تنوّع توظيف هذه الرموز وفق السياق السردي لكل رواية فتارة يُستحضر الموروث الحسيني بما فيه من دلالات الفداء والتضحية والثورة وتارة أخرى تحضر الأدعية والزيارات والمقامات بوصفها طقوسًا روحية تحمل بعدًا صوفيًا أو شعبيًا يعكس علاقة الفرد بالمطلق أو بالجماعة الدينية. وفي أحيان كثيرة يتم استدعاء الشخصيات النبوية أو الرموز الإسلامية الكبرى لإعادة تفسير مواقف إنسانية أو سياسية ضمن السرد الروائي مما يضيف للنص عمقًا معرفيًا وشحنة وجدانية تتجاوز المباشر إلى المجازي.

ولعل اللافت أن هذه الرموز لم تستخدم في الرواية العراقية لتأكيد السلطة أو تمجيد القداسة بشكل مطلق بل غالبًا ما ارتبطت بعمليات مساءلة حقيقية للقيم والمؤسسات والشرعيات. فقد عمد بعض الروائيين إلى توظيف الرموز الدينية كأداة لكشف التناقض بين الخطاب الديني الرسمي والممارسة السياسية أو الاجتماعية أو كوسيلة لفهم انهيارات المعنى في ظل الحروب والانقسامات الطائفية. فالدين من خلال رموزه يتحول إلى كائن سردي يحمل في داخله طاقة مضادة: تارة تبني الأمل وتقاوم الانهيار، وتارة تفضح التواطؤ أو تسخر من السائد. "وقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاستخدام الفني للرموز الدينية في الرواية العراقية هو

محاولة لاستعادة الهوية الجمعية من جهة، والتعبير عن التمزق الأخلاقي والسياسي من جهة أخرى"[172].

ولا يقتصر استخدام الرموز على الفضاءات الإسلامية فقط بل يمتد إلى الرموز الدينية المشتركة أو الموروثة من تراث الأديان القديمة، ليمنح السرد تنوعًا دلاليًا وثقافيًا أكبر. ومن الجدير بالذكر أن توظيف الرموز لا يُقدَّم بوصفه فعلاً تزيينيًا، بل يتم دمجه في نسيج الرواية ليصبح جزءًا من البناء الدرامي ومصدرًا لتحليل المواقف، وتكثيف المشاعر، وتوليد التأويلات. "ويؤكد بعض الباحثين أن الرواية العراقية بعد الغزو الأمريكي قد تجاوزت التعامل السطحي مع الرموز، وانتقلت نحو إعادة قراءتها كجزء من عملية تفكيك الوعي وإعادة تشكيل الذات الثقافية في مواجهة الانهيار القيمي"[173].

تصبح الرموز الدينية في الخطاب الروائي مرآة للواقع العراقي بكل تناقضاته، كما تصبح أداة فنية لصناعة معنى جديد في زمن التمزق والتشظي والحنين إلى الثبات في عالم يتغير بعنف. إنها رموزٌ لا تتحدث فقط عن المقدّس، بل عن الإنسان في بحثه المستمر عن الخلاص والمعنى والعدالة في وسط فوضى الوجود.

تشكّل هذه الوحدة دراسة متكاملة لرصد وتحليل انعكاسات التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمع العراقي من خلال الرؤى السردية للروايات العراقية، التي جسّدت حالة المجتمع قبل اندلاع الحروب وبعدها، بما يشمل مختلف الأبعاد الإنسانية والوجدانية. فمن خلال تناول الحياة الاجتماعية برزت الروايات كمرآة حقيقية تُظهِر بنية الأسرة العراقية وعلاقاتها المتشابكة حيث تصوّر التقاليد الأسرية وروابطها العميقة في مواجهة تغيّرات الأدوار الجندرية

[172] عبد العزيز المقالح، الرمز الديني في الرواية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2010، ص 114".

[173] ماجد الغرباوي، جدلية الدين والسياسة في الخطاب الثقافي العراقي، دار الجمل، بغداد، 2021، ص 89".

التي ترسم واقعًا متبدّلًا بين المحافظة والانفتاح، وهو انعكاس لصراع أوسع بين القديم والحديث داخل المجتمع.

أظهرت الروايات بصيرة عميقة في تحليل الطبقية الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي حيث تعكس نصوصها واقع الصراع الطبقي وأثر الفقر مع إيلاء اهتمام خاص لدور النخبة والطبقة الوسطى والمهمشين في سياق سردي ينقل حكايات من الوجع الاجتماعي والتمزقات الطبقية التي تزيد من هشاشة النسيج الاجتماعي. هذا التناول يوضح كيف أن الرواية ليست مجرد سرد للأحداث بل فضاء للتحليل الاجتماعي والسياسي، يعكس الأبعاد المركبة للتفاوت والتهميش.

وفي محاور المكان والهوية، اتخذت الرواية العراقية من المدينة والريف فضاءً للصراع القيمي والثقافي حيث يظهر التحول من الريف إلى الحضر وتأثير الحروب والدمار على المدينة، خصوصًا بغداد كنموذج الذي يعكس جدلية بين الحداثة والخراب والتغير في البنية المكانية والذاكرة الجماعية. كما أن أزمة الهوية الوطنية التي طرأت بفعل الشتات والتشظي، تُناقش عبر تجليات الرواية التي تفتح المجال لاستكشاف الكتابة من موقع الاغتراب، مما يعكس التوتر النفسي والوجداني في مواجهة الغربة والحنين.

توسع البحث في التحولات الثقافية، عبر تمثيل القيم التقليدية وتغيراتها، وموضع المثقف العراقي، الذي بات رمزًا للأزمة والانكسار، وحالة الصراع بين السلطة والمقاومة. كما شهدت الرواية تحولات في تصوير المرأة، التي تحولت من دور رمزي صامت إلى فاعل نشط، في سياق يعكس الوعي النسوي المتجدد، حيث تُعد الرواية منصة لإعادة إنتاج الخطاب النسوي داخل الثقافة العراقية. إضافة إلى ذلك، تناولت العلاقة بين الدين والسلوك المجتمعي، والتوظيف

الرمزي للرموز الدينية داخل الخطاب الروائي، لتصبح جزءًا أساسيًا في فهم البنية الثقافية والنفسية للمجتمع العراقي.

بذلك، تتبلور الرواية العراقية كوثيقة ثقافية متكاملة تحكي قصة مجتمع متحرك متغير وممزق بين الثوابت والتجدد، بين الانتماء والاغتراب بين المأمول والمحبط. وهي إذ تؤرخ لحياة هذا المجتمع، تساهم في إنتاج خطاب نقدي قادر على مساءلة ذاته وفهم أزماته بعمق والبحث عن مسارات للانعتاق والتحول في ظل ظروف استثنائية. لذا تعتبر هذه الوحدة أساسية لفهم كيف تقرأ الرواية العراقية واقعها وتعبر عن هويتها الثقافية المتنوعة والمعقدة وسط حراك تاريخي واجتماعي متسارع.

د. العلاقة بين الدين والسلوك المجتمعي

تناولت الرواية العراقية الحديثة الدين باعتباره ظاهرة اجتماعية مركبة لا تقتصر على الجانب الروحي أو الشعائري بل تتعداه لتُظهره كقوة مؤثرة في التكوين الثقافي والسلوك الجماعي. يتجلى الدين في هذه الروايات كعنصر ديناميكي يوجّه القرارات وينظم العلاقات خاصة خلال الأزمات. ويبرز ذلك من خلال ظاهرة "التدين الشعبي" التي تمزج بين المعتقدات الدينية والطقوس الاجتماعية مما يمنح الدين بعدًا معقدًا في تشكيل هوية الفرد والمجتمع. وتُظهر الروايات شخصيات تتعاطى مع الدين بوصفه مصدرًا للعزاء في مواجهة الموت أو وسيلة لفهم الواقع العبثي، أو أحيانًا كمبرر للخضوع والانكسار أمام السلطة أو الأعراف. هذا التداخل بين الدين والواقع لا يُقدَّم غالبًا بطريقة وعظية أو تبشيرية بل يُعالج بطريقة فنية ناقدة تكشف عن التوتر القائم بين الإيمان الفردي النقي والممارسات المجتمعية المؤطرة بالعادات أو المصلحة أو الخوف من العقاب. وبهذا، تصبح الرواية مساحة لتعرية هذا التناقض عبر شخصيات تؤمن من جهة لكنها تقع في دوائر الرياء أو النفاق الديني من جهة

أخرى أو تحتمي بالدين في لحظات الفقد والانكسار. وتعبّر هذه الشخصيات عبر معاناتها عن محاولة مستمرة لإيجاد معنى في ظل الفوضى وهو ما يمنح النص الروائي بعدًا فلسفيًا ووجوديًا لا يخلو من التوتر والأسئلة.

لقد استفادت الرواية العراقية من الدين في بعده الشعبي لتفسير ظواهر مجتمعية كالعنف والانقسام الطائفي والخوف الوجودي بل ولتفكيك سرديات السلطة التي غالبًا ما استغلت الرموز الدينية لتكريس سيطرتها. وهكذا لا يُعرض الدين في هذه الأعمال على أنه عامل تهدئة فقط بل يُوظف أيضًا كأداة مقاومة صامتة، تحافظ على تماسك النفس البشرية وسط الانهيار الخارجي. "ويرى بعض الباحثين أن الرواية العراقية بعد 2003م أصبحت تستخدم الدين الشعبي كوسيلة لقراءة تمزقات المجتمع وتوتراته، دون أن تقع في فخ الإدانة أو التبجيل"[174].

[174]" حسن جاسم الكعبي، تمثلات التدين الشعبي في الرواية العراقية بعد الاحتلال الأمريكي، مجلة البحوث الأدبية، جامعة بغداد، العدد 28، 2021، ص 97".

الباب الرابع
الإنسانية: التعريف والتأثيرات

الفصل الأول : تعريف الإنسانية

الفصل الثاني : التأثيرات الاجتماعية: التفاعلات والعلاقات

الفصل الثالث : الإنسانية والأدب

الباب الرابع

الإنسانية: التعريف والتأثيرات

الإنسانية هي أحد المفاهيم الجوهرية التي شكّلت الوعي البشري عبر العصور بوصفها نسقًا أخلاقيًا وقيميًا يُعلي من شأن الإنسان، ويمنحه مركزية الوجود وحقّه في الكرامة والحرية والعدل. ولم تكن الإنسانية مجرد طروحات فلسفية نظرية بل امتد حضورها إلى ميادين الفن والأدب حيث شكّلت الخلفية الوجدانية للعديد من الأعمال الإبداعية، التي سعت إلى تمثيل الإنسان في أقصى درجات ضعفه واغترابه، وأعلى لحظات مقاومته وانتصاره.

وفي سياقات ما بعد الحروب والانهيارات الاجتماعية كما في التجربة العراقية اتخذت الإنسانية طابعًا وجوديًا حادًا حيث لم تعد مجرد خطاب مثالي بل تحوّلت إلى حاجة مصيرية، تنبني على مقاومة السقوط في العدم واستعادة المعنى في ظل العنف والتشييء والتهجير. وفي هذا الإطار أصبحت الرواية العراقية المعاصرة مرآة صافية لتعقيدات التجربة الإنسانية وصوتًا سرديًا يسعى إلى إعادة تشكيل الذاكرة وكشف هشاشة الإنسان حين تُسلب منه حقوقه الأساسية ويُدفع إلى هوامش الحياة المادية والنفسية.

فرض الواقع العراقي المتأزم حضور القيم الإنسانية في الأدب بوصفها موقفًا جماليًا وأخلاقيًا يعكس معاناة الإنسان وليس كعنصر زخرفي عابر. فقد ظهر الإنسان في الرواية العراقية الحديثة ككائن مهدد وممزق، يبحث عن ذاته وسط التهجير والتهميش والضياع، متشبثًا بالذاكرة والسرد وما تبقى من كرامة. ويأتي هذا الفصل لتأطير مفهوم الإنسانية وتتبع تطورها واستكشاف تمثّلاتها في البنية الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، كما انعكست في متون الرواية المعاصرة. فالحديث عن الإنسانية في هذا السياق، ليس استحضارًا لأفكار فلسفية معزولة،

بل هو تفكيك لواقعٍ يتقاطع فيه السياسي مع النفسي، والتاريخي مع الفني، في مشهد يعبّر عن أزمة الإنسان الحديث، وخصوصًا في المجتمعات التي عرفت الحروب والاقتلاع والدمار.

الفصل الأول
تعريف الإنسانية

الإنسانية مفهوم مركزي في الفلسفة والأخلاق والسياسة، يعبّر عن مجموعة من القيم التي تُعلي من شأن الإنسان وتحفظ له كرامته وحقوقه الأساسية. يمكن تعريف الإنسانية بأنها الالتزام الأخلاقي والاجتماعي بمعاملة الإنسان كغاية في ذاته، لا كوسيلة لتحقيق مصالح أخرى، كما تشير إلى الشعور بالرحمة والتعاطف تجاه الآخرين خاصة في ظروف الألم والمعاناة. هذا التعريف يشكل أساسًا لفهم الحقوق والحريات، ويُعتبر جوهريًا في بناء المجتمعات العادلة والمسالمة.

تطورت فكرة الإنسانية عبر مراحل تاريخية متعددة؛ ففي الفلسفة اليونانية القديمة مثلًا، كان الإنسان يُنظر إليه باعتباره مركز الكون وذاتًا عاقلة قادرة على التمييز الأخلاقي مما وضع الأساس للإنسانية التي ستتبلور لاحقًا. خلال عصر النهضة الأوروبية ارتبط مفهوم الإنسانية بإحياء القيم الإنسانية والاهتمام بالفرد وحقوقه متجاوزًا النظرة الدينية التي كانت تركز على اللاهوت فقط وفي الفكر الحديث توسّع المفهوم ليشمل الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية مع تأكيد على الكرامة الإنسانية كأساس لكل تعامل اجتماعي وسياسي.

في السياق العربي والإسلامي، تحمل الإنسانية أبعادًا أخلاقية تتجسد في تعاليم العدل والرحمة والمساواة، وهي قيم متجذرة في التراث الديني والاجتماعي. فالدين الإسلامي يعلّم أن الإنسان مكرم وأن الكرامة حق فطري لا يجوز المساس به، مما يضيف بعدًا دينيًا وأخلاقيًا فريدًا إلى مفهوم الإنسانية في هذا السياق.

في المجتمعات التي شهدت أزمات وصراعات مثل العراق تتحول الإنسانية من مفهوم نظري إلى واقع مأساوي يحتاج إلى إعادة بناء تصبح الإنسانية هناك قضية وجودية حيث يُصارع

الإنسان من أجل الحفاظ على حياته وكرامته وسط الانتهاكات السياسية والاجتماعية. في هذه الظروف تتبلور الإنسانية في الأعمال الأدبية خاصة الرواية التي تسعى إلى توثيق معاناة الإنسان العراقي وتجسيد قصص الألم والأمل، والتمسك بالكرامة رغم كل شيء.

إن دراسة الإنسانية في الرواية العراقية المعاصرة لا تعني فقط فهم هذا المفهوم نظريًا بل أيضا تحليل كيف يتجسد في النصوص الأدبية وكيف تتفاعل مع الواقع الاجتماعي والسياسي لتعكس تجربة الإنسان العراقي بشكل أعمق وأكثر صدقًا.

1. تعريف الإنسانية في سياقات متعددة

تتسم كلمة "الإنسانية" بغنى دلالي وتعدد في المعاني إذ تشمل أبعادًا متنوعة تمتد عبر المجالات الثقافية والعلمية والفكرية وتتباين تعريفاتها بين المدلول العلمي والتقني والبعد اللغوي، والرؤية الفلسفية، والتجربة الأدبية، مما يمنح هذا المفهوم طابعًا شاملًا ومتكاملًا

أ. المعنى التقني

تميّز نوع "Homo sapiens" في السياقات العلمية والأنثروبولوجية بكونه يمثل الإنسانية من منظور بيولوجي حيث يجمع صفات جسدية وعقلية واجتماعية فريدة تفصله عن بقية الكائنات. ويدرس العلم الإنسان من خلال تطور أصوله وصفاته الوراثية ووظائفه الحيوية إلى جانب "السلوكيات الاجتماعية التي تميزه عن بقية الكائنات الحية .[175]"يُعد هذا التعريف أساسًا ماديًا موضوعيًا لفهم الإنسان بوصفه كائنًا طبيعيًا.

[175] ريتشارد ليكي وروجر لوين، الانقراض السادس: أنماط الحياة ومستقبل الإنسان، دار نشر دبلداي، 1996، ص 22–25

ب. المعنى اللغوي والإتيمولوجي

تنبع كلمة "الإنسانية" من أصل لاتيني هو "humanitas" الذي كان يشير في الأصل إلى "الصفات المرتبطة بكون الإنسان إنسانًا، مثل اللطف والثقافة والرقي "ثم توسّع ليشمل كل البشر كجنس بشري".[176] أما جذر الكلمة "humanus " فكان يُستخدم للدلالة على "الصفات التي تميز الإنسان عن غيره، من حيث القيم الاجتماعية والأخلاقية". وعليه، فإنّ "الإنسانية" في سياقها اللغوي تعني ليس فقط الإنسان ككائن بيولوجي بل أيضًا تلك الصفات الأخلاقية والاجتماعية المميزة له.

ج. المعنى الفلسفي

تأخذ الإنسانية في الفلسفة بعدًا أخلاقيًا ووجوديًا عميقًا حيث يُنظر إليها كـ"كرامة جوهرية ومسؤولية أخلاقية تحملها كل نفس بشرية". يرى الفيلسوف "إيمانويل كانت" أن "الإنسانية في شخص ما يجب أن تُعامل دائمًا كغاية في ذاتها، لا كوسيلة فقط .[177]"ومن جهة أخرى، اعتبر الفلاسفة الوجوديون مثل جان بول سارتر أن الإنسان هو "مشروع حرّ يصنع معناه بنفسه من خلال أفعاله وقراراته" وأن "الوجود يسبق الماهية .[178]"بذلك تُمثل الإنسانية في الفلسفة مزيجًا من القيم الأخلاقية والحرية الوجودية.

د. المعنى الأدبي

تعد الإنسانية موضوعًا "محوريًا يعكس تعقيدات الطبيعة البشرية وعلاقاتها الاجتماعية وتجاربها العاطفية والمعاناة والطموحات". تُصوّر الأعمال الأدبية الإنسان في أبعاده النفسية والفكرية، وتعبّر عن "الصراعات الداخلية والظروف الخارجية التي تواجهه، مع التركيز على

---

[176] قاموس أكسفورد الإنجليزي، مدخل"humanity" ، تم الاطلاع عليه يوليو 2025

[177] إيمانويل كانت، أساس ميتافيزيقا الأخلاق، مطبعة جامعة كامبريدج، 1997، ص 36

[178] جان بول سارتر، الوجودية هي الإنسانية، مطبعة جامعة ييل، 2007، ص 15–22

التعاطف والرحمة والتواصل الإنساني .[179]"وتمثل الإنسانية في الأدب حالة متجددة من التفاعل بين نقاط الضعف والقوة، والحاجة إلى المعنى والاتصال.

2. الإنسان في الفكروالأدب

يعتبر الإنسان محورًا أساسيًا في الفكر الإنساني والأدبي على مر العصور إذ شكل سؤال ماهية الإنسان وماهيته الوجودية محورًا أساسيًا في فلسفات متعددة وموضوعًا رئيسيًا في الأدب الذي يسعى لتمثيل تجارب الإنسان المختلفة في الحياة. وفي هذا السياق تتقاطع مجالات الفكر والفلسفة مع الأدب في استكشاف الإنسان ككائن عاقل ذا شعور ومُعانٍ متعددة يعيش في عالم يتقلب بين النور والظلام والسلم والحرب والحرية والقيد.

3. الإنسان في الفلسفة؛ من التعريف إلى التأملات الوجودية

شكّل الإنسان محورًا أساسيًا في التأملات الفلسفية منذ العصور القديمة، إذ سعى الفلاسفة إلى فهم طبيعته وتحديد موقعه في الوجود. فقد رأى أفلاطون على سبيل المثال في الإنسان كائنًا روحيًا يتفرد بعقله ويملك القدرة على بلوغ الحقيقة عبر التأمل العقلي في حين وصفه أرسطو بأنه كائن اجتماعي بطبعه، لا يكتمل وجوده إلا ضمن مجتمع بشري، حيث تتجلى إنسانيته من خلال علاقاته وممارساته.

مع تطور الفلسفة الغربية خاصة في عصر النهضة صاغت حركة الإنسانية (Humanism) تصورًا جديدًا يضع الإنسان في مركز الكون ويعتبره كائنًا يستحق الاحترام والتقدير بسبب قدراته العقلية والأخلاقية بعيدًا عن النظرة الدينية التقليدية التي تركز على اللاهوت فقط وفي الفلسفة المعاصرة طرح الفلاسفة الوجوديون مثل جان بول سارتر ومارتن هايدغر، رؤية

[179] هارولد بلوم، الكانون الغربي: الكتب ومدرسة العصور، هار كورت بريس، 1994، ص 112–114

جديدة حول الإنسان حيث أصبح "الوجود يسبق الماهية" أي أن الإنسان أولًا يوجد ثم يصنع معناه وذاته من خلال أفعاله وخياراته مما يضيف بعدًا حرًا ومسؤولًا للفرد في بناء وجوده وسط ظروف الحياة المتغيرة والمعقدة[180].

4. الإنسان في الفكر الديني والثقافي

ترتبط دراسة الإنسان ارتباطًا وثيقًا بالتراث الديني، الذي منحه مكانة مركزية تفوق أحيانًا ما تقدمه الفلسفات الوضعية. ففي الإسلام، يُصوَّر الإنسان على أنه "كائن مكرم" خُلق في أحسن تقويم، و"خليفة لله في الأرض"، ما يمنحه مسؤوليات تتجاوز البعد الفردي لتشمل الأخلاق والمجتمع والبيئة وهذا التصور الديني يرسّخ صورة الإنسان كمخلوق مسؤول وحرّ ومكلف تُناط به مهمة الإعمار والعدالة، وهو بذلك لا يُختزل في بعد مادي أو عقلي فقط، بل يُنظر إليه ككائن متكامل، يحمل في داخله بعدًا روحيًا عميقًا. يضفي على مفهوم الإنسان قيمة سامية ومركزية ترتكز على التوازن بين الجسد والروح والحق والعدل[181].

وفي الثقافات الأخرى، نجد تصورات متعددة حول الإنسان، منها ما يربطه بالعالم الطبيعي وروحانيات الكون، ومنها ما يضع الإنسان في مواجهة مع الطبيعة أو مع الله أو مع المجتمع. وهذا التنوع الثقافي يزيد من ثراء فهم الإنسان ويعكس تعددية التجارب الإنسانية التي تناولها الفكر والأدب.

---

[180] Jean-Paul Sartre, Being and Nothingness, Washington Square Press, 1992, pp. 45-67

[181] عبد الرحمن بدوي، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي الحديث، دار الفكر، بيروت، 1998، ص: 84

5. الإنسان في الأدب: من التجربة الفردية إلى الوعي الجمعي

الأدب مرآة لتجربة الإنسان وحياته اليومية حيث يصور الروائيون والشعراء والكتاب الإنسان في كل أشكاله وصراعاته فالأدب لا يقتصر على سرد الوقائع بل ينسج سردًا نفسيًا وفكريًا يعكس الصراعات الداخلية والخارجية التي تواجه الإنسان.

وفي الأدب العالمي تناولت أعمال كبار الكتاب مثل دوستويفسكي وهمنغواي وكامو صراع الإنسان مع نفسه ومع المجتمع ومع العدم. ففي روايات دوستويفسكي يظهر الإنسان في لحظات ضياع وجدانية حادة، وفي أعمال همنغواي تتجلى صورة الإنسان في صراعه مع الطبيعة ومع ظروف الحياة القاسية، بينما يعبر كامو عن الإنسان في مواجهة عبثية الوجود.

أما في الأدب العربي فقد جسدت الروايات والشعر تجارب الإنسان في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية حيث مثّل الإنسان المحور في مواجهة الاستعمار والحروب والتحديث كما في أعمال نجيب محفوظ وغسان كنفاني وغيرهم مما ساهم في إغناء التصور الأدبي للإنسان بتفاصيل معيشية وإنسانية دقيقة.

6. الإنسان العراقي في الأدب المعاصر؛ الو اقع والتمثيل

يحضر الإنسان في الأدب المعاصر العراقي كفكرة محورية يعبر من خلالها الكُتّاب عن المآسي الحقيقية الناتجة عن الحروب المتكررة والاحتلال والتفكك الاجتماعي والتشريد إلى محاولات البقاء والكرامة في ظل الفوضى وتتسم الرواية العراقية بالتعبير الواقعي العميق عن حالة الإنسان العراقي الذي يعيش "تشظيًا وجدانيًا" وصراعًا مستمرًا بين الذكرى والحاضر وبين الأمل واليأس.

ولا تكتفي الرواية العراقية المعاصرة بتوثيق المآسي، بل تحاول أيضًا تفكيكها، مما يجعلها نصًا إنسانيًا حساسًا يعكس صراعات الوجود الإنساني في أحلك الظروف. وتتنوع تجليات الإنسان

في هذه الرواية بين الأفراد والجماعات، بين "المهزوم الكريم" و"المقاتل المتمرد"، وبين الضحية التي تحلم بالسلام والحياة الكريمة[182].

يتضح من استعراض الفكر والأدب العالمي والعربي أن الإنسان هو جوهر أي دراسة إنسانية، حيث يتداخل الفلسفي مع الأدبي والاجتماعي لتشكيل رؤية شاملة عن ماهية الإنسان وتجربته. إن إدراك هذا العمق ضروري لفهم الرواية العراقية المعاصرة التي تتناول الإنسان في أبعاده المختلفة، خاصة في ظل الصراعات التي مر بها العراق.

7. التطور التاريخي لمفهوم الإنسانية في الفكر الغربي والشرقي

إن مفهوم الإنسانية ليس مجرّد كلمة عابرة بل هو رؤية شاملة للحالة الإنسانية، تصوّر الإنسان في علاقته بالعالم وبالآخرين، ويُعتبر من أكثر المفاهيم تعقيدًا وعمقًا في الفكر الإنساني وقد تطور هذا المفهوم عبر التاريخ عبر مسارات فكرية متعددة في الشرق والغرب متأثرًا بالظروف الثقافية والاجتماعية والدينية التي مرت بها الحضارات ومن هنا تبرز أهمية دراسة هذا التطور التاريخي لفهم كيف تشكلت معاني الإنسانية المختلفة وكيف انعكست على الأدب والفكر المعاصر.

8. الإنسانية من الفلسفة اليونانية إلى النهضة الأوروبية

أ. جذور الإنسانية في الفلسفة اليونانية

بدأت الإنسانية في الفكر الغربي من خلال الفلسفة اليونانية حيث اعتبر الفلاسفة الإنسان كائنًا مركزيًا يتسم بالعقلانية والأخلاق.

[182] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، بغداد، 2013

فقد تناول أفلاطون مفهوم الإنسان من منظور "الروح" والبحث عن الحقيقة، حيث رأى أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، العقل والروح والجسد واعتبر أن العدالة تتحقق حين تسيطر العقلانية على الجسد والرغبات، وهذه الرؤية وضعت الأساس لفكرة "الإنسان الفاضل" الذي يسعى لتحقيق الكمال الأخلاقي والفكري أما أرسطو من جهته شدد على الطابع الاجتماعي للإنسان، إذ وصفه بأنه "حيوان سياسي" لا يستطيع العيش بمعزل عن المجتمع فالإنسان بحاجة إلى الآخرين لتكوين عيشه الكريم، ولذلك فـ"الإنسان هو كائن اجتماعي بطبعه وتكامل حياته يتطلب المشاركة في الحياة المدنية"[183]. وقد ساعدت هذه النظرة على ترسيخ مفهوم الإنسانية المرتبط بالمسؤولية الاجتماعية والقيم المدنية.

ب. الإنسانية في العصور الوسطى والتحولات الفلسفية والدينية

شهد مفهوم الإنسانية تحوّلًا جذريًا مع بداية العصور الوسطى حيث بسط الفكر الديني المسيحي نفوذه على الحياة الفكرية والاجتماعية في أوروبا. فقد أصبحت النظرة إلى الإنسان محكومة بتصور لاهوتي يربط وجوده بالخطيئة الأولى ويُعرّف قيمته من خلال علاقته بالله والخلاص الأبدي ولم يعد الإنسان مركز الكون كما في بعض الرؤى الفلسفية اليونانية بل أصبح كائنًا ضعيفًا بحاجة إلى النعمة الإلهية للفداء ومع ذلك ساهم هذا التصور في بلورة فهم جديد للكرامة الإنسانية يقوم على أساس الروح والخلاص لا على العقل أو الجسد فقط وأصبحت الإنسانية في هذا السياق مرتبطة بعلاقة الإنسان بالخالق فـ"الإنسان مخلوق محدود وضعيف وكرامته مستمدة من علاقته بالله لا من ذاته. لذلك ظهر تصور أن الإنسان خاضع لإرادة الله ومحاسب عليها، ما حدّ من مكانته كمركز مستقل في الكون.

[183] "In Plato's Republic, the just soul is one ruled by reason," Jonathan Barnes, The Cambridge Companion to Aristotle, Cambridge University Press, 1995, p. 40

لكن حتى في هذه الحقبة نمت بعض الأفكار التي لاحقت مفهوم الكرامة الإنسانية مثل تعاليم القديس أوغسطين التي أكدت على قيمة الروح البشرية وأهمية السعي إلى الكمال الروحي مؤمنة بأن الإنسان يحمل قدرة على التغيير والتكامل الروحي رغم ضعفه.

ج. النهضة الأوروبية وولادة الإنسانية

شهد عصر النهضة في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر انتعاشًا فكريًا هائلًا أعاد الإنسان إلى مركز الاهتمام، وظهرت حركة الإنسانية (Humanism) التي رفعت من قيمة الإنسان وعززت ثقته في قدراته. وكان من أبرز مظاهر هذا التحول هو "العودة إلى النصوص الكلاسيكية اليونانية والرومانية والتركيز على العقل الإنساني والقدرة على المعرفة والإبداع". حيث قال بيكو ديلا ميراندولا في "خطاب كرامة الإنسان" إن الإنسان حرّ في اختيار مصيره وهو قادر على بناء ذاته بنفسه الأمر الذي مثل نقلة نوعية في فهم الإنسان ككائن مسؤول وحُر.

تزامن ذلك مع تطور العلوم والاكتشافات التي أثبتت قدرة الإنسان على فهم الطبيعة وتغييرها، مما عزز تصور الذات الإنسانية بوصفها محور الكون لقد ولدت من هذه المرحلة مبادئ حقوق الإنسان والحرية التي تجسدت لاحقًا في الوثائق الحقوقية الكبرى، وأحدثت تحولًا جذريًا في العلاقة بين الفرد والدولة والمجتمع.

9. الأسس الدينية والأخلاقية للإنسانية في الإسلام

ينبع مفهوم الإنسانية في الإسلام من رؤى قرآنية ونبوية تعطي الإنسان مكانة خاصة إذ جاء القرآن الكريم ليؤكد أن "الإنسان مكرم ومميز بين سائر المخلوقات" "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ"

(الإسراء: 70)[184]. وبحسب الفقه الإسلامي الإنسان هو "خليفة الله في الأرض" موكل إليه مسؤولية تحقيق العدل والمحافظة على التوازن بين حقوقه وحقوق الآخرين والطبيعة.

أ. العدل كركيزة أساسية للإنسانية

العدل في الإسلام هو قيمة مركزية تمتد إلى كل جوانب الحياة فهو لا يقتصر على القضاء بل يشمل العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. يقول القرآن؛ "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ" (النحل: 90) ويُعتبر العدل في الإسلام "تطبيقًا عمليًا لمبدأ الكرامة الإنسانية إذ لا كرامة بدون عدل"[185]. وبذلك يمثل العدل وسيلة لضمان حقوق الإنسان والحد من الظلم والاستبداد.

ب. الرحمة والإنسانية

تأتي الرحمة في الإسلام لتُكمل دور العدل فهي تمثل الجانب الإنساني العاطفي الذي يُعين الإنسان على التعاطف مع الآخرين، خاصة الفقراء والمظلومين. ينظر الإسلام إلى الرحمة كقيمة إلهية تشمل جميع الخلق، قال تعالى؛ "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (الأعراف 156)، وعليه فإن الإنسان مدعو ليكون "رحيمًا بالناس جميعًا"[186].

ج. الكرامة الإنسانية

تتجسد الكرامة في الفكر الإسلامي ليس فقط في مكانة الإنسان ككائن، بل في حقوقه وحرياته التي يجب احترامها وحمايتها. يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله عز وجل لم يخلقني لأهين أحدًا"[187]. لذلك، ترفض الشريعة كل أنواع التمييز والظلم، وتؤكد على المساواة والاحترام المتبادل.

---

[184] القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 70

[185] القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 90

[186] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 156

[187] Sahih Muslim, Hadith 2319

ومن هنا يُظهر هذا التطور التاريخي كيف تنوعت وتطورت معاني الإنسانية في السياقات الفكرية المختلفة، من فلسفة اليونان القديمة، مرورًا بالقرون الوسطى، وصولاً إلى النهضة الأوروبية، في مقابل النزعة الإنسانية العميقة في الفكر الإسلامي المبنية على قيم العدل والرحمة والكرامة. وتعد هذه الخلفيات ضرورية لفهم كيفية تعامل الأدب الحديث، وخاصة في السياقات الصعبة كالعراق، مع موضوع الإنسان والإنسانية.

10. المفهوم المعاصر للإنسانية في سياق ما بعد الحروب

شهد القرن العشرون وما تلاه من سنوات تحولات جذرية في مفهوم الإنسانية، لا سيما في أعقاب الحروب الكبرى والكوارث السياسية والاجتماعية فبعدما كانت الإنسانية تُفهم في سياقها الفلسفي الكلاسيكي كمجموعة من الفضائل والأخلاق الفردية، تطور معناها ليشمل أبعادًا أكثر تعقيدًا وتفاعلية مع الواقع المعاصر، خصوصًا في المجتمعات الخارجة من الحروب. ولقد أصبحت التجربة الجماعية للألم والمعاناة محفزًا حقيقيًا لإعادة التفكير في معنى الإنسان وحقوقه، والعلاقات بين الفرد والمجتمع، والقوة والدولة وفي هذا الإطار، لم تعد الإنسانية مجرد قيمة أخلاقية، بل تحولت إلى ضرورة وجودية نابعة من تجربة العنف والتدمير الجماعي.

11. إعادة تشكيل مفهوم الإنسانية في العصر الحديث

أفرزت التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر الحديث ضرورة إعادة تعريف مفهوم الإنسانية، بعيدًا عن التصورات التقليدية للفلسفات المثالية أو النصوص الدينية وذلك لفهم أعمق لتجليات الكرامة والعدالة في واقع ما بعد الحروب. إن الأزمات الممتدة من الحربين العالميتين إلى الحروب الأهلية في العالم العربي وأفريقيا، أعادت صياغة إدراك الإنسان لذاته، وأصبح الوعي بالكرامة والحرية والعدالة مرتبطًا مباشرة بالتجربة

المعاشة وليس فقط بالخطابات النظرية. لقد باتت القوانين الدولية ومواثيق حقوق الإنسان تشكل البنية التحتية لفهم الإنسانية الحديثة، إذ أصبحت المرجع الأخلاقي والسياسي الذي يقيس به العالم ممارساته تجاه الأفراد والجماعات ولم يكن هذا التحول ممكنًا لولا الصدمة الجماعية التي أحدثتها الحروب وما كشفته من هشاشة إنسانية عميقة.

12. الحروب كعامل محفّز لإعادة اكتشاف الإنسانية

لعبت الحروب دورًا خطيرًا، لكنها في الوقت ذاته فتحت المجال لتأملات عميقة حول جوهر الإنسان وحدود قدرته على التحمّل ومعنى القيم التي يدّعيها ولقد أظهرت الأزمات الوجودية الكبرى مثل الإبادة الجماعية والاحتلالات، الوجه القبيح للسلطة حينما تتحول إلى أداة للقمع وهذا بالمقابل دفعت نحو بروز خطاب إنساني جديد يدعو إلى الرحمة والعدالة والمصالحة. ففي العراق مثلًا وبعد الغزو الأمريكي عام 2003م، خرجت عشرات الروايات التي تصف معاناة الإنسان العادي، وتكشف كيف تتحول المدينة إلى مقبرة صامتة، وكيف تصبح الحياة اليومية محفوفة بالموت والعنف واللا جدوى. وفي هذا السياق تُعاد صياغة مفهوم الإنسانية بوصفها نداءً وجوديًا ضد العنف، يتجاوز السياسة والدين والجغرافيا، ويؤسس لمفهوم كوني موحّد.

13. الإنسانية والعدالة: العلاقة المتبادلة بعد الحروب

ابدأ بإصلاح الضمير الجماعي وتعزيز الثقة بين الأفراد والدولة، لأن الحروب تُسقِط القانون وتُهمّش الكرامة، فلا يكفي لإعادة بناء المجتمعات أن نُصلح البنية التحتية فقط. وهنا تبرز مفاهيم مثل العدالة الانتقالية، والتسامح المجتمعي، والمساءلة القانونية كعناصر حيوية لعودة الإنسانية إلى المجتمعات المحطمة. إن الإنسانية المعاصرة لم تعد محصورة في الأخلاق الشخصية بل أصبحت ضرورة سياسية وقانونية لتحقيق الاستقرار والسلم الأهلي، خاصة في المجتمعات الخارجة من الحروب الأهلية أو الاحتلالات الأجنبية. فالمحاكم الدولية، وبرامج

المصالحة، ولجان الحقيقة والعدالة، لم تأتِ من فراغ، بل هي جزء من عملية استعادة الإنسان لذاته وحقوقه.

14. تحديات الإنسانية في عالم اليوم

تواجه الإنسانية المعاصرة، رغم ما حققته من تطور إيجابي، تحديات خطيرة تهزّ أسسها الأخلاقية والفكرية. ومن أبرز هذه التحديات تصاعد النزعات القومية المتطرفة وانتشار التمييز العرقي والعنصرية تجاه اللاجئين وتفاقم تهميش الفقراء إلى جانب إساءة استخدام التكنولوجيا بما يقلل من عمق العلاقات الإنسانية. إن العالم اليوم يشهد تحوّلًا نحو الرقمنة مما أدى إلى إضعاف العلاقات الحقيقية بين الناس وتحويل القيم إلى شعارات إعلامية لا تجد طريقها إلى التطبيق. في ظل هذه التحديات، أصبحت الإنسانية مهددة بأن تتحول إلى مجرد خطاب ثقافي منفصل عن الممارسة، مما يستدعي إعادة إحيائها من خلال التربية والإبداع، والعدالة الاجتماعية. ولا يمكن تجاوز هذه التحديات دون استعادة البعد الأخلاقي والروحي للفكر الإنساني في مواجهة منطق القوة والمصلحة.

15. الأدب والفن كقوى ناعمة لإعادة إحياء الإنسانية

يُعدّ الأدب، وبشكل خاص الرواية، من أبرز الوسائل في التعبير عن إنسانية ما بعد الحرب، إذ نجح في إيصال صوت الضحية، وتسجيل لحظات الفقد وإيقاظ الضمير الجمعي. وقد تحوّل الأدب العربي والعراقي تحديدًا بعد الاحتلال إلى مرآة تعكس بصدق المعاناة الجماعية وساحة رحبة لاستعادة كرامة الإنسان المقهور والتعبير عن آلامه وآماله. الرواية العراقية بعد الاحتلال لم تعد فقط وسيلة للتوثيق بل صارت مساحة لصياغة خطاب إنساني شامل يدمج الذاتي بالجماعي والوطني بالعالمي كما أن الفن التشكيلي والمسرح والسينما أسهموا في تشكيل ذاكرة إنسانية جماعية تُعيد الاعتبار للتجربة الإنسانية المجرّدة من الأيديولوجيا. إن هذه الفنون لم

تكتفي بسرد الألم بل تُحرّض على مقاومة النسيان، وعلى بناء مستقبل يُعلي من شأن الإنسان، مهما كان أصله أو انتماؤه.

إن المفهوم المعاصر للإنسانية لا يمكن أن يُفهم إلا في ضوء ما خلفته الحروب من مآسٍ وآلام، ومن حاجات أخلاقية وروحية لإعادة تعريف الإنسان فقد تحولت الإنسانية من فكرة مجرّدة إلى ضرورة واقعية لا يمكن لأي مجتمع أن يستمر دونها. وفي هذا الإطار، تتعدد أدوات تعزيز هذا المفهوم من القانون وإلى العدالة وإلى الأدب وإلى التربية وإلى العمل الإنساني اليومي. إن مسؤوليتنا الأكاديمية والأخلاقية هي في توسيع هذا الفهم وتطبيقه وترسيخه في كل مجالات الحياة، حتى لا تعود الحروب مرة أخرى لتذكّرنا بثمن غياب الإنسان.

16. المفهوم التطبيقي للإنسانية في الأدب

إنَّ الأدب وخاصة الرواية لا يعكس الواقع فحسب بل يُسهم في تشكيل الوعي الإنساني وتقديم قراءات جديدة للمجتمع والوجود. ومن هنا، فإن الحديث عن المفهوم التطبيقي للإنسانية في الأدب لا يقتصر على إبراز القيم الأخلاقية أو الشعارات العامة، بل يتعداه إلى تفكيك البنية السردية، وتحليل الشخصيات واستكشاف الكيفية التي يتجلّى فيها "الإنسان" بوصفه كائنًا معذّبًا، باحثًا عن معنى، أو مقاومًا للظلم وفي الأدب تصبح الإنسانية فعلاً سرديًا، وتمثّلاً فنّيًا، وموقفًا فلسفيًا، له تجلياته الجمالية والسياسية والاجتماعية.

17. الإنسانية في الرواية من خلال الشخصيات والسرد

جسدت الرواية "الإنسانية" ليس عبر المواعظ المباشرة، بل من خلال خلق شخصيات تنتمي إلى العالم الواقعي أو الرمزي، وتحمل داخلها صراعات وجودية وأخلاقية تعبّر عن أبعاد المعاناة والكرامة والحرية. فشخصية "الضحية" مثلًا، كثيرًا ما تكون محورًا أساسيًا في الرواية الحديثة، حيث تمثل التجلي الأوضح للإنسانية المجروحة، وتتحول إلى مرآة للمجتمع المنكسر.

في الرواية العراقية المعاصرة، نجد أن الإنسان المقهور سواء كان لاجئًا، أو معتقلاً أو مهمشًا لا يظهر بوصفه مجرد ضحية، بل هو حامل لرؤية، وفاعل في المقاومة الرمزية للدمار.

الرواية بهذا الشكل تطرح الإنسانية بوصفها تجربة شعورية عميقة تتجاوز السطح الاجتماعي لتُلامس جوهر الكينونة البشرية في لحظات الانكسار والبحث عن العدالة. في رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي، على سبيل المثال، تُجسد شخصية "الشسمه" تجميعًا رمزيًا لأشلاء الضحايا، وتحمل بُعدًا إنسانيًا عميقًا، إذ تصبح صرخة ضد فقدان العدالة ومثولًا سرديًا لإنسان ما بعد الحرب، الذي فقد هويته وتكوّن من بقايا مَن رحلوا.

وتبرز الإنسانية في السرد أيضًا من خلال العلاقات بين الشخصيات، حيث يتجلّى التعاطف، والخوف، والحب، والخذلان، كقيم سردية تُجسّد الإنسان في ضعفه وقوته معًا. لا تتوقف الرواية عند تصوير الأزمات، بل تتجاوزها إلى تقديم لحظات نور، حيث تنهض الشخصيات، أحيانًا، من بين الرماد، لتقول؛ "أنا هنا، رغم كل شيء."

18. الإنسانية كأداة سرد ومقاومة

تتحوّل الإنسانية في الرواية الحديثة، من مجرد قيمة إلى أداة سردية تُستخدم لمقاومة العنف، والتهميش والنسيان. وهذا يعني أن الرواية لا تكتفي بوصف المأساة بل تُعيد تشكيلها وتحويلها إلى خطاب يُدين القمع ويُطالب بالاعتراف. "إن السرد الإنساني في الرواية هو شكل من أشكال المقاومة الرمزية وهو خطاب مضاد للسلطة، ووسيلة لإعادة الاعتبار لما تم سحقه وتهميشه"[188]. فحين تكتب الشخصيات عن الألم أو حين تُصوَّر الأحياء الشعبية أو تُستحضر الذاكرة فإن الرواية تُمارس فعلًا مقاومًا يعيد للضحايا أصواتهم.

[188] Edward Said, Culture and Resistance, South End Press, 2003.

تظهر الرواية الإنسانية من خلال قدرتها على خلق تعاطف مع الآخر أي مع الغريب والمختلف، وتفتح المجال أمام القارئ لتبنّي موقف أخلاقي جديد. وهكذا تصبح الرواية "حقلًا للمساءلة الأخلاقية، وأداة لتحرير الوعي، وتحفيز القارئ على إعادة التفكير في مفاهيم الظلم والهوية، والعدالة"[189]. ويتجلى هذا بشكل واضح في الأعمال الأدبية التي كُتبت بعد الكوارث الإنسانية، كما في روايات الطاهر وطار، أو إلياس خوري، أو بروايات الحرب السورية والعراقية التي جسّدت الانكسار واللجوء والمنفى.

والأهم من كل ذلك أن الكتابة ذات الطابع الإنساني تسعى إلى حفظ الذاكرة، والاشتباك مع النسيان القسري الذي تفرضه السلطات، أو تكرّسه الروايات الرسمية للتاريخ. من هنا فإن السرد الإنساني هو سرد مضاد يحاول بناء ذاكرة بديلة، تكون فيها الكرامة والألم جزءًا من خطاب الوعي الجماعي. وهذه الوظيفة السردية تجعل من الأدب أداة فعلية في بناء مجتمعات أكثر عدالة وأكثر صدقًا في قراءة تاريخها.

إن المفهوم التطبيقي للإنسانية في الأدب يتجاوز التوصيف الأخلاقي ليغدو أداة بنيوية وجمالية في تشكيل الخطاب الأدبي المعاصر خصوصًا في الرواية. فالشخصيات والحبكة واللغة والذاكرة جميعها عناصر تسهم في تجسيد الإنسان في حالاته القصوى وفي تقديم صورة شاملة للمعاناة والكرامة والصراع. وعبر هذا التمثيل، تتحول الرواية إلى فضاء للإنصات لصوت الإنسان، لا بوصفه بطلًا، بل ككائن هش، يحتاج إلى الحب والعدالة والاعتراف.

19. نقد المفهوم: هل هناك حدود للإنسانية؟

تحظى الإنسانية بمكانة مركزية في الفكر الأخلاقي، الأدبي، والحقوقي، ومع ذلك فهي ليست بمنأى عن النقد أو إعادة التقييم، إذ يطرح بعض المفكرين تساؤلات حول شموليتها،

[189] Elaine Scarry, The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World, Oxford University Press, 1985.

وانحيازاتها الثقافية، وقدرتها على مواجهة الأزمات المعاصرة بل على العكس، فإن تطور هذا المفهوم في السياقات السياسية والاجتماعية المتغيرة يطرح أسئلة ضرورية حول مدى صموده أمام تحديات الواقع. في هذا الإطار يبرز سؤال محوري: هل هناك حدود للإنسانية؟ وهل يمكن أن تتحوّل الإنسانية من أداة أخلاقية نبيلة إلى خطاب أيديولوجي مشروط، خاضع للمصالح، ومتأثر بالتحالفات السياسية، أو حتى مُستخدم كوسيلة للهيمنة؟ "لقد كشف النقد المعاصر عن أن المفهوم الإنساني، رغم نبل أصله، ليس محايدًا دومًا، بل هو عرضة للتأويل والانتهاك"[190].

20. صراع المصالح وتحييد الإنسان

يُسجِّل كثير من المفكرين انتقاداتهم للمفهوم التقليدي للإنسانية، نظرًا لتجاهله المتكرر لتعقيدات صراعات المصالح السياسية والاقتصادية، مما يقلل من فاعليته في معالجة قضايا العدالة والكرامة بشكل شامل ففي الحروب وفي السياسات الدولية غالبًا ما يتم تهميش الإنسان الحقيقي، لصالح حسابات جيوسياسية أو عسكرية. نجد مثلًا أن الخطابات الإنسانية تُستخدم أحيانًا لتبرير تدخلات عسكرية تحت غطاء "حماية المدنيين" بينما تكون الأهداف الحقيقية ذات طابع اقتصادي أو نفوذي بحت وفي هذه الحالات، تتحول الإنسانية إلى أداة خطابية تُستخدم لتبرير ممارسة الهيمنة، بدلًا من أن تكون حافزًا لمواجهة الظلم.

حتى في حالات الإغاثة أو دعم اللاجئين، فإن السياسات تُدار غالبًا وفقًا لمعايير انتقائية تتعلق بجنسية الضحايا أو الدين أو الموقع الجغرافي فاللاجئ في منطقة نفطية يحظى باهتمام أكبر من لاجئ آخر في منطقة منسية. وهذا يفتح الباب أمام إشكالية: هل الإنسانية انتقائية؟ وهل يمكنها أن تصمد أمام منطق المصالح المتغيرة؟

[190] Michel Foucault, Society Must Be Defended, Picador, 1976.

21. التأويل السياسي لمفهوم الإنسانية

يُعاد تفسير مفهوم الإنسانية وفقًا لأيديولوجيا الدولة أو الجهة المسيطرة، مما يؤدي إلى تشويهه، أو على الأقل تحريفه عن جوهره الأخلاقي ففي الأنظمة الشمولية، على سبيل المثال، قد يستخدم خطاب الإنسانية لتبرير القمع الداخلي، عبر الادعاء بأنها تحمي "الإنسان من الانحراف"، أو "تصون القيم الجماعية". وهكذا، تتحول الإنسانية إلى خطاب رسمي، منزوع الدلالة، ومفرغ من القوة النقدية التي يُفترض أن يحملها.

تظهر خطورة التأويل السياسي أيضًا في الخطابات الثقافية التي تُروَّج عالميًا باسم "القيم الإنسانية العالمية"، والتي قد تحمل في باطنها نزعة استعمارية ناعمة، تحاول فرض نموذج ثقافي معين على المجتمعات الأخرى. حيث يتم توظيف المفهوم الإنساني لتسويق منظومة قيم واحدة، باعتبارها معيارًا أعلى، وإقصاء باقي السياقات المحلية المتنوعة.

وهذا ما يدعو إلى التأكيد على ضرورة الفصل بين الجوهر الأخلاقي للمفهوم، وبين الاستخدامات السياسية التي قد تفرغه من مضمونه الحقيقي. إن الدفاع عن الإنسان لا يمكن أن يكون مشروطًا بلون البشرة أو الجنس أو المذهب أو الموقع الجغرافي. فالإنسانية إذا أرادت أن تظل حقيقية، يجب أن تكون شاملة وغير انتقائية، وإلا سقطت في فخ الخطاب السياسي الموجّه.

في ختام هذا الفصل النقدي، يمكن القول إن الإنسانية، رغم ضرورتها الأخلاقية والوجودية، ليست بمنأى عن الخلل والتوظيف السلبي. لذلك، فإن التعامل مع هذا المفهوم يجب أن يكون حذرًا ونقديًا يدرك تناقضاته وحدوده ويعيد تأكيد معناه من خلال الممارسة وليس فقط من خلال الخطاب ولا بد من استعادة الإنسان من خطابات التوظيف السياسي وإعادته إلى مركز

الاهتمام الحقيقي، بوصفه كائنًا يتألم ويفكر ويستحق الكرامة مهما كانت خلفيته. هذه القراءة النقدية لا تهدم الإنسانية، بل تعيد تأسيسها على أسس أكثر صدقًا وعدلاً.

الفصل الثاني
التأثيرات الاجتماعية: التفاعلات والعلاقات

تشمل التحولات الإنسانية في سياق ما بعد الحروب، أكثر من مجرد التغيرات الجسدية أو الاقتصادية إذ تتغلغل بعمق في النسيج الاجتماعي وتمس العلاقات الإنسانية محدثة اضطرابات في الثقة والانتماء ومعاني التعايش بين الأفراد. فالإنسان، في جوهره كائن اجتماعي يعيش ضمن منظومة من التفاعلات المتبادلة، ويتأثر بل ويتشكل من خلال علاقاته مع الآخرين. وعليه، فإن أي صدمة جماعية بحجم الحرب لا بد أن تترك أثرًا بالغًا على طريقة تواصله، وثقته ومفاهيمه للارتباط والانتماء. لذلك، تبرز أهمية هذا الفصل في كونه يتحدث عن الوجه الاجتماعي للإنسانية، لا كمفهوم نظري منعزل بل كواقع متجسد في السلوك والعلاقة والهوية تؤدي الحروب بما تحمله من عنف وتشظٍّ إلى إحداث "خلل عميق في النظام الاجتماعي، وتفكك في الروابط التقليدية بين الأفراد، مثل روابط العائلة والحي والمؤسسة مما يُنتج حالة من الانكفاء على الذات أو الانتماء القسري لهويات بديلة"[191]. هذا التفكك لا يكون ظاهرًا فقط في البُنى الخارجية مثل الهجرة والنزوح والدمار المدني، بل يمتد إلى البُنى الرمزية والمعنوية، كالثقة الاجتماعية والإحساس بالعدالة وشرعية العلاقة مع الآخر.

وتبرز التفاعلات الاجتماعية في هذا السياق بوصفها مرآة لتجلي الإنسانية أو غيابها. فالتضامن والتعاطف والتسامح ليست مجرد مفاهيم أخلاقية، بل هي أفعال اجتماعية تتجلى في الحضور اليومي للعلاقات بين البشر. ومن جهة أخرى، فإن غيابها يفتح الباب أمام الانقسام والنبذ والعنف الرمزي أو المباشر، مما يجعلنا نطرح سؤالاً جوهريًا: كيف تتغير

[191] Pierre Bourdieu, Outline of a Theory of Practice, Cambridge University Press, 1972.

العلاقات الإنسانية بعد الحرب؟ وهل تتآكل القيم الجماعية أم تنبعث من جديد في أشكال أخرى من التفاعل والتشارك؟

من هنا، ينطلق هذا الفصل لتحليل هذه المسألة من ثلاثة محاور متكاملة: أولاً، أثر الحرب على العلاقات الاجتماعية التقليدية؛ ثانيًا: تحوّل أنماط الانتماء والهوية والتفاعل في المجتمعات الخارجة من النزاع؛ وثالثًا، دور الأدب لا سيما الرواية، في تصوير هذه العلاقات وتمثيلها كأداة سردية وإنسانية في آن. فالرواية – من خلال شخصياتها وبُنيتها – لا توثق فحسب، بل تُعيد إنتاج الواقع الاجتماعي من زاوية حساسة، تكشف فيها عن تراجيديا الإنسان في علاقته بالآخر بعد أن تهتز ثوابته.

إننا في هذا الفصل لا نبحث عن إجابات يقينية، بل نرصد تحولات حساسة في الوجدان الإنساني حيث تُصبح العلاقات الاجتماعية فضاءً لتجريب مفاهيم مثل التعايش أو الانقسام، والإيمان أو الخيانة، والوفاء أو الغدر، وكلها انعكاسات مباشرة لفقدان الاستقرار أو تمزق الدولة أو تغيّر القيم. وهي تحولات لا يمكن فهمها إلا بربطها بالتجربة الجمعية لما بعد الحرب، حيث يصبح كل فرد مرآة لانهيار أو إعادة تشكل مجتمعه.

كما أن تفعيل هذه العلاقات لا يتم في فراغ، بل من خلال فضاءات معينة مثل العائلة والمدرسة والحي والمخيم أو حتى المنفى، وهي فضاءات تتبدل وظائفها ومكانتها الرمزية بعد الأزمات. وهذه الملاحظة تُعتبر أساسية في تحليل بنية الرواية بعد الحرب، حيث يظهر المكان بوصفه كيانًا اجتماعيًا والعلاقة بوصفها خيطًا هشًا بين الذات والعالم، لا ينفك يتمزق ويُعاد خياطته.

لقد باتت الرواية المعاصرة، في المجتمعات الخارجة من النزاعات، هي الفضاء الأكثر اتساعًا لتمثيل أزمة العلاقات الاجتماعية، حيث تختلط الأبعاد الشخصية بالجماعية، ويتحول

السرد إلى محاولة لترميم إنسانية مهشّمة من خلال استحضار العلاقات المفقودة أو المحطمة. ومن هذا المنطلق، فإن هذا الفصل لا ينفصل عن الفصل السابق التي عالجت المفهوم الفلسفي والأنثروبولوجي للإنسانية، بل يمدّ الجسر نحو التمثيل العملي لها في السياق الحي لعلاقات البشر المتغيرة.

1. المجتمع والإنسان في زمن الانهيار

ينهار تماسك المجتمعات حين تهتز أركانها بسبب الحروب أو الكوارث السياسية والاقتصادية فلا يقتصر الانهيار على المؤسسات والبنى التحتية فقط بل يمتد ليطال منظومة القيم وشبكة العلاقات الاجتماعية وإحساس الأفراد بالأمان والانتماء. بل يمتد عميقًا إلى الإنسان ذاته: وعيه وعلاقاته وتصوراته وقيمه وأحلامه. ففي زمن الانهيار يُعاد رسم ملامح الحياة الاجتماعية بأدوات الألم، ويظهر الإنسان ككائن هش يحاول إعادة ترتيب نفسه داخل عالم فقد توازنه. هذا الفصل يوضح حالة "الوجود الإنساني" داخل "المجتمع المنهار"، وكيف يتفاعل الفرد مع التغيرات الكبرى التي تمس الجغرافيا واللغة والانتماء والثقة والهوية.

أ. ملامح المجتمع المنهار– الهشاشة والبنية المفقودة

يتسم المجتمع في زمن الانهيار بغياب السلطة المركزية، وانهيار العقد الاجتماعي، وتراجع منظومة القيم التي تنظّم العلاقات بين أفراده. ففي ظل الحروب، تُستبدل لغة القانون بلغة السلاح، ويُهمّش النظام المدني لصالح العنف الممنهج أو الفوضى. هذا الانهيار البنيوي ينعكس مباشرة على العلاقات الإنسانية، حيث تتفتت الروابط الأسرية، وتضعف الثقة بين الأفراد، وتتفكك المؤسسات التعليمية والصحية والاجتماعية.

المجتمع المنهار هو مجتمع بلا مركز، حيث يتشظّى الانتماء، وتفقد الهويات توازنها، ويصبح البقاء أولوية تتجاوز أي قيم جمعية أو أخلاقية. وتُظهر تجارب الحرب الأهلية في لبنان،

وسوريا، والعراق، كيف أن المدن الكبرى تحوّلت إلى مسارح للدمار المادي والرمزي، مما دفع الأفراد إلى الانعزال أو الاحتماء بهويات طائفية أو قبلية ضيقة.

ب. الإنسان داخل المجتمع المنهار– من المواطَنة إلى البقاء

تشهد المجتمعات انهيارًا شاملًا حيث لا يعود الإنسان مواطنًا فاعلًا في دولة تضمن حقوقه، بل يتحوّل إلى "نازح داخلي" داخل نفسه ومجرد كائن يسعى للبقاء بأي وسيلة وتغيب العدالة وتنعدم الحماية ويصبح العنف اليومي جزءًا من الحياة العادية. وهكذا، يتقلص الأفق الإنساني للفرد من طموحات فكرية وثقافية إلى رغبة في البقاء فقط، وغالبًا ما يُدفع إلى خيارات أخلاقية صعبة مثل السرقة الهجرة أو الصمت أمام الظلم.

والإنسان في زمن الانهيار يتحول من كائن اجتماعي إلى كائن فردي مشوّش، تتراجع قدرته على التواصل والتفاعل، ويصبح مدفوعًا بالخوف أكثر من الأمل وهذه الحالة تخلق ما يُعرف بـ"اللاانتماء الوجودي"، حيث يشعر الفرد بالاقتلاع من محيطه، وفقدان الإحساس بالمعنى، مما ينعكس بشكل حاد على صحته النفسية والعقلية.

ج. الرواية وتوثيق التحوّل الاجتماعي في زمن الانهيار

تُوصل الرواية بوصفها أداة سردية فريدة صورة دقيقة عن حالة المجتمع والإنسان في أزمنة الانهيار إذ تتيح إمكانية توثيق التحولات العميقة في البنية الاجتماعية وتحليل التجربة الفردية في ظل الفوضى والدمار. وقد استطاعت الرواية العربية والعراقية بشكل خاص بعد الغزو الأمريكي عام 2003م أن تنقل نبض الشارع وتُجسّد الخوف والخذلان والضياع مقدّمة الإنسان كضحية للمأساة ومقاومٍ لها وشاهدٍ عليها في آنٍ واحد.

تسجد في رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي، الشخصية المحورية مزيجًا من أجساد الضحايا، في إشارة إلى وحدة المعاناة وهشاشة المجتمع وتوحّش الواقع كما نقرأ في "وحدها

شجرة الرمان" لسنان أنطون تمثيلات لمجتمع يتآكل من الداخل وأفراد يتنازعون بين الذاكرة والنسيان وبين الحنين والفقد وهذه الروايات ليست مجرد أعمال فنية فقط، بل تمارس دورًا سوسيولوجيًا في تفكيك الواقع وتحليله.

د. القيم الاجتماعية تحت الضغط – هل تنهار الأخلاق؟

يُختبر الإنسان في زمن الانهيار أمام قيمه الأخلاقية التي تتعرض لهزات عنيفة حيث تتراجع مظاهر التعاون والتسامح والتكافل لتحل محلها مشاعر الشك والأنانية واللامبالاة وربما الخيانة. ومع ذلك تنجح بعض المجتمعات رغم الخراب في إعادة بناء أشكال جديدة من التضامن تستند إلى الروابط الأهلية أو المبادرات الفردية مما يعكس قدرة الروح الإنسانية على التكيّف والصمود. "وهنا تظهر مفارقة عميقة؛ في زمن الانهيار، إما أن تموت القيم أو تُولد من جديد داخل جراح المجتمع ذاته"[192].

هـ. الأمل رغم الانهيار– المساحات الإنسانية الممكنة

تتواصل الحياة رغم كل الملامح القاتمة، إذ لا تموت المجتمعات بالكامل. فهناك دومًا من يسعى إلى البناء من جديد، وإحياء الروابط الاجتماعية وإطلاق مبادرات تُنقذ ما تبقى من الروح الجماعية وفي هذا المناخ تنبثق سرديات بديلة تنحاز للأمل والعدالة والترميم النفسي والاجتماعي وتتحوّل أدوات مثل الكتابة والفن والذاكرة الجماعية إلى وسائل مقاومة وبقاء واستعادة للمعنى في وجه الانهيار ويمكن القول إن "زمن الانهيار" لا يعرّي فقط هشاشة الأنظمة بل يكشف أيضًا عن عمق التفاعل بين الإنسان ومجتمعه وكيف يُعاد تشكيل هذا التفاعل في ظل الفوضى والغياب. ففي حين تتعرض البنى الاجتماعية للتفكك فإن الإنسان

[192] Alain Touraine, Thinking Differently, Polity Press, 2007.

يُعاد تعريفه أيضًا بين كونه ضحية وصامد شاهد وفاعل، خائف وآمل. ويظل الأدب – خاصة الرواية – الفضاء الأعمق لقراءة هذه التحولات، وتحويلها من مشهد عابر إلى شهادة خالدة في الوعي الجماعي.

2. أثر الحروب والنزاعات على العلاقات الإنسانية

تشكل الحروب والنزاعات المسلحة أحد أعنف التحديات التي تواجه العلاقات الإنسانية في المجتمعات الحديثة والمعاصرة. فهي لا تُدمّر فقط البيوت والبنية التحتية، بل تُعيد صياغة الروابط بين الأفراد، وتُحدث خللًا في منظومة الثقة والأمان والتعايش. ومع تصاعد أشكال العنف، وازدياد الانقسام السياسي أو الطائفي، تتعرض العلاقات الاجتماعية لتآكل بطيء لكنه عميق، يتجلى في انعدام الثقة وسيادة الخوف وانتشار الشعور بالوحدة والانعزال. يبحث هذا الفصل في الكيفية التي تؤثر بها الحروب في صميم النسيج الإنساني، من خلال تحليل ثلاث ظواهر مترابطة: فقدان الثقة والخوف الاجتماعي وتشتت العلاقات.

أ. فقدان الثقة – حين يصبح القريب غريبًا

الثقة الاجتماعية هي العمود الفقري لأي مجتمع مستقر، وهي التي تمنح العلاقات معناها واستمراريتها. لكن في ظل الحروب، تنهار هذه الثقة بسرعة، خصوصًا عندما يُستخدم العنف من قبل أطراف داخلية، أو تُرتكب الخيانات، أو تنتشر الوشايات، أو تُدار الحروب على أسس طائفية أو عرقية. ففي المجتمعات المنقسمة بفعل النزاع، يصبح الجار متّهَمًا، والصديق مشكوكًا فيه، وتتحول الذاكرة الجماعية إلى مساحة للريبة والاتهام وهذا الانهيار في الثقة لا ينتهي مع نهاية المعارك، بل يستمر لعقود، مما يُعقّد جهود المصالحة، ويؤخر بناء السلام.

ويظهر هذا بوضوح في تجارب مثل الحرب الأهلية اللبنانية، أو ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، حيث انعدمت الثقة بين المكونات الاجتماعية، واستمر الخوف من الغدر أو الانتقام

حتى داخل العائلات نفسها. فقدمت الرواية العربية كمرآة دقيقة لهذا الواقع شخصيات تتكلم عن خيانة الأصدقاء، وانهيار الصداقات، وتحوّل أماكن الطمأنينة إلى ساحات للاشتباه.

ب. الخوف – سلوك اجتماعي جماعي

الخوف في زمن الحرب لا يُعتبر مجرد حالة نفسية فردية، بل هو ظاهرة اجتماعية تنتشر وتتشكل في الوعي الجماعي. إذ يصبح الحذر، والكتمان، والتخفي، جزءًا من السلوك الجماعي، ويحل محل الصراحة والانفتاح. يتحول الخوف إلى منظومة غير مرئية من الضوابط الاجتماعية، تنظم علاقات الناس في ظل غياب الأمان والقانون. ويترتب على ذلك تفكك العلاقات العاطفية، وغياب الحوار الصادق، وزيادة العزلة، وازدياد العنف المنزلي، بل وحتى انعدام الثقة داخل الأسرة الواحدة.

ويؤدي هذا إلى صعود ثقافة "الصمت القهري"، حيث يصبح الحديث عن الماضي أو عن الجرائم المرتكبة مصدرًا للخطر في بعض الروايات العراقية والسورية تظهر شخصيات تمارس الرقابة الذاتية على كلامها، وتخاف حتى من التعبير عن مشاعرها، مما يعكس حجم القلق الوجودي الذي تولّده الحروب في الكيان الفردي والجماعي.

ج. التشتت – تمزّق الروابط وتمدد اللا مكان

واحدة من أخطر نتائج الحروب هي تشتت العلاقات الاجتماعية سواء عبر النزوح، أو الهجرة القسرية، أو الموت، أو الخيانة. تصبح الروابط التقليدية – كالأسرة والمجتمع المحلي والحي والمدينة – مهددة بالتفكك، ويفقد الإنسان جذوره، ومراكز ثقله الوجدانية. وفي ظل النزاع،

لا يضيع المكان فقط، بل يُفقد المعنى، وتتحول الحياة إلى محاولة دائمة للنجاة لا للتواصل أو الانتماء"[193].

تُعبّر الرواية عن هذا التشتت من خلال شخصيات مشردة أو لاجئة أو منفية تحاول استعادة شيء من إنسانيتها عبر الحنين، أو الرسائل، أو التذكّر. وتتحول الأمكنة – مثل البيت، أو المدرسة، أو الشارع – من فضاءات للألفة إلى رموز للفقد والقطيعة حيث في رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون، نشهد بطلاً يعاني من التشتت المكاني والنفسي، لا يعرف أين ينتمي، ولا ما إذا كان ما تبقى من العلاقات الإنسانية يستحق أن يُرمَّم.

3. التفاعل الاجتماعي في الرواية المعاصرة

تعد الرواية المعاصرة من أبرز الأشكال الفنية التي تناولت التحوّلات الاجتماعية الكبرى الناتجة عن الحروب والنزاعات والاضطرابات السياسية. فهي تمثّل مرآة دقيقة ومركّبة توثق من خلالها الكاتبة أو الكاتب التغييرات التي تصيب العلاقات الإنسانية في زمن التشظي والانهيار. ومن خلال السرد والبنية والشخصيات والأمكنة تتجلى الرواية كأداة تحليل اجتماعي وإنساني تتيح لنا فهم مدى تراجع أو صعود القيم والعلاقات بين البشر وهنا نركّز على تمثيل التفاعل الاجتماعي في الرواية المعاصرة من خلال محورين متكاملين: النماذج الإنسانية التي تجسّد غياب أو بروز القيم الإنسانية، ورمزية الأماكن التي تحولت في الأعمال السردية إلى فضاءات تعبّر عن شكل العلاقات بين البشر بعد الحرب.

تقدّم الرواية المعاصرة شخصيات متباينة من حيث استجابتها للأحداث الجذرية التي عصفت بالمجتمعات فبعض الشخصيات يظهر فاقدًا لإنسانيته، متمركزًا حول ذاته، غارقًا في الخيانة أو الصمت أو العنف، وكأن النزاع قد جرّده من أية قدرة على التواصل أو الرحمة وفي المقابل،

[193] Michael Ignatieff, The Warrior's Honor: Ethnic War and the Modern Conscience, Henry Holt and Company, 1997.

تظهر شخصيات أخرى – أحيانًا في أكثر الظروف قسوة – متشبثة بقيمها الأخلاقية، قادرة على بناء علاقة أو الدفاع عن الآخر، أو ببساطة المحافظة على جوهرها الإنساني في عالم يتآكل. فنجد في رواية "التلصص" لعلي بدر، كيف يصور الكاتب المجتمع بعد الحرب بوصفه مجالًا يتحكم فيه الخوف والانهيار الأخلاقي، حيث يُنتزع من الناس حسّهم الإنساني، وتُستبدل العلاقة الاجتماعية بالتوجس والعزلة ويظهر غياب الإنسانية في الرواية من خلال تحوّل البشر إلى أدوات للبقاء، لا كائنات تبحث عن المعنى أو المبدأ. بالمقابل، تقدم رواية "فهرس" لسنان أنطون شخصية نعيم، الذي، رغم تشظّيه النفسي واغترابه، يحتفظ بعلاقته بالكتاب والذاكرة العائلية، كفعل من أفعال المقاومة الثقافية والإنسانية، رافضًا الاستسلام للعنف أو للاغتراب التام.

أما المكان في الرواية المعاصرة، فقد تحوّل من كونه حيّزًا محايدًا أو خلفية للسرد، إلى عنصر رمزي فاعل ومعبّر عن العلاقة بين الذات والآخر، وبين الفرد والمجتمع، فالمنفى، مثلًا لم يعد مجرد ابتعاد جغرافي، بل يمثل الفقد والانفصال عن الأصل والتوق إلى الروابط المقطوعة. وهو مكان تغيب فيه العلاقات التقليدية ويُستبدل بها أشكال هشّة من التفاعل أو العزلة. أما المعتقل، فيظهر في عدد كبير من الروايات كحيز مغلق قمعي، لكنه يحمل مفارقة رمزية، إذ قد يتحول إلى مكان تنشأ فيه أواصر جديدة قائمة على التضامن والصبر والمشاركة، كما تعكسه شخصيات الروايات التي تشهد صمتًا جماعيًا مليئًا بالمعنى. "ففي الرواية، قد يتحول الجحيم – كالمعتقل – إلى مساحة يتجلى فيها النقاء الأخلاقي، ولو بشكل نادر"[194]. البيت بدوره، يرمز إلى المركز العاطفي والأسري، لكنه حين يُهدد أو يُفقد، كما في رواية "طشاري" لإنعام كجه جي يفقد الفرد شعوره بالاستقرار والهوية، ويضيع معه معنى العلاقة مع المكان والناس. وتظهر

[194] Jean Amery, At the Mind's Limits: Contemplations by a Survivor on Auschwitz and Its Realities, Indiana University Press, 1980.

المقبرة في كثير من الأعمال كفضاء نهائي، لكنها أيضًا فضاء للتأمل والتصالح، تمثّل آخر نقطة ممكنة لاستعادة الذات أو الاعتراف بالفقد، كما في رواية "وحدها شجرة الرمان" حيث تتحول المقابر إلى مشاهد دائمة للوداع المفتوح الذي لا يُغلق.

أما المدينة في الرواية العربية الحديثة فقد شهدت تحوّلًا سرديًا عميقًا. فلم تعد المدينة مركزًا للتنوّع الثقافي أو للتفاعل الاجتماعي المتعدد، بل أصبحت، في كثير من الأحيان، مرادفًا للرقابة والاختناق والخوف من الآخر. هذا التحول لا يعبّر فقط عن تغيّر جغرافي أو ديموغرافي، بل عن تحوّل حاد في طبيعة العلاقات الاجتماعية داخلها، بحيث تصبح العلاقة مع المكان انعكاسًا دقيقًا للعلاقة مع المجتمع والذاكرة والمستقبل.

في ضوء ما سبق، نستنتج أن الرواية المعاصرة، من خلال شخصياتها وأمكنتها، لا تسرد فقط تفاصيل حياة متضررة من الحرب، بل تعيد بناء شكل العلاقات داخل هذا الخراب. فهي ترصد كيف يمكن لإنسان أن يحافظ على صوته وسط العتمة، أو كيف يسقط حين يغيب الآخر أو يتحول إلى عدو وهي – بهذا المعنى – وثيقة اجتماعية وأخلاقية، تقدّم تصورًا عميقًا لتفكك العلاقات الإنسانية أو إعادة تشكيلها، وتطرح السؤال الجوهري: هل لا تزال العلاقة بالآخر ممكنة بعد كل هذا العنف؟

4. أثر التكنولوجيا الحديثة على العلاقات الإنسانية

شهدت العقود الأخيرة ثورة تكنولوجية عارمة أعادت تشكيل كل مجالات الحياة، ومن أبرز هذه المجالات العلاقات الإنسانية. فقد دخلت الوسائط الرقمية، ووسائل التواصل الاجتماعي، والهواتف الذكية إلى التفاصيل اليومية، وغيّرت طريقة تفاعل البشر وطرحت أسئلة جديدة حول طبيعة العلاقة بين الفرد والآخر. ورغم أن هذه الوسائل قُدّمت كأدوات للتواصل والانفتاح، إلا أن كثيرًا من الدراسات والأدبيات الاجتماعية تشير إلى أن التكنولوجيا

الحديثة – وخاصة في سياق ما بعد الأزمات والحروب – لم تخلق دائمًا مزيدًا من القرب، بل غالبًا ما عمّقت من الشعور بالوحدة والانفصال، وقلّصت من نوعية التفاعل الوجداني بين البشر. في هذا الفصل نحلل كيف أسهمت العزلة الرقمية وفقدان التواصل الوجداني في تغيير البنية الاجتماعية والعلاقات الإنسانية في العصر الراهن.

من أبرز الظواهر التي ترتبت على الاستخدام المكثف للتكنولوجيا "ظاهرة العزلة الرقمية". حيث بات كثير من الأفراد، رغم ارتباطهم المستمر بالشاشات، يشعرون بفراغ داخلي وعزلة اجتماعية حقيقية. فهم يتفاعلون افتراضيًا مع مئات الأشخاص، دون أن تكون لهذه التفاعلات عمق أو أثر حقيقي في حياتهم العاطفية أو الاجتماعية. هذا ما يعرف في علم الاجتماع بـ"الازدحام الرقمي والعزلة العاطفية"، حيث يبدو الإنسان متصلاً طوال الوقت، لكنه في الحقيقة يفتقد أي نوع من الارتباط الحميمي أو الحضور الواقعي. "لقد خلقت الوسائط الرقمية بيئة جديدة من العلاقات، تقوم على السرعة والسطحية والانقطاع مما جعل الإنسان أكثر عرضة للقلق الاجتماعي وفقدان الحميمية"[195]. ولم تعد العلاقات تُبنى بالصبر والمشاركة والمواجهة، بل أصبحت خاضعة لمنطق الإعجاب والرد السريع والمحتوى العابر وهو ما أفرز جيلاً يشعر باضطراب في الهوية والانتماء.

إلى جانب العزلة الرقمية، برز فقدان التواصل الوجداني كأحد أخطر مظاهر تفكك العلاقات في العصر الرقمي. فالتكنولوجيا، رغم قدرتها على تسهيل التفاعل، حرمت الإنسان من كثير من أدوات التعبير الحسي والعاطفي، مثل النظرة، أو اللمسة، أو الصمت المشترك، وكلها عناصر جوهرية في بناء الروابط الإنسانية. في ظل هذا الواقع، باتت العلاقات أكثر هشاشة، وأكثر عرضة للانقطاع وسوء الفهم، لأن التكنولوجيا لا تنقل المشاعر بدقّة، ولا تتيح

[195] Sherry Turkle, Alone Together: Why We Expect More from Technology and Less from Each Other, Basic Books, 2011.

للمستخدم أن يشعر بوجود الآخر الكامل. "لقد تراجعت اللغة الوجدانية لصالح لغة الرموز والإيموجي، مما أفقد التفاعل عمقه العاطفي، وجعل العلاقات تختصر إلى مؤشرات سطحية من الردود والمشاركة"[196].

إن أخطر ما في تأثير التكنولوجيا الحديثة هو أنها تحاكي القرب دون أن تحققه فعليًا. فمحادثات الفيديو، والتعليقات، والمتابعة، كلها تمنح الإنسان شعورًا زائفًا بالارتباط، بينما هو في الواقع يزداد ابتعادًا عن اللقاء الحقيقي والوجدان المتبادل. وهذا الانفصال لا يؤثر فقط على العلاقات الشخصية، بل يمتد إلى بنية المجتمع ككل، حيث تفقد المجتمعات حسّها الجماعي، وتضعف الروابط بين الأجيال، وتنشأ أجيال جديدة لم تعد ترى في الحوار الوجهي أو الحضور الجسدي قيمة جوهرية. ويظهر هذا بوضوح في المجتمعات الخارجة من الحروب حيث يُفترض أن يكون هناك حاجات ملحّة لإعادة ترميم العلاقات من خلال التواصل الحقيقي، غير أن التكنولوجيا تعمّق في بعض الأحيان التباعد بدلًا من جسره.

إن الرواية المعاصرة بدأت مؤخرًا تلتفت إلى هذا البُعد، وتُصوّر كيف أن الشخصيات تعاني من التكلّم دون تواصل، والظهور دون حضور. فالعلاقات في السرد الجديد غالبًا ما تكون مشوّشة، مقطوعة، أو قائمة على الفهم الخاطئ، نتيجة الاعتماد على وسائط إلكترونية لا تعبّر عن الإحساس الكامل. بل إن بعض الشخصيات – كما في رواية " نساء عند خط الاستواء" لفاطمة عبد الله – تعيش مفارقة العزلة في ظل التواصل، حيث البطلة محاطة برسائل وصور، لكنها لا تجد من يفهم وجعها الحقيقي أو يشاركها صمتها. وهذا يعكس تحولًا عميقًا في طبيعة العلاقات في العصر الرقمي، الذي قدّم وسائط للتفاعل، لكنه لم يقدّم بالضرورة إنسانية أعمق.

[196] Byung-Chul Han, In the Swarm: Digital Prospects, MIT Press, 2017.

5. دورالمجتمع المدني والمنظمات في استعادة الإنسانية

تتجاوز جهود إعادة الإعمار، في أعقاب الكوارث والحروب، حدود إصلاح الأبنية والبنية التحتية، لتصل إلى إعادة بناء الإنسان ذاته، وإحياء قيمه وروحه وصلاته بمجتمعه. ويتقدم المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية في أداء هذا الدور، باعتبارها جهات فاعلة في ترميم العلاقات الاجتماعية التي تضررت، واستعادة البعد الإنساني الذي انهار تحت وطأة العنف والدمار. لا يقتصر دور هذه الجهات على تقديم الدعم المادي، بل يتسع ليشمل وظائف تربوية وأخلاقية وثقافية تهدف إلى ترميم الوجدان الجمعي، وتعزيز قيم الكرامة والعدالة والتضامن. ومن خلال أدواتها المتنوعة، كالإغاثة الإنسانية، وبرامج الدعم النفسي، والحملات المجتمعية، والخطاب الحقوقي، تسعى هذه المنظمات إلى استعادة ثقة الإنسان بذاته وبالآخر وبالمجتمع من جديد.

من أبرز أدوار المجتمع المدني في هذا السياق هو دوره الإغاثي، والذي يُعد خط الدفاع الأول لمواجهة الآثار المباشرة للنزاعات ففي ظل غياب أو عجز الدولة، تتدخل منظمات إنسانية لتقديم الغذاء والمأوى والرعاية الصحية والتعليم الطارئ. وهذا الدور، وإن بدا تقنيًا أو لوجستيًا، يحمل في جوهره بُعدًا إنسانيًا عميقًا، حيث يُعبّر عن قيمة الإنسان بغض النظر عن هويته أو انتمائه، ويُعيد له شيئًا من كرامته في لحظة الانكسار. "فإ الإغاثة في زمن الحرب ليست مجرد تبرعات، بل فعل مقاومة للوحشية، وإعلان أن الإنسان لا يزال موجودًا ويستحق الحياة"[197]. وتقوم هذه الجهود، في كثير من الأحيان، بإعادة بناء الجسور بين المجتمعات المتصارعة، من خلال مبادرات عابرة للطوائف أو الأعراق، مما يضع أساسًا لتجديد الثقة المجتمعية.

[197] Mary B. Anderson, Do No Harm: How Aid Can Support Peace – Or War, Lynne Rienner Publishers, 1999.

إلى جانب الدور الإغاثي، يُمثّل التضامن الشعبي أحد أبرز الظواهر التي تُعيد بناء الروح الجمعية بعد الحروب. هذا التضامن قد لا يكون دائمًا منظّمًا، بل قد يظهر في شكل مبادرات فردية، أو حملات مجتمعية، أو مواقف أخلاقية يتخذها الناس تجاه بعضهم البعض، خاصة في المناطق المنكوبة. ففي لحظات الانهيار، تصبح هذه الأفعال الصغيرة – كإيواء جريح، أو مشاركة الطعام، أو الدفاع عن الضعيف – أفعالًا ذات مغزى كبير في بناء الثقة الاجتماعية. ويعكس التضامن الشعبي قدرة الإنسان على رفض الانقسام، والبحث عن شراكة جديدة تقوم على التجربة المشتركة في الألم والمقاومة. "لذا فإن التضامن في زمن ما بعد الحرب ليس شعارًا سياسيًا، بل تجربة يومية تعيد الإنسان إلى الإنسان"[198].

أما على مستوى الخطاب، فإن المجتمع المدني يلعب دورًا مهمًا في بلورة خطاب ما بعد الحرب، وهو خطاب لا يقتصر على توصيف الألم، بل يسعى لتأطير تجربة العنف ضمن رؤى للعدالة الانتقالية والمصالحة وإعادة بناء الهوية الجماعية. فالجمعيات الثقافية، ومنظمات حقوق الإنسان ومؤسسات التعليم البديل، تساهم في صياغة سرديات جديدة لا تختزل الإنسان في كونه ضحية، بل تقدم له أدوات للفهم والتحليل والنهوض ويظهر هذا في العديد من المبادرات التي تتبناها المنظمات الدولية أو المحلية، والتي تُعنى بالتوثيق، وبناء المتاحف المجتمعية، وفتح المساحات للحوار، وإنتاج الأفلام والكتب والمنتديات التي تتيح للناس إعادة كتابة قصصهم بأنفسهم. وتكمن أهمية هذا الخطاب في أنه يسحب الإنسان من موقعه السلبي، ويمنحه صوتًا وفاعلية ضمن مشروع جماعي للنجاة. "إن خطاب ما بعد الحرب هو استرداد للذات الجماعية، ومحاولة لصياغة معنى جديد للوجود الإنساني بعد أن تهشّم"[199].

---

[198] Emmanuel Levinas, Humanism of the Other, University of Illinois Press, 2006.

[199] Martha Minow, Between Vengeance and Forgiveness: Facing History after Genocide and Mass Violence, Beacon Press, 1998.

ومن الجدير بالذكر أن فاعلية المجتمع المدني في استعادة الإنسانية ليست مرتبطة فقط بالإمكانات المادية أو الدعم الدولي، بل تعتمد أساسًا على السياق الثقافي والاجتماعي الذي تعمل فيه هذه المنظمات، وعلى قدرتها على الإنصات للناس، لا على فرض الرؤى عليهم. فالمجتمعات الخارجة من الحرب لا تحتاج فقط إلى الخيام والأدوية، بل إلى استعادة الثقة، والاعتراف بالوجع، وإعادة تعريف ذاتها خارج منطق الانتقام أو الخوف. ولهذا، يُنظر إلى المجتمع المدني باعتباره امتدادًا للضمير الإنساني، وساحةً لولادة علاقات جديدة قادرة على مواجهة الخراب.

وفي ظل ما تُخلّفه الحروب من فوضى في العلاقات والقيم، يظهر المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية كقوى مضادة للانهيار، وفاعلين أساسيين في استعادة البعد الإنساني في المجتمعات. فمن خلال الإغاثة، والتضامن، وبناء خطاب جامع، تسهم هذه الهيئات في إعادة ترميم الإنسان من الداخل، وتُعيد إحياء الروابط التي تآكلت تحت وطأة العنف. إنها لا تصنع معجزات، لكنها تزرع بدايات وتفتح مسارات نحو أفق جديد للعيش المشترك وأساسه الاعتراف والرحمة والمشاركة. وهذا ما يجعل دورها في مرحلة ما بعد الحرب دورًا استراتيجيًا، ليس فقط في البناء المادي، بل في إعادة بناء الذاكرة والعلاقات والمعنى.

6. الإنسانية والهوية: هل يمكن أن يكون الإنسان إنسانيًا رغم انتماءاته؟

العلاقة بين الإنسان وإنسانيته في ظل انتماءاته الدينية والطائفية والقومية والاجتماعية من أعقد الأسئلة الفلسفية والاجتماعية في الأزمنة الحديثة. ففي عالم تمزّقه الحروب والانقسامات والهويات المتصارعة، يُطرح السؤال بإلحاح: هل يستطيع الإنسان أن يظل إنسانيًا – أي عادلًا، متعاطفًا، منفتحًا على الآخر – في الوقت الذي ينتمي فيه إلى جماعة أو عقيدة أو هوية محددة؟ وهل تسمح الانتماءات للفرد أن يُمارس القيم الكونية مثل الرحمة،

والتسامح، والعدالة، أم أنها تقيّده ضمن إطار "نحن" و"هم" وتدفعه نحو الإقصاء والكراهية؟ هذا الفصل يناقش هذه الإشكالية من منظور فلسفي وسوسيولوجي وأدبي، مستندًا إلى ما تعكسه الرواية المعاصرة وتجربة ما بعد الحرب في محاولة للإجابة على هذا السؤال الإنساني العميق.

إن الانتماء هو حاجة إنسانية لا يمكن إنكارها حيث يولد الإنسان منتمياً إلى ثقافة، ودين، ومكان، وتاريخ، وهي انتماءات تشكّل هويته وتمنحه الشعور بالمعنى والاستقرار. غير أن هذه الانتماءات يمكن أن تتحول، في ظروف الصراع، إلى أدوات فرز وعداوة، تقف حائلًا بين الإنسان وبين جوهره الإنساني. ويحدث هذا خصوصًا عندما تُبنى الهوية على نفي الآخر، أو على أساس التفوق، أو حين يُربط الانتماء بالألم والاضطهاد التاريخي فيصبح دافعًا للانتقام بدلًا من التفاهم وفي هذا السياق كثيرًا ما يذوب الوعي الإنساني في الوعي الجماعي، وتُختزل العلاقة مع الآخر في كونه تهديدًا أو خصمًا. "لذا فإن الهوية حين تتحول إلى قيد، لا تبني الإنسان بل تحبسه في قوقعة تُعادي التعاطف وتمنع الحوار"[200].

لكن على الجانب الآخر، هناك من يؤكد أن الانتماء لا يتناقض بالضرورة مع القيم الإنسانية، بل قد يكون مصدرًا لها، فالإنسان الذي ينتمي بوعي، يمكن أن يستمد من تجربته الدينية أو الثقافية قيمًا عالمية، ويترجمها في سلوكه مع الآخر. فالانتماء، إذا لم يُبنَ على التعصب، بل على المعرفة، قد يعمّق فهم الإنسان لذاته، ويجعله أكثر انفتاحًا على تنوع الآخرين وفي هذا الإطار، يبرز مفهوم "الهوية المركبة" التي يرى فيها بعض المفكرين، مثل أمين معلوف، نموذجًا لعيش الإنسان في أكثر من دائرة انتماء دون تناقض. "والهوية ليست سجنًا بل فسحة

[200] Kwame Anthony Appiah, The Ethics of Identity, Princeton University Press, 2005.

للانتماءات المتعددة، والإنسان الإنساني هو من ينجح في العيش بتوازن بين الخصوصية والانفتاح"[201].

الرواية، بوصفها جنسًا أدبيًا يقوم على التعدد والاختلاف والاعتراف، غالبًا ما تتبنى هذا الصراع بين الهوية والإنسانية. ففي كثير من الأعمال، تظهر الشخصيات ممزقة بين ولائها لجماعتها، وتعاطفها مع من يُفترض أنه "العدو". وقد تُصوَّر الحروب الأهلية والطائفية بوصفها لحظات اختبار قاسية، تكشف إن كان الفرد قادرًا على تجاوز انتمائه الضيق لصالح رؤية إنسانية أوسع. ففي رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح مثلًا تتجلى إشكالية الهوية والإنسانية من خلال الصراع بين الشرق والغرب، والانتماء والاختلاف، والذات والآخر. ويظل البطل معلقًا بين انتمائه السوداني، وتجربته في أوروبا، وبين سؤال دائم: أين تقف إنسانيته وسط كل هذا؟ وفي رواية "سيدات القمر" لجوكها الحارثي، تظهر شخصيات نسائية تنتمي إلى طبقات وثقافات محافظة، لكن بعضهن يمارسن فعل التعاطف والمساعدة مع نساء من خلفيات اجتماعية وأخلاقية مختلفة، مما يعكس تجاوز الهوية الاجتماعية لصالح شعور عميق بالرحمة الإنسانية. كذلك، نجد في روايات ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق مثل "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون، نماذج إنسانية تحاول النجاة من منطق الهويات القاتلة، حيث يُرفض تصنيف الناس على أساس الطائفة أو القومية، وتظهر شخصيات تنأى بنفسها عن دائرة الانتقام، وتبكي على الضحية أيًّا كان انتماؤه. وفي هذه اللحظات، يكتشف القارئ أن الإنسان قد يكون أكثر إنسانية عندما يُدرك فظاعة ما يمكن أن تفعله الهويات المغلقة بالبشر.

[201] Amin Maalouf, In the Name of Identity: Violence and the Need to Belong, Penguin Books, 2001.

وهنا يصبح الجواب الممكن عن سؤال الفصل هو أن الإنسان يمكن أن يكون إنسانيًا رغم انتمائه، فإذا كان هذا الانتماء واعيًا، نقديًا، ومنفتحًا، وغير قائم على نفي الآخر أو احتقاره . فالانتماء ليس الخطر، بل طريقة توظيفه هي ما تصنع الفارق. والمجتمعات التي تربي أبناءها على فهم عميق لتاريخهم، لكنها في الوقت نفسه تفتح أمامهم نوافذ على العالم، وتعلمهم أن الآخر ليس تهديدًا بل فرصة لفهم الذات، هي المجتمعات القادرة على إنتاج بشرٍ أكثر عدالة ورحمة.

إن سؤال العلاقة بين الإنسانية والانتماء سيظل سؤالًا مفتوحًا في زمن تتعالى فيه الأصوات التي تدعو إلى الانغلاق والهوية الصلبة. لكن الأدب والخبرة الإنسانية والتاريخ تقدم لنا أمثلة متكررة على أن الإنسان في لحظات الاختبار القصوى يستطيع أن يعلو فوق انتمائه أو يوسّعه ليشمل الآخر لا ليستثنيه. وهنا تتجلّى الإنسانية بوصفها خيارًا أخلاقيًا، لا ناتجًا طبيعيًا للانتماء. إنها قرار يتخذه الفرد حين يختار أن يرى في الآخر إنسانًا لا خصمًا، وفي الاختلاف فرصة لا خطرًا. وهذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه المجتمعات الحديثة في سعيها نحو سلام داخلي وخارجي.

الفصل الثالث
الإنسانية والأدب

إن الأدب هو من الوسائل الفريدة التي تعبّر عن الإنسان وهويته وتُجسّد قضاياه بعمق نفسي وأخلاقي يتجاوز ما يمكن أن تحققه القوانين والسياسات الرسمية. ففي سياقات الحروب والصراعات التي تعمّق من أزمة الإنسان وتهدد حقوقه الأساسية يبرز الأدب كفضاء حيّ يُعيد الإنسان إلى صورته الكاملة، موثقًا صراعاته وآلامه وأحلامه بطرق فنية تعبّر عن تجاربه الخاصة والعامة في آنٍ واحد. إن الأدب لا يكتفي بوصف الظلم أو الانتهاك، بل يقوم بفعل مقاوم من خلال منح الصوت لمن لا صوت لهم، واستحضار الضمير الجماعي، وتقديم سرديات بديلة تحرّك الوعي وتُطالب بالعدالة والإنسانية. "فإن الأدب بحساسيته وقدرته على الدخول إلى أعماق النفس، يتمتع بخصوصية تمكنه من تحدي الظلم والمجتمع القائم وتقديم بديل إنساني لا يكتفي بالقانون فقط بل يتخطاه نحو التغيير الجذري"[202].

على الجانب الآخر لا يمكن للأدب أن يحلّ مكان القانون أو السياسة باعتبارها أدوات تنظيمية تحكم العلاقات المجتمعية والدولية لكنه يمتلك القدرة على ملء الفراغ الذي تخلّفه هذه المؤسسات حين تفشل في حماية الإنسان أو حين تُغلق الأبواب أمام العدالة الحقة ويُعتبر الأدب فضاءً للتعبير عن المظلومين وللمساءلة الأخلاقية ولإعادة بناء الذاكرة الجماعية وهو بذلك يكمّل النقص القانوني والسياسي بإثارة الحوارات الثقافية والفكرية التي تُفضي إلى وعي إنساني أعمق. "ولذا يمكن اعتبار الأدب قوة ناعمة تعمل على تشكيل الوعي الاجتماعي والسياسي، وتؤثر في القرارات من خلال التأثير على المشاعر والأفكار، وهذا ما يجعل منه أداة

[202] Martha Nussbaum, Poetic Justice: The Literary Imagination and Public Life, Beacon Press, 1995.

مهمة في الدفاع عن الإنسان عندما تغيب العدالة الرسمية"[203]. لهذا السبب، يمثل الأدب منصة ضرورية تتقاطع مع القانون والسياسة، لكنها تظل مختلفة في طبيعتها ووسائلها وأهدافها.

1. أشكال تجليات الإنسانية في الأدب العالمي

الأدب العالمي مرآةً عاكسة لتجربة الإنسان في أشد لحظات الألم والتحدي، إذ يحمل في طياته أشكالًا متعددة لتجليات الإنسانية التي تظهر من خلال الصراع والسجن والحصار والحرب والاضطهاد. فمن خلال الكلمات، تتبدّى قدرة الإنسان على التحمل وعلى التفاعل مع الآخرين، وعلى مقاومة القهر وعلى الحفاظ على كرامته الإنسانية رغم الظروف القاسية.

في هذا القسم، نركز على أبرز نماذج إنسانية ظهرت في أدب الحرب العالمية الكبرى وأدب السجون، مستعرضين نماذج من أبرز الأدباء الذين صنعوا من معاناة الإنسان مصادر إبداعية غنية تعبر عن عمق الإنسان وألمه وكفاحه.

2. تجليات الإنسانية في روايات الحرب العالمية

شهدت الحرب العالمية الأولى والثانية محطة تاريخية لم يسبق لها مثيل من العنف والهدم حيث أدت إلى تفتت القيم الإنسانية التقليدية وأثارت سؤالًا جوهريًا حول قدرة الإنسان على الحفاظ على إنسانيته وسط هذا الخراب. هنا تبرز أهمية الأدب الحربي كفضاء لتوثيق التجربة الإنسانية من منظور شخصي وأخلاقي.

في أعمال ألبير كامو، مثل "الغريب والطاعون"، نجد تصويرًا عميقًا للإنسان في مواجهة العبثية والقتل، حيث يُطرح السؤال عن معنى الوجود والرحمة في عالم يسيطر عليه اللا معنى

[203] Joseph Nye, Soft Power: The Means to Success in World Politics, PublicAffairs, 2004.

والموت المفاجئ. كامو يعكس الإنسان بوصفه كائنًا يبحث عن معنى وإنسانية وسط العبث، متشبثًا بالحرية الفردية والمسؤولية الأخلاقية. هنا يكشف كامو كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على إنسانيته عبر قبول العبث والتمرد عليه في الوقت ذاته.

أما إرنست همنغواي، فقد قدّم في رواياته مثل "وداعًا للسلاح" "ووداعًا للأسلحة"، تصويرًا واقعيًا ومؤلمًا عن جنود الحرب الذين يعيشون حالة من التمزق النفسي والجسدي، ويواجهون الموت كجزء من حياتهم اليومية. ولكن على الرغم من هذه القسوة، تبرز لحظات من التعاطف والصداقة والحب كملاذات إنسانية تُظهر قدرة الإنسان على الاحتفاظ بكرامته وسط الخراب. همنغواي يبرز ما أسماه "نظافة الروح" التي تظل صامدة رغم الفوضى. إن الإنسان في أعمال همنغواي هو من يواصل القتال من أجل بقاء إنسانيته في عالم فقد كل شيء تقريبًا. وفي روايات إريش ماريا ريمارك، مثل "على الغرب لا شيء جديد"، تُصوَّر مأساة الجنود الشباب الذين فُقدوا في دوامة العنف، ولكن الرواية تقدّم أيضًا مشاهد مؤثرة عن الأخوة والتضحية والحنان المتبادل في خضم الخراب. تعكس هذه الروايات تجليات إنسانية تتمثل في القدرة على التعاطف والتكاتف رغم ما يحيط بهم من دمار. ريمارك يرسم صورة الإنسان الذي لا يزال يحمل أملًا بالسلام والرحمة في قلبه، بالرغم من استسلام العالم للوحشية.

3. تجليات الإنسانية في أدب السجون

ظهر أدب السجون إلى جانب أدب الحرب كاتجاه أدبي بارز يعكس عمق التجربة الإنسانية في مواجهة القمع والحرمان والسجن بشقيه الجسدي والروحي. وقد استطاع الكُتّاب الذين خاضوا تجربة الاعتقال أو كتبوا عنها من الداخل أن يقدموا شهادات مؤثرة تكشف كيف يتمسك الإنسان بكرامته وإنسانيته رغم القيد والظلم.

ألكسندر سولجنتسين، في كتابه "معسكرات الاعتقال وأرخبيل غولاغ" كشف ببراعة عن نظام الاعتقال السوفييتي الذي سُجن فيه، موثقًا معاناة السجناء وما يكشفه هذا الواقع من مشاعر الخوف والألم والتمرد الداخلي. سولجنتسين يبرز أن الإنسانية الحقيقية تظهر في قدرة الفرد على الحفاظ على كرامته وضميره حتى في أكثر الظروف قسوة.

وفي أعمال جورج برنارد شو، رغم أنه لم يكن سجينًا، لكن كثيرًا من أعماله المسرحية والكتابية تناولت قضايا الظلم الاجتماعي والقمع الفكري، من خلال شخصيات تقاوم الاستبداد والتهميش، مؤكدة على ضرورة العمل الأخلاقي والتغيير الاجتماعي من أجل استعادة الكرامة الإنسانية. شو يرى في الأدب وسيلة لتحفيز الضمير الاجتماعي ورفع الوعي بالقضايا الإنسانية.

أما في الأدب العربي فقد أبدع غسان كنفاني في استحضار تجربة السجن والنفي الفلسطينيين، حيث صورت كتاباته مثل "رجال في الشمس" و"الأشجار تموت واقفة" معاناة الإنسان الفلسطيني في سجن الاحتلال أو الغربة. كنفاني لا يعبر فقط عن الألم السياسي، بل يرسم بوصلة إنسانية تركز على الكرامة، الصمود، والتمسك بالحقوق، رغم الظروف القهرية. "إن أدب كنفاني هو شهادة إنسانية توثق الألم الفلسطيني، لكنها أيضًا دعوة للحرية والإنسانية المشتركة"[204].

4. الأدب بوصفه "ذاكرة جماعية إنسانية"

الأدب لا يقتصر على كونه مجرد فن سردي، بل يتجاوز ذلك ليصبح حافظًا لذاكرة إنسانية جماعية وتوثق تجارب الشعوب وتحفظ إرث معاناتها وآمالها وتعيد إنتاج هويتها عبر الأجيال. وهذه الذاكرة الأدبية ليست ثابتة أو جامدة، بل هي ديناميكية، تتفاعل مع تغيرات الواقع وتعيد صياغة معاني الإنسان في ضوء تجارب التاريخ، خاصة في أوقات الأزمات وفي هذا

[204] Ghassan Kanafani, Men in the Sun, Hilal Publishing, 1963.

السياق، يمكن تقسيم دور الأدب كذاكرة جماعية إنسانية إلى جانبين رئيسيين: التوثيق العاطفي، والتمثيل الرمزي للمعاناة.

5. التوثيق العاطفي للإنسانية

التوثيق العاطفي هو من أهم أدوار الأدب إذ يمنح الأدباء القدرة على نقل الأحاسيس والمشاعر والآلام الشخصية والجماعية بشكل يجعل القارئ يتماهى مع التجربة الإنسانية. فالأدب يفتح نافذة إلى القلب ويتيح للآخر أن يعيش معاناة وآمال الضحايا، وأن يشعر بعمق الصراعات الداخلية التي ترافق الأحداث الخارجية. إن الشحنة العاطفية التي ينقلها النص الأدبي تلعب دورًا محوريًا في بناء التعاطف الإنساني وتوفير فضاء نفسي يسمح بمعالجة الصدمة والذاكرة المؤلمة. لذا فإن التوثيق العاطفي في الأدب يعمل على بناء جسر بين الفرد والتاريخ، حيث يُحاكي الألم الجماعي بحساسية إنسانية عالية.

كما أن التوثيق العاطفي لا يقتصر على سرد الأحداث ببرودة، بل يعمد إلى إعادة إحياء التجربة الإنسانية من خلال تفاصيل دقيقة ولغة مشحونة بالمعاني، تجعل التجربة الجماعية شخصية، والفردية جامعة. هذا النمط من التوثيق يتجلى بوضوح في الأدب الذي يتناول الحروب الإبادة الجماعية واللجوء، حيث يتطلب سرد التجارب احترامًا عميقًا لمعاناة البشر بعيدًا عن التجريد أو التشويه.

6. التمثيل الرمزي للمعاناة الإنسانية

يُشكّل التمثيل الرمزي للمعاناة آلية فنية متقدمة في الأدب تسمح بالتعبير عن الألم والظلم عبر رموز وصور وأساليب سردية تحمل أكثر من معنى واحد. من خلال الرمزية، يمكن للكاتب أن ينقل معانٍ متشعبة تلامس أبعادًا متعددة للتجربة الإنسانية، كالألم الجسدي والروحي

والسياسي والاجتماعي. فالرموز تجعل من المعاناة تجربة شمولية تتخطى حدود الزمان والمكان، وتصبح دعوة للتأمل في جوهر الإنسانية نفسها.

ويُعتبر هذا التمثيل أداة قوية في حماية الذاكرة الجماعية من التشويه أو النسيان، حيث يخلق طبقات من المعنى تتيح للقارئ إعادة اكتشاف التجربة بمرونة، وتستدعي الحوارات الثقافية المختلفة. فمثلًا، استخدام الطبيعة كرمز في أدب الحروب أو الشتات، كالأشجار التي تموت واقفة أو الأرض التي تُسلب يشير إلى التعلق بالوطن والهوية، وإلى الألم العميق الناتج عن فقدانهما. لذا فإن الرمزية الأدبية تعمل كأداة لتمثيل الألم والذاكرة الجماعية بطريقة تسمح بالتجديد الدائم للمعنى والتفاعل الثقافي".

وبهذا، يصبح الأدب ذاكرة حية لا تنسى، تحفظ تجارب الإنسان في أعمق مستوياتها النفسية، وتمنحها حضورًا دائمًا في الوعي الجمعي، فتتحول المعاناة من مجرد ذكرى مؤلمة إلى مصدر للتعلم، والفهم، والمصالحة.

7. تقنيات التعبير عن الإنسانية في الرواية

تعتمد الرواية كنوع أدبي مرن وعميق، على مجموعة من التقنيات السردية واللغوية التي تمكنها من التعبير عن أبعاد الإنسان الداخلية وتقديم تجربة إنسانية متكاملة، تلامس أعماق القارئ وتتجلى هذه التقنيات في اللغة المشحونة بالألم والسرد الذاتي والتعدد الصوتي والمفارقة والسخرية السوداء فكل منها يقدم آليات فريدة لتعميق الفهم الإنساني عبر النصوص الروائية.

أ. اللغة المشحونة بالألم في الإنسانية

اللغة في الرواية التي تتناول الإنسان في لحظات الألم والمعاناة لا تقتصر على كونها وسيلة نقل معلومات أو سرد أحداث، بل تصبح أداة حية تعبر عن الحالة النفسية والعاطفية

للشخصيات، إذ تتشح اللغة بتراكيب وصور تعبيرية تنقل وجع الإنسان، وتعكس مأساته بواقعية تحاكي المعاناة، مما يجعل القارئ يشعر وكأنه يعيش التجربة ذاتها. هذا النوع من اللغة يستخدم الرموز والتكرار واللغة التصويرية لنقل الألم بشكل مكثف، مما يُعزز من التفاعل النفسي ويخلق علاقة تعاطف عميقة. "فعلى ذلك اللغة المشحونة بالألم تحول الكلمات إلى جراح تُلامس الذاكرة والجسد معًا، فتفتح أبواب الفهم الإنساني"[205].

ب. السرد الذاتي والتعدد الصوتي في الإنسانية

السرد الذاتي هو تقنية تعتمد على تقديم القصة من منظور شخصية واحدة، أو عدة شخصيات، تسمح برؤية العالم من خلال عيون مختلفة، مما يضفي ثراءً وتنوعًا في الرواية. أما التعدد الصوتي فهو من سمات الرواية الحديثة، يُمكّن الكاتب من توظيف أصوات متعددة تعكس تعددية التجربة الإنسانية، بما فيها الاختلافات الفكرية والثقافية والنفسية وهذا التداخل في الأصوات يسهم في بناء صورة إنسانية شاملة ومتعددة الأبعاد، بعيدًا عن الصورة النمطية أو الأحادية. من خلال هذه التقنية، تصبح الرواية منصة للحوار بين الأصوات، حيث تتصارع أو تتوافق وجهات النظر، فتثري الفهم وتفتح المجال لتقبل التنوع.

ج. المفارقة والسخرية السوداء

تلعب المفارقة والسخرية السوداء دورًا هامًا في التعبير عن الواقع الإنساني المليء بالتناقضات، خاصة في سياق الألم والمعاناة. فالمفارقة تكشف التباين بين ما ينبغي أن يكون عليه الواقع، وبين ما هو عليه فعلاً، مما يبرز ظلمًا أو قسوةً أو عبثيةً تفرضها الظروف على الإنسان. أما السخرية السوداء، فهي تعبير نقدي يحمل بين طياته الألم والغضب، لكنه يستخدم الفكاهة

[205] Elaine Scarry, The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World, Oxford University Press, 1985.

السوداء لكشف الحقائق المريرة بطريقة تهز القارئ وتحفزه على التأمل. هذه التقنية لا تهدف إلى التهوين من الألم، بل إلى إبراز أبعاده المعقدة والواقعية، ومنح القارئ فرصة لإعادة التفكير في القضايا الإنسانية بعيون مختلفة. إن السخرية السوداء هي مرآة تكشف المأساة والعبثية في آن، وتجعل الألم موضوعًا للتأمل النقدي.

8. الرواية العراقية كخطاب إنساني مقاوم

شهدت الرواية العراقية في خضمّ الأزمات السياسية والغزوات والحروب والانقسامات الاجتماعية التي عصفت بالعراق تحوّلًا لافتًا من مجرد فن سردي إلى دور نضالي فاعل. فلم تكتف بالفرجة أو التوثيق البارد بل انخرطت بعمق في التعبير عن المأساة وجسّدت صوت الضحايا وصارت أداة مقاومة ثقافية ضد التهميش والعنف ومحاولات طمس الذاكرة. إنها لم تتوقف عند تسجيل الأحداث بل تجاوزت ذلك لتجعل من الكتابة فعلًا أخلاقيًا يحمل وظيفة مزدوجة؛ ترميم الوعي الجماعي من جهة ومساءلة الذات والمجتمع من جهة أخرى. الرواية العراقية أصبحت في هذا السياق خطابًا إنسانيًا يقف بوجه القوة ويحتضن المهزوم والمُبعَد والمُهمّش رافضًا خطاب الغلبة والانتصار الدموي. في هذا الخطاب تتجلّى ملامح سردية معقدة انتقلت من الواقعية المباشرة إلى الرمزية ومن صورة "البطل المنتصر" إلى صورة "المهزوم الكريم."

أ. التحول من الواقعية إلى الرمزية بسبب العنف

تميّزت بدايات الرواية العراقية في منتصف القرن العشرين بواقعية اجتماعية واضحة، إذ كانت الرواية وسيلة لنقل معاناة الإنسان العراقي ضمن سياقات الفقر والقمع السياسي والصراع الطبقي. غير أن تحولات كبيرة بدأت تطرأ مع اندلاع الحروب المتتالية، بدءًا من الحرب العراقية الإيرانية (1980م- 1988م) مرورًا بحرب الخليج الثانية (1991م)، ثم الغزو الأمريكي

عام 2003م، وما تبعه من احتلال وانفلات أمني وطائفي. تراكم هذه الأحداث ولد نوعًا من العجز اللغوي والذهني في التعبير عن فظاعات الواقع، مما دفع الأدباء إلى التخلي عن اللغة المباشرة، واعتماد تقنيات رمزية أكثر كثافة وغموضًا.

ففي رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي، على سبيل المثال، يتم خلق كائنٍ خيالي من أشلاء ضحايا التفجيرات، وهو يمثل مجازًا حيًا للكارثة الجماعية والانهيار الأخلاقي. فهذا الكائن الذي يسعى للعدالة، يتحول إلى رمز لفقدان النظام والمعايير ويصبح جسده بمثابة أرشيف حي للدم العراقي. التحول الرمزي في الرواية العراقية هو استجابة فنية لإضفاء عمق إنساني على تجربة العنف التي تبدو أحيانًا فوق قدرة التعبير الواقعي. فبدلًا من السرد التقريري، يستخدم سعداوي صورة هجينة بين الوحش والضحية ليطرح أسئلة حول مفهوم الجريمة والعقاب والهوية والعدالة.

هذا التوجه الرمزي لا يهدف إلى الهروب من الواقع، بل العكس، هو محاولة لإعادة تمثيله بعمق أكبر، عبر الصور والأفكار المركبة، التي تفتح المجال أمام القارئ ليشارك في إنتاج المعنى، وليرى المعاناة ليس فقط كألم، بل كمأزق أخلاقي وجودي.

ب. تجسيد "المهزوم الكريم" بدل "المنتصر القاسي"

تُعيد الرواية العراقية المعاصرة تعريف مفاهيم النصر والهزيمة فلم يعد الانتصار العسكري أو السياسي معيارًا أخلاقيًا يُحتفى به داخل النص بل باتت الشخصيات المنكسرة، التي تصمد بقيمها وتحافظ على إنسانيتها وسط الخراب، هي التي تعبّر عن جوهر الرواية وعمقها. هذه الشخصيات ليست مثالية أو خارقة بل بشرية بامتياز؛ تشك، وتتألم وتسقط أحيانًا، لكنها ترفض أن تتحول إلى أداة بيد العنف والكراهية. وبهذا المعنى، يصبح "المهزوم" في السرد العراقي

نموذجًا أخلاقيًا راقيًا يقدّم "هزيمة شريفة" تتفوق في معناها الإنساني على أي نصر ملوث بالدمار والقتل.

نجد ذلك في رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون حيث تتجسد صورة "المهزوم الكريم" في شخصية الشاب "جوهر" الذي يعمل في غسل جثث الموتى. وهو إنسان بسيط، لم يحمل سلاحًا ولم ينخرط في العنف لكنه يواجه الموت كل يوم، ويشهد على مآسي الآخرين دون أن يفقد حساسيته الإنسانية أو إيمانه بأن الرحمة هي الشكل الأعلى للبقاء. لذا يمكن اعتبار أن "المهزوم الكريم في الرواية العراقية هو رمز للإنسانية التي لا تموت، رغم قسوة الحرب وظلم المحتل"[206].

ولأن هذه الصورة تتناقض بشكل مباشر مع خطاب الدولة أو السلطة أو الطائفية التي تحتفي بالبطل المنتصر، حتى وإن كان مجرمًا أو قاتلًا. الرواية العراقية، من خلال هذا النموذج، تنزع البطولات الزائفة، وتُعيد الاعتبار للهزيمة النبيلة بوصفها موقفًا إنسانيًا راقيًا، يتجاوز منطق القوة ويؤمن بقوة الضمير.

كما نلاحظ هذا التحول في روايات مثل "تحت سماء كوبنهاغن" لحوراء النداوي، حيث تتصارع الشخصيات بين هوياتها المتعددة، ويبدو أن من يختار الرحمة والتسامح، حتى في موقف الضعف، هو من يستحق أن يُروى عنه وهناك انحياز واضح من الرواية العراقية للمهزومين أخلاقيًا، الذين يمثلون صوت الضحايا لا الجلادين والمُبعدين لا المحتلين والناجين لا القاهرين.

[206] Fawwaz Traboulsi, The Politics of Culture in Iraq, Saqi Books, 2015.

ج. الرواية العراقية كمنصة لاستعادة الإنسان

إن الرواية العراقية المعاصرة عبر هذه التحولات في الشكل والمضمون لا تقوم فقط بتوثيق الانهيار، بل تتجاوز ذلك نحو فعل رمزي يعيد الاعتبار للإنسان باعتباره مركز الكون، لا أداة في يد السياسة أو الحرب. ومن خلال تجسيد المهزوم الكريم واستخدام لغة رمزية مشحونة بالدلالات الأخلاقية والوجدانية، تتحول الرواية إلى خطاب مقاومة فريدة من نوعها، لا ترفع السلاح بل الكلمة، ولا تهدم بل تعيد البناء، ولا تفرض بل تفتح مساحات للحوار.

الرواية العراقية ليست مجرد انعكاس للأزمة، بل هي جزء من إنتاج الحلول الرمزية لها، ومن خلال تمثيل الإنسان ككائن هشّ لكنه نبيل، تضخ في القارئ شحنة وجدانية تحفزه على التفكير، بل وعلى اتخاذ موقف. فهي لا تبكي على الأطلال، بل تشير إليها، ثم تنظر أبعد منها، نحو مستقبل يُبنى بالكرامة والوعي.

9. مقارنة: الرواية العراقية مقابل الروايات العالمية في تناول الإنسانية

مفهوم "الإنسانية" أحد المحاور الكبرى التي تجمع بين الأدب العراقي الحديث والأدب العالمي وخصوصًا في الأعمال التي نشأت في سياق الحروب والسجون والاحتلالات أو الكوارث الاجتماعية والوجودية. وبالرغم من هذا الاشتراك في الهمّ الإنساني، فإن كل أدب يعبّر عن تلك القيم وفقًا لسياقه الحضاري والثقافي والتاريخي الخاص. لذلك، تأتي أهمية هذا الفصل في تقديم مقارنة بين الرواية العراقية ونظيراتها العالمية من حيث التجربة الإنسانية المتجسدة فيها، مع الوقوف على أوجه التشابه والتمايز، لبيان كيف تحولت الرواية العراقية إلى خطاب إنساني فريد في ظل واقع سياسي معقّد وعنيف.

أ. التشابه في التجربة الإنسانية

تُظهر الرواية العراقية المعاصرة شأنها شأن نظيراتها التي نشأت في ظروف الحرب والدمار في مختلف أنحاء العالم انشغالًا عميقًا بالقضايا الجوهرية للإنسان؛ إذ تعكس الألم الإنساني ومعاناة الفقد، وتمزق الهوية والصراع مع السلطة، وتجربة النفي القسري والسعي الحثيث نحو العدالة. فرغم اختلاف الأزمنة والجغرافيات تتلاقى هذه الروايات في فضاء إنساني مشترك يجعل من المعاناة الفردية مرآةً للمأساة الجماعية ومن السرد وسيلةً لتوثيق الحقيقة ومقاومة النسيان واستعادة الكرامة في وجه القهر والتمزق. فمثلا روايات أحمد سعداوي (فرانكشتاين في بغداد) أو سنان أنطون (وحدها شجرة الرمان)، تنطلق من تجربة اجتماعية واقعية لكنها تُعبّر في العمق عن أزمة إنسانية مشابهة لما نجده في روايات الحرب العالمية الثانية مثل روايات ريمارك (على الغرب لا شيء جديد) أو همنغواي (وداعًا للسلاح). كلا النوعين من الأدب يعالجان مصير الإنسان وسط الخراب ويطرحان أسئلة وجودية حول جدوى الحياة ومعنى الموت والقدرة على الاحتفاظ بالكرامة وسط الفوضى، إن التشابه بين الرواية العراقية ونظيراتها العالمية لا يقوم فقط على توحد التجربة مع الألم، بل على اشتراكها في اللغة الفنية التي تعيد للإنسان حضوره في قلب الأزمة، وتمنحه صوتًا في مواجهة الصمت القاتل للأنظمة والسياسات وفي كل من الروايتين العراقية والعالمية، يظهر الإنسان بوصفه مركز الصراع، لا كضحية صامتة، بل كفاعل يحاول أن يصوغ لنفسه معنىً وسط العدم، ولو عبر الكلمات.

كما يشترك الأدب العراقي والعالمي في استخدام تقنيات أدبية متقاربة مثل: السرد الذاتي، تعدد الأصوات والرمزية واستحضار الذاكرة، مما يجعل الخطاب الإنساني عابرًا للحدود. إن مشهد "الجندي المجهول" في رواية ريمارك يقابل شخصية "جوهر" في رواية أنطون، ومأساة الاغتراب في "الغريب" لألبير كامو.

ب. خصوصية السياق العراقي

تحمل الرواية العراقية طابعًا خاصًا يميزها عن غيرها من روايات الحروب نتيجة لسياقها التاريخي والسياسي المعقّد حيث يتداخل العنف مع الطائفية، ويرتبط الاحتلال بانهيار مؤسسات الدولة ويتحوّل الواقع اليومي في هذا السياق إلى مسرح دائم للفقد والصدمة. وتمتاز هذه الرواية بقدرتها على التعبير عن مآسي لا تقتصر على الألم الفردي بل تعكس معاناة جماعية متوارثة عبر الأجيال دون أن تجد حلًا سياسيًا أو قانونيًا يوقف هذا النزيف المستمر والرواية العراقية لا تكتفي بإظهار المعاناة بل تدخل في عمق الفوضى لتكشف عن بنية اجتماعية مختلة، وعن هشاشة العلاقة بين الإنسان ومحيطه وعن انهيار الثقة بين الفرد والدولة، وهو ما يجعل الكتابة فعلًا مقاومًا في حد ذاته. فهي ليست فقط وصفًا للمأساة بل محاولة لإعادة تعريف الذات في زمن العدم، وتوثيق الذاكرة الجماعية لشعب تعرض للقمع والحصار والغزو والانقسام ومن هنا نجد أن الخصوصية العراقية لا تقتصر على طبيعة الألم، بل تشمل غياب المساحة الآمنة للتعبير، مما يجعل من الرواية بديلاً ثقافيًا وضميريًا عن الدولة والقانون والمؤسسات. كما أن الرواية العراقية تُقدم صورة الإنسان الذي لا يحظى بأي حماية قانونية، ولا يعيش تحت مظلة سلام دائم، بل في ظل هشاشة مستمرة؛ وهو ما يجعل مفهوم الإنسانية في هذا الأدب ليس مجرد قيمة أخلاقية أو فلسفية، بل صرخة وجودية، تتحدى الانقراض والذوبان.

ج. بين الشمول والتفرد

يمكن القول إن الرواية العراقية قد تمكنت من الجمع بين الطابع العالمي من حيث انشغالها بالقيم الإنسانية الكبرى والطابع المحلي من حيث لغتها ورموزها ومرجعياتها الاجتماعية. هذا التوازن بين الشمول والتفرد هو ما يمنحها قوتها، ويجعلها حاضرة بجدارة في الأدب العالمي، إذ

أنها لا تكتب فقط عن " الإنسان العراقي"، بل عن الإنسان في كل مكان، لكنها تفعل ذلك من زاوية عراقية حادة وصادقة.

إن الإنسانية في الرواية العراقية ليست تجريدًا، بل مجسّدة بأسماء وأجساد ودم وهروب وخوف وهو ما يمنح هذه الروايات قوة استثنائية في نقل الألم والتاريخ معًا، بشكلٍ يجعلها قادرة على تجاوز حدود الأدب لتصبح وثيقة روحية وجمالية عن كيف يمكن الإنسان عندما يُطعن من الجميع ولكنه يرفض أن يفقد إنسانيته.

10. الأدب كوسيلة للشفاء الفردي والجماعي

يشكّل الأدب وسيلة عميقة لا تقتصر على توثيق المعاناة والنكبات في السياقين العراقي والعالمي، بل تتخطى ذلك لتُصبح فعلًا علاجيًا يساهم في شفاء النفس والروح لدى الكاتب والقارئ معًا. يتجاوز الأدب كونه مجرد وسيلة تعبير، ليتحوّل إلى أداة لتحرير الجراح الداخلية، واستعادة التوازن النفسي وبناء الذات من جديد. ويُعرف هذا الدور ضمن ما يُسمّى بـ"العلاج بالأدب" حيث تُمارَس الكتابة والقراءة كنوع من التطهير النفسي الذي يمنح الإنسان قدرًا من السيطرة على ألمه، ويعينه على تجاوز صدمته.

أ. الكتابة بعد الحرب – فعل من أجل النجاة

الحروب لا تُحدث فقط دمارًا ماديًا، بل تُخلف صدمة نفسية عميقة قد تمتد لعقود وفي غياب وسائل علاج مجتمعية فعالة، غالبًا ما يتجه الناجون إلى الكلمة كملاذ أخير، سواء كانوا كتابًا أو قراءً. الكتابة بعد الحرب تُصبح أداة لإعادة ترتيب الفوضى وتجميع شتات الذاكرة ومساءلة الألم بلغة قابلة للفهم، بدلاً من البقاء تحت سطوة الصمت القاتل.

وفي السياق العراقي، برزت هذه الظاهرة بشكل كبير، حيث نجد عشرات الروايات التي كُتبت بعد عام 2003م، تقدم شهادة سردية على الحرب والاحتلال والتهجير. ولكن ما يميز هذه

الكتابات هو أنها لا تنقل الألم فحسب، بل تحوّله إلى تجربة قابلة للفهم والمشاركة. فكما في رواية فهرس لسنان أنطون، نجد أن استعادة الذكريات الأليمة ليست هدفًا بحد ذاته، بل محاولة لفهم الذات بعد أن انكسرت، ولمد جسر بين الذاكرة والواقع الجديد. الكتابة بعد الحرب في الرواية العراقية لا تقوم فقط بوظيفة تسجيلية، بل تؤسس لعملية مقاومة علاجية تتيح للذات أن تندمل بالكلمات.

إن الكتابة هنا تتحول إلى شكل من أشكال النجاة، وتصبح بمثابة مرآة للنفس تعكس ما لا يمكن قوله بوسائل أخرى، مما يجعل الرواية مكانًا آمنًا لإعادة النظر في التجربة، والتصالح مع الندوب.

ب. البوح والتطهير (Catharsis) كعملية علاج جماعية

مفهوم التطهير أو "الكاتارسيس" (Catharsis) من أبرز المفاهيم الأدبية والنفسية التي تُبرز دور الأدب كأداة علاجية، وهو مفهوم مستمد من الفلسفة الأرسطية، حيث تُعد المأساة وسيلة لتطهير النفس من المشاعر السلبية كالحزن والخوف وذلك من خلال التفاعل العاطفي مع العمل الفني. في الرواية العراقية، يظهر هذا التطهير بوضوح عبر فعل البوح، إذ يتحول السرد إلى اعتراف جماعي، يشترك فيه الكاتب والقارئ، لتنشأ بذلك تجربة علاجية مفتوحة، تعيد التوازن النفسي وتمنح مساحة للتأمل والتعافي من آثار الألم الجماعي.

فالراوي الذي يبوح بتفاصيل صادمة من حياته، أو حياة الآخرين، يواجه ذاته أولاً ثم يحرر القارئ من ثقل المشاركة الصامتة. ومن هنا، يصبح البوح في الرواية العراقية ليس مجرد سردٍ ذاتي، بل خطابًا اجتماعيًا يربط بين الذاتي والجمعي، وبين الجرح الخاص والكارثة العامة. في هذا الفضاء، تُستعاد الكرامة التي سلبتها الحرب، ويُعاد ترميم العلاقة بين الذات والآخر.

وهذا ما نلمسه في روايات مثل النجمة والسيف لعبد الخالق الركابي، أو ليل الملاك لميسلون هادي، حيث يكون السرد حوارًا بين الذات المنكوبة والمجتمع المتهالك، ويكون كل فصل بمثابة محاولة لتطهير الذاكرة من التشوهات التي خلفها العنف، والبحث عن نور في نفق التجربة. "التطهير في الأدب العراقي لا يكون بالبكاء أو التذمر، بل بالتحليل الإنساني العميق، الذي يسمح للألم أن يتحول إلى وعي، وللمعاناة أن تصبح معرفة"[207].

الأدب إذًا لا يُشفي عبر النسيان، بل عبر التذكر الموجه والذي يقود إلى إدراك أوسع لما حدث، وإلى قبول وجودي يفتح الباب للنجاة.

ج. الأدب كجسر نحو الشفاء الجماعي

تجاوز أثر الأدب حدود الفرد ليشمل المجتمع بأسره، خصوصًا في الحالات التي تعجز فيها المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية عن أداء وظائفها بعد الحرب. الرواية تصبح في هذه الحالة منبرًا عامًا للمساءلة والتعافي وإعادة بناء الثقة بين أفراد المجتمع، إن الروايات العراقية الحديثة أعادت توحيد الهويات المتشرذمة من خلال خطاب إنساني جامع، يرفض الإقصاء ويمنح الكلمة للضحايا، حتى وإن لم يعد بالإمكان تحقيق العدالة القضائية.

بالتالي، يصبح الأدب بمثابة "مساحة رمزية للعدالة"، حيث تُروى القصص المسكوت عنها، وتُسمع الأصوات التي أُقصيت أو قُمعت، مما يمنح المجتمع أفقًا لتجاوز الانقسام والبدء في المصالحة. وهذا البعد الجماعي للشفاء هو ما يجعل من الأدب عنصرًا أساسيًا في بناء الوعي الجديد، بعد أن تنهار الأطر القديمة بفعل الحروب.

أبرز هذا الباب جوهر العلاقة بين المفهوم الإنساني والواقع الإنساني، من حيث كونهما وجهين متقابلين لتجربة الإنسان في هذا العصر المأزوم. فالإنسانية ليست مجرد مفهوم فلسفي أو

[207] Cathy Caruth, Unclaimed Experience: Trauma, Narrative, and History, Johns Hopkins University Press, 1996.

أخلاقي، بل منظومة قيم تتجلى في الفكر والممارسة والسلوك والكتابة، وتخضع لتحديات متجددة تفرضها الحروب والانقسامات والتكنولوجيا والتحولات الاجتماعية. لقد أظهرت هذه الوحدة أن قيمة الإنسان لا تُقاس فقط بما يُنادى به من شعارات، بل أيضا بما يُمارَس من سلوك ويُسجَّل من خطاب ويتداول من ثقافة وما يُواجه من واقع.

في خضم التغيرات الكونية، لم تعد الإنسانية مبدأً نظريًا، بل أصبحت حاجة ملحة وضرورة وجودية ومرآة حقيقية لانهيار أو نهوض المجتمعات. وقد أكدت الدراسة أن الفهم الأصيل للإنسانية يقوم على الاعتراف بالهشاشة الإنسانية واحترام الكرامة البشرية وتجاوز التصنيفات العرقية والدينية والسياسية التي تعيق التعايش والعدالة. "ففي زمن تتكاثر فيه صور القسوة، لا يعود الدفاع عن الإنسان ترفًا فكريًا، بل يصبح مسؤولية أخلاقية واجتماعية وثقافية مشتركة"[208].

كما أن هذا الباب قد سلطت الضوء على الأثر العميق للعوامل الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية على بنية العلاقات الإنسانية، وكيف يمكن للمجتمع المدني والأدب أن يلعبا دورًا تعويضيًا في لحظات الانهيار، عبر التوثيق، والتضامن، واستعادة الصوت الإنساني. إن المفهوم الحقيقي للإنسانية لا يكتمل في الندوات أو النصوص الفلسفية، بل يتحقق في لحظة مواجهة الإنسان لجراحه، واعترافه بحق الآخر في الحياة والكرامة والمشاركة. "فإن الإنسانية لا تعني أن نحب الجميع، بل أن لا نسمح بظلم أحد، مهما كان انتماؤه، ومهما كانت هويته"[209].

وبناءً على ما سبق نجد أن هذه لم تكتفي بتأطير مفهوم الإنسانية، بل مهدت لفهم أوسع لكيفية تفعيلها كقيمة وممارسة، خاصة في الأدب والفكر والمجتمع، وفي ظل أزمات لم تعد

[208] Amartya Sen, Development as Freedom, Oxford University Press, 1999.

[209] Tzvetan Todorov, Hope and Memory: Lessons from the Twentieth Century, Princeton University Press, 2003.

مؤقتة، بل تحولت إلى واقع مستمر. وتظل الإنسانية، في النهاية، امتحانًا مفتوحًا لمدى صدق الإنسان مع ذاته، ولقدرته على الانتصار للضعفاء، في عالمٍ تتبدد فيه الحقائق وتُسحق فيه الكرامات.

الباب الخامس
تجليات الإنسانية في الرواية العراقية الحربية المعاصرة

الفصل الأول : رواية وحدها شجرة الرمان؛ الإنسان في حضرة الموت

الفصل الثاني: رواية فرانكشتاين في بغداد؛ الإنسان بين الانتقام والعدالة

الفصل الثالث: رواية ليل علي بابا الحزين؛ الهروب من الذاكرة إلى اللاواقع

الباب الخامس

تجليات الإنسانية في الرواية العراقية الحربية المعاصرة

شهدت الرواية العراقيّة الحربيّة في العقود الأخيرة تحوّلًا جوهريًا في بنيتها ومضمونها لتغدو مرآةً صادقة تعكس الألم الإنساني، والتشوّه الوجداني، والانهيار المجتمعي الناجم عن الحروب المتعاقبة. ولم تَعُد هذه الروايات مجرّد توثيق للأحداث أو تسجيلٍ للتواريخ بل أصبحت منابر فكرية تعبّر عن جوهر الإنسان وتستكشف كينونته المهدّدة في زمن الحرب حيث تتقاطع القيم الإنسانية مع مفاهيم العنف والفقد والغربة والنجاة.

لقد استطاع الروائي العراقي أن يقدّم صورًا دراميّة نابضة بالحياة من قلب المأساة متّكئًا على السرد الإنساني لا العسكري وعلى الوعي الداخلي لا الشعارات الخارجية في تجلٍّ عميق لإنسانيّة الإنسان العراقي الممزق بين البقاء والانتماء. وهكذا تحوّلت الرواية إلى وسيلة لفهم الواقع وفضح فظاعاته واستعادة الصوت الإنساني الذي يُهدّد بالصمت والتغييب.

إن هذا الباب تسعى إلى دراسة مظاهر الإنسانيّة في الرواية العراقيّة الحربيّة من خلال تحليل ثلاث روايات معاصرة مختارة، تركّز كلٌّ منها على تجربة إنسانيّة مختلفة ولكنها متقاطعة في وجعها وجوهرها. وسنعمل على تتبّع ملامح "الإنسان كذات متألمة" في قلب الدمار، و"الآخر كمرآة للصراع الوجودي" وكذلك "الوطن كمفهوم مكسور أو حُلم غائب."

إن الرواية في هذا السياق تؤكّد ما ذهب إليه الناقد إدوارد سعيد بقوله: "إن السرد المضاد هو شكل من أشكال المقاومة الثقافية التي تواجه القوى الطاغية وتعيد الاعتبار للهوية الفردية والجمعية"[210].

[210] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1997، ص. 375.

وبالتالي، تصبح الرواية العراقيّة الحربيّة ليست فقط وثيقة سرديّة، بل أداة نقديّة لفهم التجربة الإنسانية العميقة في زمن الحرب، تُبرز فيها الكلمة حُرقة الدم، وتحلّ فيها الذاكرة محلّ السلاح، ليظهر الإنسان من بين الركام، حاملاً هشاشته وقيمه في آنٍ معًا. وكما يشير الناقد ياسين النصير "إن الرواية العراقية بعد الحرب اتجهت إلى نبش المناطق المعتمة من الذات العراقية، وفضح التدمير البطيء للقيم الإنسانية، لا عن طريق الصراخ، بل عبر تقنيات فنية دقيقة"[211]

[211] ياسين النصير، جماليات المكان في الرواية العراقية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2004، ص. 89.

الفصل الأول
رواية وحدها شجرة الرمان؛ الإنسان في حضرة الموت

تُعد رواية "وحدها شجرة الرمان "للروائي سنان أنطون واحدة من أبرز الأعمال السردية التي تناولت الحرب العراقية لا بوصفها حدثًا سياسيًا أو تاريخيًا فحسب، بل باعتبارها كارثة إنسانية تعصف بالوجدان والهوية وتُفتت ملامح الذات الفردية في ظل تراكم الجثث وغياب المعنى .في هذه الرواية، لا يواجه القارئ حربًا تدور في الجبهات، بل حربًا داخلية تدور في الذات، في الجسد، وفي تفاصيل الحياة اليومية المهدّدة.

يتّخذ أنطون من شخصية "جواد "غسّال الموتى الشاب محورًا سرديًا يمثّل الإنسان في أقسى حالاته :في حضرة الموت الدائم والروائح المتعفّنة والذكريات المفككة. فـ"جواد" لا يحمل سلاحًا، بل يواجه فظائع الحرب بيديه العاريتين يغسل وجوه الموتى بينما تتآكل روحه يومًا بعد يوم .وهكذا تصبح مهنته مرآةً لانكساره الداخلي وصدى لصراعه النفسي مع فقدان الحلم والكرامة بدل أن تكون عملًا طقسيًا روحانيًا.

في هذا الفصل نسلّط الضوء على تطور شخصية جواد من شابٍ يحمل أحلام الفن والحرية إلى كائن هشّ يتنازعه الخوف والواجب والانهيار. كما نرصد كيف تُستعاد الكرامة الإنسانية وسط ركام الجثث، من خلال مواقف شديدة الإنسانية، تعيد الاعتبار لفكرة الرحمة والرأفة في مشاهد يُخيّل للقارئ فيها أن لا شيء تبقّى من الإنسان إلا جسده المسجّى على طاولة الغُسل. كذلك سنحلّل رمزية طقوس الغُسل والتعامل مع الموتى بوصفها فعلًا مزدوجًا يجمع بين الطقسي والوجودي وسنتوقف عند مشاهد الصمت والألم والحب الضائع بوصفها لحظات مكثّفة تختصر التجربة الوجودية للإنسان العراقي الذي يريد أن يحبّ في زمن لا يسمح له إلا أن يدفن.

تُشكّل هذه الرواية لوحة إنسانيّة قاتمة ولكنها نبيلة في الوقت ذاته تكشف كيف أن الإنسان –حتى في أقسى ظروفه لا يفقد رغبته في الحب والكرامة رغم وحشية كل ما حوله.

1. دراسة شخصية البطل (جواد) وتطورها – رؤية تحليلية موسّعة

شخصية "جواد" في رواية "وحدها شجرة الرمان" لا تُقدَّم على أنها مجرّد بطلٍ روائي في ظرفٍ استثنائي بل تُرسم ببراعة كشخصية رمزية تجسّد الإنسان العراقي المعاصر، الذي يُجبر على إعادة تعريف نفسه في عالم تتهاوى فيه المعاني وتُمحى فيه الحدود بين الحياة والموت وبين القيم والعبث. يُفتتح النص بشخصية جواد بوصفه فنانًا شابًا يحبّ الرسم ويملك حساسية جمالية عالية تجاه التفاصيل، الألوان والوجوه. كان يحلم أن يرسم لا أن "يغسل" أن يُبدع لا أن يُعدّ الجثث للدفن. يقول "لم أرد أن أرث هذه المهنة. لم أرد أن ألمس الموت بهذه الطريقة لكن الموت هو الذي لمسني أولًا، وترك إصبعه على جبيني"[212].

هذا التصريح يختصر صدمة البداية: المهنة التي لم يخترها، بل فُرضت عليه من قِبل أبيه ومن قِبل الواقع المحكوم بالحرب. هنا، يبدأ أول صدام وجودي في شخصية جواد: بين الذات والقدر، بين الحلم والإرث، بين الجمال والرائحة.

تبدأ شخصية جواد بالتآكل النفسي شيئًا فشيئًا. مع كل جثة جديدة ومع كل جسد مشوّه يغسله، تتآكل إنسانيته ويتلاشى إحساسه بالتميّز والتفرد كما في وصفه لجثة أحد ضحايا التفجيرات، يقول "كان الجسد بلا رأس تقريبًا مجرّد قطعة لحم عالقة عليها بقايا شعر. حاولت أن أتعامل معه كجسد، فقط كجسد كي لا أنهار"[213].

[212] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص. 13.

[213] المرجع نفسه، ص. 45.

في هذه اللحظة "عملية الغُسل" إلى ما هو أكثر من عمل يومي؛ إنها عملية دفاع نفسي يتّخذها جواد كقناعٍ كي لا يُكسر بالكامل من الداخل. إنه يحاول أن يفصل نفسه عن الواقع أن يتعامل مع الجثة كـ"شيء" لا كـ"إنسان" وهذا هو التحوّل الخطير؛ تفتيت الروح وخلق المسافة العاطفية كوسيلة للبقاء.

ومع أن جواد لا ينهار علنًا، إلا أن الرواية تمتلئ بلحظات تفجّر داخلية هادئة تكشف عن مدى انكساره. في إحدى الصفحات يكتب في دفتر مذكراته "صرت أعرف مقاسات الموت أكثر من مقاسات الحياة. صرت أعدّ العظام بدل الأحلام"[214]. هذه العبارة المفجعة تكشف مدى التحوّل العميق في شخصية جواد؛ من شابٍ يريد أن يرسم وجوه الناس إلى رجلٍ يتعامل مع الجثث من فنانٍ يراقب الضوء على البشرة إلى غسّالٍ يقاوم التقيؤ أمام اللحم المتعفّن. لكنّ الأهم أن جواد لا يتحوّل إلى شخص قاسٍ أو عديم الإحساس بل يظلّ يحتفظ ببقية من "الوعي الأخلاقي" رغم محاولاته لإنكاره فنجده في أحد المشاهد، بعد أن يغسل جثة طفل صغير، ينهار باكيًا، ويقول "بكيتُ لأني لم أجد ما أقوله له. لم أعرف كيف أطلب منه الغفران. فقد مات قبل أن يفهم لماذا هذا البُكاء يكشف أن جواد رغم كل ما فعله ليحمي نفسه من الانهيار، لا يزال يحتفظ بجذور إنسانيته، لكنه لا يجد مخرجًا من عبء الألم. في الحقيقة، هو ليس غسّالًا للموتى فقط بل شاهد على عبثية الموت، على فشل الدولة، على تدمير الإنسان. وبين لحظة وأخرى، ينسحب جواد إلى عالم الرسم، لكن حتى هذا الملجأ لم يعُد آمنًا يقول "صرت أخلط الألوان لا لأرسم، بل لأدفن الصور. لم أعد أرسم وجهًا، بل ظلًّا لم أعد أرسم إنسانًا، بل غيابه"[215].

---

[214] المرجع نفسه، ص. 72.

[215] المرجع نفسه، ص. 113.

هذه العبارة تختصر التراجيديا: الرسم الذي كان حياةً أصبح قبرًا و"جواد" أصبح فنانًا للغياب، لا للحضور. بالتالي يمكن القول إن شخصية "جواد" تطوّرت من فنان يحمل الحلم إلى غسّال يعيش الفقد، إلى كائن رمادي بين الموت والحياة. ومع ذلك، فإن ما يُدهشنا في هذه الشخصية هو أنها لا تزال رغم كل شيء تبحث عن المعنى عن الحب عن الله عن النجاة ولكن بصوتٍ خافتٍ مبحوح، يُشبه صدى إنسان في مقبرة.

2. الكرامة الإنسانية في رواية وحدها شجرة الرمان؛ مقاومة روحية في زمن السقوط الأخلاقي

الحرب ليست مجرد حدث مادي يطال الجسد، بل هي منظومة شاملة تهدم ما هو أعمق من البنية التحتية حيث تهدم الكرامة الإنسانية. وفي رواية "وحدها شجرة الرمان"، يسلّط سنان أنطون الضوء على هذه المأساة الأخلاقية، ويقدّم الكرامة ليس بوصفها شعارًا أيديولوجيًا، بل كقيمة هادئة تتجلّى في الصمت والغُسل والاحترام وفي رفض الانسلاخ الأخلاقي، حتى في حضرة الجثث، في زمن تتساوى فيه الحياة والموت.

أ. الكرامة بوصفها خيارًا داخليًا رغم غياب العدالة الخارجية

شخصية "جواد" تجد نفسها في قلب معادلة مستحيلة: يتعامل مع جثث ممزقة، قُتلت في تفجيرات أو قُطعت بوحشية، ويُطلب منه أن يؤدي دور الغسّال، وهو الدور الذي يفترض الرقة والطهارة والاحترام. إلا أن هذه الوظيفة، وسط سياق من الدمار والفوضى، تتحوّل إلى عبء أخلاقي، و"اختبار مستمر لإنسانيته ومدى صموده في وجه الانهيار القيمي."

يقول جواد "صرتُ أُغسل الجثث لا لأنني مؤمن، بل لأنني لا أتحمّل أن تُدفن جثة دون لمسة إنسانية أخيرة"[216]. هذا الاقتباس يعبّر عن العمق الأخلاقي في جواد: فهو لا يُمارس المهنة

[216] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، بيروت، منشورات الجمل، 2010، ص. 49.

كطقس ديني تقليدي، بل كفعل مقاومة. فحتى عندما يسقط كل شيء، تبقى الكرامة موقفًا داخليًا يختاره الإنسان عن وعي.

هذه الرؤية توازي ما طرحه الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" الذي اعتبر الكرامة نابعة من القدرة على اتخاذ الموقف الأخلاقي بغضّ النظر عن النتيجة.

ب. رمزية الغُسل – استعادة الكرامة للميت وإحياء الموتى معنويًا

الغُسل في الرواية ليس مجرد فعل تطهيري ولكنه يتحوّل إلى عملية سردية رمزية تعيد الاعتبار لمن مات. إنها لحظة صامتة يواجه فيها جواد الجسد، يتأمل الملامح، يلمس ما تبقى من الحياة في الجلد ويغسل ليس فقط الدم والأوساخ، بل الظلم والخوف والمجهول. في مشهد غسل طفل صغير قُتل في تفجير، يقول "أبكي أحيانًا وأنا أضع الماء. لا لأني حزين فقط، بل لأني أشعر أني أقول له: أنا آسف، لم أكن أستطيع إنقاذك، لكن سأحاول أن أُعيد إليك شيئًا من الاحترام"[217].

هذا الفعل الرمزي يُعيد للميت "كرامة الوداع" التي سُرقت منه لحظة موته ويحوّل الغُسل إلى مساحة لإعادة بناء المعنى الإنساني في عالم بلا معنى.

ج. الكرامة في مواجهة تبلّد الحياة وزوال الشعور

يؤدي تكرار مشاهد الجثث والتفجيرات إلى تبلد مشاعر جواد تدريجيًا فتخبو استجابته الإنسانية، يتعزز داخله نوع من "الخدر الأخلاقي" حيث يصبح الألم اليومي مألوفًا والموت روتينًا لا يُثير دهشة أو وجعًا كما في السابق ومع ذلك فإنه يقاوم الانزلاق الكامل نحو القسوة.

[217] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، بيروت، منشورات الجمل 2010، ص. 84.

يقول "أُقنِع نفسي كل مرة أن هذه الجثة ليست مجرد لحم بل إنسان ما يزال ينتظر الهدوء وإن لم يعد يسمع"[218].

هذه العبارة تعكس إصرارًا باطنيًا على الحفاظ على الكرامة كقيمة داخلية. فحتى عندما يتحوّل الإنسان إلى جسد هامد، فإن هناك من لا يزال يؤمن أن الاحترام واجب، ليس لأن الآخر حي، بل لأن المبدأ نفسه حيّ في الداخل. وهذا المفهوم يعزّزه الناقد بول ريكور حين أشار إلى أن الكرامة لا ترتبط فقط بالحياة البيولوجية، بل بـ"الاعتراف الرمزي بالآخر حتى وهو غائب"[219]. وهو ما تمارسه الرواية من خلال طقوسها الصامتة، وصورها المعبرة عن "الوداع الصامت" و"الصلاة الحزينة."

د. الكرامة كإرث إنساني مشترك – الجميع سواسية في الموت

تميُّز السرد في الرواية بعدم تركيز جواد على ديانة القتيل أو انتمائه السياسي إذ تُذيب الحرب كل الفوارق وتُسقط الهويات الفرعية أمام حقيقة الموت. تتساوى الأجساد وتبقى الكرامة الإنسانية الرابط الوحيد الباقي في وجه الانهيار. يقول "كان بعضهم من طائفة أخرى، وربما قتلوا على يد من يشبهني، لكن وجوههم بعد الموت مثلنا تمامًا؛ خائفة صامتة وبريئة"[220].

هذا المقطع يدين كل أشكال الفرز الطائفي والسياسي، ويقدّم رؤية وجودية؛الجسد بعد الموت يوحّدنا والموت يعيد إلينا ما فرقته الأيديولوجيا. وهنا، يمكن الربط مع ما أشار إليه عبد الله إبراهيم "الرواية العراقية بعد الاحتلال أدركت أن الإنسان هو القيمة الوحيدة الباقية وسط الركام، وحين ينهار، ينهار كل شيء"[221].

---

[218] المرجع نفسه، ص. 96.

[219] Paul Ricœur, The Course of Recognition, Harvard University Press, 2005.

[220] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص. 111.

[221] عبد الله إبراهيم، السرد والهوية: دراسات في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص. 203.

هـ. الكرامة في الأدب العربي المعاصر – مقارنة ونقد

معالجة الكرامة تتجاوز حدود رواية واحدة فتظهر بقوة في أعمال مثل "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي حيث يتحول الجسد المقطّع إلى صرخة مدوية في وجه الفوضى والعبث. يُصبح الجسد، رغم تشويهه تجسيدًا لمطالبة أخلاقية بعدالة مفقودة وكرامة مستباحة. "الساعة الخامسة والعشرون" لقسطنطين فيرجيل جورجيو (رغم كونها رواية أوروبية، لكنها تُدرّس في الجامعات العراقية)، حيث تُنتزع الكرامة من الإنسان في المعتقلات بطريقة مشابهة لما نراه في الغُسل. لكنّ الفرق في رواية سنان أنطون أنها تعالج الكرامة ليس في لحظة الاعتقال أو القتل، بل بعد الموت، في تفاصيل ما بعد الحدث وفي الصمت وفي الماء وفي اليد التي تمسح على الجبهة.

3. رمزية الغُسل والتعامل مع الجثث في رواية "وحدها شجرة الرمان": الجسد بين الطهارة والعبث

يُقدَّم طقس الغُسل في رواية "وحدها شجرة الرمان" ليس بوصفه واجبًا دينيًا أو مهنيًا فقط، بل كفعل رمزي معقّد يتداخل فيه البُعد الروحي مع البُعد النفسي والاجتماعي. يتحوّل الغُسل إلى لحظة تأمل ومواجهة تُمثّل محاولة لفهم الموت واستيعاب الفقد وتكريم الإنسان بعد رحيله مهما كانت خلفيته أو طريقة موته؛ روحية ونفسية واجتماعية بل حتى وجودية. الجثة في الرواية لا تمثّل نهاية الحياة فحسب بل تتحول إلى مرآة للتاريخ الشخصي والوطني ولفشل الدولة في حماية الإنسان وانكسار المعنى في زمن الحرب.

الغُسل هنا ليس فقط فعل تنظيف للجسد بل هو لحظة مواجهة بين الحيّ والميت بين الإنسان والعدم، بين الواجب الأخلاقي والاشمئزاز الغريزي.

أ. الغُسل كأداة لإعادة الاعتراف بإنسانية الضحية

يقول "جواد" في أحد المشاهد "أُغسّلهم كما لو أني أقول لهم: لم تُنسَ، لم تكن مجرد رقم، أنا أراك الآن، وأعيد إليك وجهك الذي مزّقته القذائف"[222] .هذا القول يُظهر بوضوح أن الغُسل ليس تطهيرًا جسديًا فقط، بل هو أيضًا اعتراف بالوجود المسلوب ففي لحظة يتحول فيها الإنسان إلى رقم في نشرات الأخبار، يأتي جواد ليعيد له شكله، هويته، رمزيته، و"وداعه الأخير."

يرتبط هذا المعنى بما أشار إليه بول ريكور في مفهوم "الاعتراف الرمزي"، حين يرى أن الإنسان في موته لا يفقد كرامته، بل ينتظر من الآخر أن يعترف به رغم غيابه[223].

ب. "تطهير الجسد" في عالم ملوّث – مفارقة بين الطقوس والواقع

تُجسِّد مفارقة جواد في الرواية صراعًا داخليًا مريرًا؛ فهو يُمارس طقس الغسل ليطهّر الجثث لكنه يبقى عاجزًا عن تطهير الواقع الغارق في العنف والدم. يغسل الدم عن الأجساد بينما يستمر النزيف في الشوارع. هذا التناقض يُسلّط الضوء على عبثية الوضع حيث يتحوّل الفعل الطقسي النبيل إلى حلقة مفرغة من الحزن ويصبح التطهير الجسدي رمزًا لعجز الإنسان أمام تكرار المأساة فهو يرتب الجثة بينما الفوضى تتكاثر داخله يقول جواد "أغسل كل شيء؛ الدم والأوساخ وآثار الشظايا لكنّي لا أستطيع أن أغسل صوت الصراخ الذي سكن رأسي"[224]. هذا التصريح يلخّص العبثية التي يعيشها الغسّال في زمن الحرب؛ فهو يؤدي طقسًا دينيًا في بيئة انعدم فيها كل ما هو مقدّس وفي هذه الحالة، يتحول الغُسل ليس إلى فعل "تطهير عبثي"، بل إلى صرخة رمزية ضد الفوضى، وكأنّه محاولة يائسة لإعادة النظام الأخلاقي وسط الخراب.

---

[222] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص. 51.

[223] [2] Paul Ricœur, The Course of Recognition, Harvard University Press, 2005.

[224] المرجع نفسه، ص. 68.

ج. الغُسل كمواجهة شخصية مع الذات

يحوّل جواد تأمله للجثث إلى فعل introspective عميق، فلا يرى فيها مجرد ضحايا مجهولين، بل انعكاسات محتملة لذاته أو لمن يحب. كل جثة يغسلها تمثّل احتمال موته أو موت أبيه أو أصدقائه مما يضاعف من ألمه النفسي وبهذا، يصبح الغُسل طقسًا مزدوجًا: تطهيرًا للجسد، وجرحًا يتعمّق في روحه، حيث تختفي الحدود بين الميت والحي ويتحوّل الموت الجماعي إلى تهديد شخصي دائم. يقول "حين أغسلهم، أتخيل وجهي مكانهم وأفكر: ماذا لو كنت أنا؟ من سيغسلني؟ هل سيهتم؟ هل سيغطي عينيّ كما أفعل أنا الآن؟"[225].

هنا يتحول الغُسل إلى تجربة وجودية مكثفة، تواجه فيها الذات ضعفها، موتها، انكشافها. فالغُسل لا يُطهّر فقط الموتى، بل يُعرّي الحيّ أيضًا من أوهامه عن الخلود والسيطرة.

د. الجثة ككيان رمزي – نهاية المعنى أم بدايته؟

تتكرّر مشاهد الجثث بتفاصيل شديدة الواقعية، لكنها لا تُقدم على أنها "بقايا إنسان"، بل ككائن رمزي يحمل في طياته ما لم يُقل من الحكاية. يقول جواد: " هذه الجثة لا أعرف اسمها، ولا كيف ماتت، لكنها تحمل في وجهها ألف قصة لم تُكتب"[226]

في هذه الحالة، تصبح الجثة وثيقة صامتة لواقع أكبر، يختصر فيه الموتى مأساة الأحياء. وهنا نستحضر فكرة "ما بعد الحياة" عند الفيلسوف جاك دريدا، حين يتحدث عن "الأثر المتبقي" كدليل على حضور غائب[227]. أي أن الجثة لم تعد مجرد نهاية، بل "أثر" يحمل دلالة ومعنى.

---

[225] المرجع نفسه، ص. 79.

[226] المرجع نفسه، ص. 90.

[227] [6] Jacques Derrida, Specters of Marx: The State of the Debt, the Work of Mourning and the New International, Routledge, 1994.

هـ. الماء – الرمز المتعدد للغفران والطهارة والانهيار

يحضر الماء في الرواية بوصفه العنصر الجوهري في طقس الغُسل حاملاً معه رمزية متعددة الأبعاد تتراوح بين الطهارة والغفران والانهيار. فهو من جهة يمثل الطهارة الدينية إذ يعيد للجسد قدسيته المسلوبة بعد أن عبثت به أدوات الحرب ومن جهة أخرى يتجلى كوسيلة للغفران، فكأن "جواد" من خلال سكب الماء على الجثة يعتذر لها عما حدث أو يطلب الغفران عما لم يستطع فعله لها في الحياة. إلا أن الماء لا ينفصل عن دلالته النفسية العميقة، فهو أيضًا رمز للدموع والانهيار الداخلي إذ يذيب القسوة الظاهرة، ويعيد الإنسان إلى هشاشته الأولى. يقول جواد: "أُغسل الجثث كما كنت أغسل يدي من الذنب. لكن الذنب لا يذهب. يذوب في الماء ويعود في الحلم"[228]

ويكشف هذا الاستخدام الرمزي للماء عن تعقيد التجربة النفسية والروحية التي يعيشها جواد حيث يتحوّل الغُسل من كونه طقسًا تطهيريًا إلى فعل يكرّر الذنب بدل أن يغسله ويعيد فتح جراح الذاكرة بدل أن يغلقها. فالماء هنا ليس تطهيرًا نهائيًا بل حلقة لا تنتهي من التأمل والوجع والمواجهة مع الذات ويمكن القول إن رواية "وحدها شجرة الرمان" ترتقي بطقس الغُسل من كونه ممارسة دينية إلى فعل وجودي رمزي ومقاوم. فالتعامل مع الجثث لا يُقدّم بوصفه عُرفًا تقليديًا، بل كساحة أخلاقية يتم فيها اختبار إنسانية الحيّ، واحترام الموتى، ومقاومة التفاهة والعنف .إن كل عملية غُسل في الرواية هي محاولة يائسة، ولكن نبيلة، لإعادة شيء من النظام في زمن الفوضى، ومن المعنى في زمن العبث.

[228] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل، بيروت، 2010، ص. 107.

4. تحليل مشاهد الصمت والألم والحب الضائع في رواية "وحدها شجرة الرمان"؛ أصداء الوجدان في حضرة الانهيار

ليست الحرب في رواية "وحدها شجرة الرمان" مجرّد مسرح للدمار والانفجارات بل هي زلزال داخلي يضرب الإنسان في أعماقه؛ في وجدانه، وأحلامه، وعلاقاته. في قلب هذا الخراب تتجلّى ثلاث حالات شعورية تشكّل العمود الفقري لوعي البطل "جواد"؛ الصمت، الألم والحب الضائع. وهذه الحالات لا تأتي بوصفها ردود أفعال ظرفية بل كأنها "اللغة الجديدة للروح" التي لم تعد تجد في الكلمات العادية ما يُسعفها للتعبير.

أ. الصمت – لغة الكارثة

يظهر "الصمت" في الرواية بوصفه أداة تعبيريّة شديدة الحضور ليست انقطاعًا عن الكلام بل تمردًا عليه. فالكلمات تصبح عاجزة، وتتحول إلى أصوات جوفاء لا تقدر على استيعاب حجم الخراب. ففي لحظات الغُسل، في رؤيته للجثث، وحتى في حواره الداخلي يلتزم جواد الصمت كأنّه يحتمي به من الانهيار التام. يقول "أحيانًا أضع الماء على الجثة وأصمت. لا لأنني لا أعرف ما أقول بل لأن كل شيء ينهار إذا نطقت"[229]. إنه صمت ثقيل مؤلم لكنه أكثر بلاغة من الخطابات لأنه ينبع من عمق التجربة لا من سطح المعنى. وهنا يمكن استدعاء رأي الفيلسوف موريس بلانشو الذي يرى أن الصمت في الأدب "هو شكل من أشكال الحقيقة التي لا تُقال، بل تُشعر"[230]مما يجعله وسيلة فنية للكتابة عن الفقد حين يعجز اللسان عن قول الفقدان.

ب. الألم – الساكن في التفاصيل الصغيرة

يظهر الألم في الرواية كحالة وجودية مستمرة، لا كحدث درامي مفاجئ. يتسلّل من التفاصيل الصغيرة: من رائحة الماء المختلط بالدم، من ملامسة الأجساد الهامدة من النظرات الشاردة

[229] سنان أنطون، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل،بيروت، 2010، ص. 58.

[230] ² Maurice Blanchot, The Writing of the Disaster, University of Nebraska Press, 1995.

ومن العجز المزمن عن النسيان. هذا الوجع اليومي الصامت يمنح السرد صدقه وعمقه، حيث يتحول الألم إلى خلفية ثابتة للحياة لا صوتًا عابرًا فحسب بل ظلًا يرافق الشخصيات في كل حركة وسكون. يقول جواد صرتُ أعرف وزن الحزن أعرف كم يحتاج الإنسان من الهواء ليبكي بصمت دون أن يُسمع هذا الألم ليس عارضًا بل مقيم يأكل من الداخل دون ضجيج ويعبّر عن تآكل البطل نفسيًّا بفعل التكرار العبثي للكارثة. وحتى مشاهد النوم لا تُعطيه راحة لأن الذاكرة تتسلل عبر الحلم وتحول الألم إلى رفيق دائم. هذا ما يجعل الألم في الرواية ليس مجرد تفاعل مع الحرب بل شكل من أشكال الوجود المأزوم.

ج. الحب الضائع – محاولة نجاة لم تكتمل

يحاول "جواد" أن يتشبّث بذاكرة الحب وذلك من خلال علاقته بـ "ريهام"، كأنها النافذة الوحيدة التي تُبقي على بشرية القلب. لكن حتى هذا الحب لا ينجو بل يُبتَر ككل شيء آخر في حياته بسبب مهمته يقول متحسّرًا "كنا نبحث عن الضوء لكن الحرب كانت أسرع من الحب"[231].

هذا الحب المقطوع ليس فقط خسارة عاطفية، بل رمز لفقدان الحلم، للحرمان من الأمل، لانهيار القدرة على التواصل والاحتواء. فالعلاقة التي كان يمكن أن تكون مخرجًا له من الظلمة تحوّلت إلى ذكرى أخرى تُثقِل روحه، وتذكّره أن الحرب لم تكتفِ بقتل الناس، بل قتلت العلاقات أيضًا.

[231] المرجع نفسه، ص. 104.

وهنا يمكن استدعاء قراءة عبد الله إبراهيم لفكرة "العطب العاطفي" في الأدب العراقي، حيث يرى أن الحب في هذه الروايات ليس محورًا رومانسيًا، بل "كناية عن العطب البنيوي الذي يصيب القدرة على العيش الطبيعي"[232].

د. تآلف المشاعر الثلاثة – نحو مشهد إنساني شامل

تكمن عبقرية الرواية في كونها لا تعزل هذه المشاعر عن بعضها، بل تجعلها تنصهر داخل التجربة الواحدة. حيث لا ينفصل الصمت عن الألم والحب عن الغياب وكلها تشكل ملامح إنسان يبحث عن نجاته النفسية في عالم من الموت الروحي. وفي ظل هذا الانهيار العام تبقى لحظات الصمت والألم والحب الضائع علامات حياة داخل موت معلَن.

تُظهر رواية "وحدها شجرة الرمان" أن الإنسانية ليست في البطولات أو في الانفعالات الصاخبة فحسب بل في الصمت المُفكر والألم النبيل والحب الذي لم يُكتب له أن ينمو. إنها رواية عن الفقد بكل أشكاله وهي أيضًا عن المقاومة الصامتة؛ مقاومة اللامعنى بالمشاعر والخراب بالتأمل والعنف بالتذكر.

[232] عبد الله إبراهيم، السرد والهوية: دراسات في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص. 231.

الفصل الثاني
رواية فرانكشتاين في بغداد: الإنسان بين الانتقام والعدالة

تعد رواية "فرانكشتاين في بغداد" للكاتب العراقي أحمد سعداوي إحدى أبرز المحاولات الأدبية التي قاربت ثنائية "الإنسان الوحش" في سياق اجتماعي وسياسي متأزم حيث تُعيد الرواية إنتاج الأسطورة الغربية الكلاسيكية لـ"فرانكشتاين" ضمن إطار واقعي عراقي يعجّ بالعنف والانفجارات والتشظي. لكنّ ما يجعل هذه الرواية متفردة ليس فقط استلهامها لهذا النموذج الأسطوري، بل في الطريقة التي تدمج بها البعد الأخلاقي والإنساني في خطابها السردي، مجسدةً التوترات المعقدة بين مفاهيم الانتقام والعدالة، الهوية والتشظي، الإنسان والوحش.

في هذا الفصل سنقوم بتحليل الرواية من خلال أربعة محاور رئيسة تبدأ بدراسة شخصية "الشِّسْمَه" كبنية سردية هجينة تعكس انقسام الذات العراقية بين النزعة إلى العدالة والرغبة في الانتقام. تقول الرواية على لسان الشخصية "أنا أنتقم فقط ممن يستحقون، أنا آلة للعدالة"[233].

لكنّ هذه الآلة لا تلبث أن تنحرف عن مسارها، فتتحول من أداة للقصاص العادل إلى كيان فاقد للبوصلة الأخلاقية، مما يفتح الباب أمام تساؤلات جذرية حول معيارية "العدالة" و"الاستحقاق."

المحور الثاني يتناول التأويل الرمزي للجسد في الرواية حيث يتحوّل جسد "الشسمه" إلى تمثيل حيّ للهوية الممزقة في عراق ما بعد الاحتلال. فكل جزء من جسده ينتمي إلى ضحية مختلفة،

[233] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، الطبعة الأولى، دار الجمل، 2013، صـ102.

وكل ضحية لها سرديتها وحقها في العدالة وهو ما ينعكس في قول البطل "لا أعرف من أنا حقًا أنا خليط من أناس قُتلوا ولم يُعاقب قاتلوهم"[234].

هنا يصبح الجسد نفسه ساحة صراع وتداخل للمعاني، ومجالاً لكشف مأساة الانفصال بين الجسد والهوية وبين العدالة والمحاسبة. أما المحور الثالث فيُعنى بالسؤال الأخلاقي المركزي للرواية: من هو الإنسان ومن هو الوحش؟ إذ تتعمّد الرواية تعويم الحدود الأخلاقية بين الخير والشر، فالشسمه، رغم بشاعته الجسدية ودمويته يبدو في أحيان كثيرة أكثر إنسانية من الشخصيات "الطبيعية" التي تمارس القتل والتواطؤ بصمت. هذا التوتر يعبّر عنه السارد في أحد المواضع بقوله "ربما الوحش الحقيقي هو من يتفرج على الدم دون أن يصرخ".[235]

أخيرًا، فإن الرواية تُسجِّل البعد الاجتماعي العميق لمعاناة مدينة بغداد المفككة، حيث يتماهى الإنسان مع الألم والعبث وتضيع الهويات في زحام الفوضى والدم. المشهد السردي هنا لا يُعبر فقط عن تجربة فردية، بل عن واقع جماعي مهدد بالتمزق والتلاشي، فتغدو الشخصيات أشباحًا لهويات ضائعة في مدينة فقدت يقينها الأخلاقي وبهذا، فإن رواية "فرانكشتاين في بغداد" لا تكتفي بإثارة التساؤلات بل تدفع القارئ إلى إعادة التفكير في مفاهيم مركزية حول العدالة، والهوية، والإنسانية، ضمن سياق عراقي مأزوم.

1. تحليل شخصية "الشِسْمَه" كمركب سردي إنساني أووحشي

يشكّل "الشِسْمَه" في قلب الفوضى العراقية، وسط مدينة تزدحم بالموت العبثي والدمار السياسي، تجسيدًا حيًا لصرخة أدبية متمرّدة تنهض من بين أكوام الجثث المقطّعة. حيث لا يظهر بوصفه كائنًا غرائبيًا فحسب بل كرمز احتجاجي صادم في وجه الصمت الجماعي

[234] المرجع نفسه، ص88

[235] المرجع نفسه، ص151.

واللامبالاة المزمنة حاملاً في تكوينه الهجين ملامح ضحايا لا صوت لهم ومطالبًا بعدالة غائبة في واقع تآكلت فيه كل القيم. هو ليس مجرد مخلوق هجين بل هو سردية رمزية كثيفة تعبّر عن أزمة الإنسان المعاصر في مجتمع مفكك. فـ"الشِسْمَه" لا يُمثّل كائنًا خارقًا أو شيطانًا مطلقًا، بل هو كائن مركّب، يحمل في طياته أبعادًا متضاربة: الإنسان المقهور، والوحش الثائر، والعدالة العمياء، والهوية الضائعة.

أ. الشسمه كتمثيل للعدالة المشوهة – من القصاص إلى القتل العشوائي

يُطلّ "الشِسْمَه" منذ لحظة ظهوره كتمثيل صريح لفكرة العدالة البديلة تلك التي تنبثق من فراغ قانوني يهيمن عليه السلاح والطائفية. يُقدّم نفسه لا كمجرم، بل كمنفّذ لحُكم شعبي على من "يستحقون القتل" في محاولة لإضفاء شرعية أخلاقية على أفعاله. يتقمّص دور القاضي والمنفّذ في آنٍ معًا، رافعًا شعار "العدالة" حين تغيب المحاكم وتسقط الدولة. ومع ذلك سرعان ما تبدأ هذه العدالة بالتآكل حين يتورّط في دائرة عنف لا تُميز بين مذنب وبريء فتتلاشى الحدود بين القصاص والجريمة، ويبدأ "الشسمه" نفسه بفقدان معيار الاستحقاق، ليغدو في نهاية المطاف امتدادًا للفوضى التي جاء لمواجهتها. إذ يبدأ "الشسمه" في فقدان معيارية من يستحق الموت، ومع كل عملية قتل، تتداخل الأصوات بداخله، ويزداد انقسامه الداخلي "بعض الأجساد في داخلي ترفض القتل، وبعضها تطلبه بإلحاح"[236].

هذا الصراع يبرز كيف أن الانتقام إذا لم يُضبط بمبدأ أخلاقي صارم، ينزلق نحو تبرير كل شيء، حتى القتل من أجل البقاء. العدالة تتحوّل هنا إلى أداة وحشية للبقاء، تمامًا كما تتحول الدولة من مؤسسة للحماية إلى سلطة للقمع. يُذكّرنا هذا التحول بنظرية العدالة الممزقة التي

[236] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، 2013، ص 121.

طرحها الفيلسوف بول ريكور، حيث يشير إلى أن العدالة إذا ما فقدت بعدها الإنساني تتحول إلى مرآة للانتقام المؤسسي[237].

ب. بنية الجسد كبنية سردية – الهوية المركبة لجسد الشسمه

إن تكوين "الشسمه" من أشلاء ضحايا متفرقة يطرح رؤية سردية ثرية فجسده لا يمثل وحدة متجانسة، بل هو نص متعدد الطبقات، يعكس هوية العراق المعاصرة التي باتت كيانًا يتكون من رواسب الطوائف والموتى والثارات، كل جزء في جسده هو شهادة على جريمة. هذا الجسد لم يُخلق بيولوجيًا، بل وُلد من الغياب – غياب العدالة، وغياب التوثيق، وغياب الحياة "أنا جسد فارغ، تسكنه أرواح متناقضة"[238]. نحن أمام مفهوم جديد للجسد الروائي، لا بوصفه وسيلة للتمثيل الخارجي، بل كخزانة للذاكرة الجماعية. الجسد هنا يُجسد النص الموازي للرواية: إنه رواية من لحم ودم تحكي ما لا تُعبّر عنه الشخصيات الأخرى. وهذا يوازي ما عبّرت عنه "جوديث بتلر" في كتابها "أجساد في غير موضعها" بقولها إن الجسد هو حقل سياسي يتقاطع فيه الألم والسلطة والمقاومة[239].

ج. التحوّل النفسي: من الإنسان إلى الوحش ومن الوحش إلى الإنسان

يُجسّد "الشِسمَه"، على الرغم من مظهره الوحشي نوعًا من الوعي الوجودي النادر في فضاء الرواية حيث أنه لا يتحرّك بدافع عشوائي أو انتماء طائفي بل يُراجع أفعاله ويتأمل جدواها ويطرح أسئلة أخلاقية لا يجرؤ الآخرون على طرحها فبينما يغرق الآخرون في القتل تحت شعارات الطائفة أو الثأر أو المصالح، يتوقّف هو ليسأل: من أكون؟ ولماذا أقتل؟ هذا التأمل يمنحه مفارقة سردية فريدة؛ إذ يظهر ككائن هجين بين الوحش والإنسان، بين الجلاد

---

[237] Paul Ricoeur, The Just, University of Chicago Press, 2000.

[238] المصدر نفسه، صـ 135.

[239] Judith Butler, Bodies That Matter, Routledge, 1993.

والضحية، لكنه في كثير من اللحظات يبدو أكثر إنسانية من المحيطين به، لأنه لا يتخلّى عن أسئلته، حتى وهو يقتل. يقول "أنا أعرف أني قاتل لكنّي لستُ مثلهم، أنا أقتل لأني مجبر"[240]. هذا الاعتراف هو لحظة وجودية نادرة في الرواية. هو ليس شيطانًا صامتًا بل هو ذات تفكر وتتنازع بين ضميرها وبقائها. يتحوّل "الشسمه" من مشروع بطل إلى مأساة متحركة ومن أداة للعدالة إلى ضحية للعبث، لأنه وُضع في عالم لا معنى فيه للنية، بل للفعل فقط. هذه المسافة بين "النية" و"الفعل" هي التي تصنع الوحش في الأدب، كما ترى ماري شيلي في روايتها الأصلية Frankenstein "لقد صنعتُ مخلوقًا جميلاً... لكن العالم جعله شيطانًا"[241]. ونحن في حالة "الشسمه" أمام مأساة مشابهة؛ ليس الوحش من يُولَد شريرًا، بل من تُنتجه الظروف بلا خيار.

د. اللاسم كرمز لفقدان الهوية – "الشسمه" بلا اسم، بلا ملامح، بلا وطن

اسم "الشِسْمَه" في العامية العراقية يُستخدم للإشارة إلى "ما لا يُعرف"، أو "ما لا يُراد ذكره"، أو ما يُخجل منه. إذًا، تسميته بـ"الشسمه" ليست عبثًا، بل هي تجسيد لما أرادت الرواية أن تسلّط الضوء عليه: أن الضحية قد تفقد اسمها، وتُصبح رمزًا، لكنها في الوقت نفسه تُجرَّد من إنسانيتها. "لا أحتاج اسمًا اسمي هو دمهم"[242].

هذا التصريح هو إعلان انحلال الهوية الفردية لصالح هوية جماعية مشوشة. فـ"الشسمه" لا يعيش كفرد، بل ككتلة من الغضب المتنقل. إن فقدان الاسم يعني فقدان القدرة على التمثيل، على القول، على الظهور فهو يشبه حال الإنسان العراقي الذي لم يعد يعرف من هو، بعد أن مزقته الهويات المتصارعة. في هذا السياق، يتحول "الشسمه" إلى نفي مضاد للهوية،

[240] المصدر نفسه، ص 152.

[241] Mary Shelley, Frankenstein, 1818

[242] المصدر نفسه، ص 98.

ليس فقط لأن لا اسم له، بل لأنه لا يمكن تسميته دون أن نرتكب خطأً في التصنيف. فهو ليس شهيدًا، ولا قاتلًا، ولا بطلًا، ولا ضحية فقط. بل هو كل هذه المتناقضات.

تشكل شخصية "الشِسْمَه" في رواية فرانكشتاين في بغداد أكثر من مجرد كائن وحشي؛ فهي تمثل صوتًا سرديًّا عاليًا يُعبّر عن أزمة وجودية خانقة يعيشها الإنسان في بيئة يغلب عليها الموت، الفوضى، وانهيار المعايير. فخلف ملامحه المرعبة وقسوته الظاهرة، يختبئ كيان إنساني يحمل في طياته تساؤلات كبرى عن الحياة، والعدالة، والمعنى. إنه ليس مجرد قاتل يسعى للانتقام، بل كائن وُجد نتيجة غياب العدالة، وصمت المجتمع، وانعدام المسؤولية، مما يفتح الباب أمام أسئلة ملحة: من يملك الحق في الحياة وسط الموت الجماعي؟ وهل يمكن تحقيق العدالة من خلال الثأر والدم؟ وهل تولد الوحشية من داخل الإنسان، أم أنها نتيجة غياب المعنى وضياع القيم؟ من خلال هذه الأسئلة، يتجلى "الشِسْمَه" كمرآة للعراق المعاصر، بكل ما يحمله من تمزق داخلي، وانقسام اجتماعي، وتناقض بين الخطاب الديني والأخلاقي من جهة، وواقع الانهيار والدمار من جهة أخرى. إنه كائن هش، متفكك، لا يعيش فقط بين أطلال الجثث، بل بين أطلال الميثولوجيا التي تم تفريغها من معناها، والواقع الذي لم يعد يحتمل تأويلاً عقلانيًا. وبذلك، يصبح "الشِسْمَه" تمثيلًا دراميًا مركبًا للإنسان العراقي الممزق بين مطرقة البحث عن العدالة وسندان البقاء بأي وسيلة.

2. التأويل الرمزي للجسد كمجال للهوية المفقودة

يُجسِّد الجسد المركب في "فرانكشتاين في بغداد" حالةً عراقيةً معقّدة إذ يصبح "الشّسمه" تمثيلًا رمزيًا لكيان اجتماعي فقد حدوده وهويته وتماسكه. فكل قطعة من جسده مأخوذة من ضحية مختلفة تنتمي لطائفة أو جماعة أو خلفية متباينة، مما جعل هذا الجسد المتعدد

الهويات مرآة للتمزّق الوطني. وفي الوقت ذاته يُمنح هذا الجسد حياة جديدة وكأن الرواية تقول إن ما مات في الواقع يمكن أن يُبعث روائيًا ولكن على هيئة مشوّهة تعاني من أزمة تعريف ذاتها. هكذا أصبح الجسد في الرواية ليس فقط ضحية للعنف بل فاعلًا فيه إذ يُوظَّف ليقتل من يُفترض أنهم الجناة. غير أن هذه العدالة المرتبكة تكشف سريعًا عن هشاشتها لأن الجسد نفسه لا يعرف إلى من ينتمي ولا لأي قضية يُقاتل. فالجسد الذي أراد أن يكون صوتًا للمظلومين، يتحوّل تدريجيًا إلى صورة للفوضى، وصدى للصرخة العراقية التي تبحث عن معنى في قلب الركام

أ. الجسد كفسيفساء للهوية الوطنية المبعثرة

يرمزُ جسد "الشّسمه" إلى العراق المفكك بعد الاحتلال، وطنٍ مُبعثر الهويات، يتكوّن من أطراف متناقضة تنتمي لطوائف وأعراق متعددة. كل عضو فيه هو شاهد على جريمة، وكل نسيج يحمل ذاكرة قتيل. هذا الجسد ليس مجرد كيان سردي، بل استعارة لواقع تنهشه الطائفية، وتجرده الحرب من ملامحه الأصيلة. هذه الفسيفساء ليست تنوعًا جمالياً بل تشظّيًا موجعًا، إذ لا تكتمل الهوية إلا بالفقد، وكلما اكتمل الجسد زاد تشويهه. يقول الشّسمه؛ كلما أضفت عضوًا جديدًا، شعرت بأنني أقل وحدة لكنني لم أكن أقرب إلى الحقيقة. بذلك يفقد الجسد طابعه الفردي ليصبح تمثيلاً مرعبًا لهوية وطنية فقدت مرجعياتها التاريخية والاجتماعية. إنه وطنٌ بلا ملامح بلا اسم بلا لغة موحدة.

ب. الجسد المركّب والبحث عن الذات

يتخذُ الجسد في الرواية موقعًا إشكاليًا في سياق فلسفي وجودي معقد إذ يتحوّل "الشّسمه" إلى كيان بلا اسم بلا تاريخ وبلا هوية واضحة. هو ليس فردًا بقدر ما هو سؤال متجسد؛ من أكون؟ تنبع حركته نحو القصاص لا من وعي ذاتي راسخ بل من محاولة مستميتة لبناء هوية

ممزقة عبر تراكم الأفعال العنيفة التي يُظن أنها تعيد شيئًا من العدالة الغائبة. الجسد هنا ليس سوى مسرحٍ للبحث عن الذات في عالم انهارت فيه كل مرجعية أخلاقية.

"أنا أبحث عن عدالة أُعيد بها ترتيب نفسي" – الشّسمه.

هذا البحث الممزق عن الذات يُظهر أن "الهوية" هنا ليست شيءًا نولد به، بل مشروع دائم في حالة تشكّل لكنها هنا هوية تعاني من ضعف الذاكرة؛ فهي تُبنى على بقايا الآخرين، لا على تجربة ذاتية مكتملة.

3. سؤال الفناء والهوية – هل الفقد شرطٌ للتعريف؟

تطرح الرواية سؤالًا فلسفيًا مفاده: هل يمكن أن تتكوّن الهوية من الفقد فقط؟ "الشّسمه" هو كيان مكوَّن بالكامل من المفقودين – من الأشلاء، من الصمت، من الظلم. لكنه لا يستطيع أن يجد لنفسه اسمًا ثابتًا، فهو دائم التحوّل، دائم النقص دائم التهديد بالانهيار.

في نهاية الرواية، حين يبدأ جسده بالتحلل والانفجار تتجلى الحقيقة الصادمة: الهوية القائمة على الألم فقط لا يمكنها البقاء. يجب أن تُبنى على الانتماء على الحب على التفاهم. فالهوية لا تُستمد من الموت، بل من معنى للحياة.

"كنت أظن أن العدالة ستُعيد لي نفسي، لكنها لم تفعل." – الشّسمه.

هذا الانهيار الوجودي للجسد يعني انهيارًا لهوية غير مكتملة منذ البداية. فكما أن "فرانكنشتاين" في رواية ماري شيلي لم يكن محبوبًا لأنه لم يُخلق بالحب، كذلك "الشّسمه" لم يُعترف به لأنه لم يُبنَ على حياة بل على موت. إن الهوية المفقودة لا تُستعاد إلا حين نجد تعريفًا آخر للإنسان، لا بوصفه ضحية، بل بوصفه مشروع أمل.

أ. الجسد كفسيفساء للهوية الوطنية المبعثرة

يجسّد جسد "الشّسمه" تفكك الهوية الوطنية في عراق ما بعد 2003م، حيث لم تعد "الوطنية" رابطًا جامعًا بل مفهومًا هشًّا تفتّت تحت وطأة العنف والطائفية. كل جزء من جسده مسلوب من ضحية ظلم ينتمي إلى طائفة أو منطقة مختلفة ليصبح هذا الكيان كولاجًا دمويًا لا يملك انتماءً محددًا بل يمثل الجميع بقدر ما يمثل لا أحد. هو جسد متشظٍ يعكس تمزق الذات العراقية ويعبّر عن محاولة يائسة لترميم وطنٍ تمزقت أوصاله.

يقول الشّسمه "كلما أضفت عضوًا جديدًا، شعرت بأنني أقل وحدة، لكنني لم أكن أقرب إلى الحقيقة". بذلك، يفقد الجسد طابعه الفردي ليصبح تمثيلاً مرعبًا لهوية وطنية فقدت مرجعياتها التاريخية والاجتماعية. إنه وطنٌ بلا ملامح، بلا اسم، بلا لغة موحدة. يرى الباحث شيركو ميرزا أن "التنوع في جسد "الشّسمه" يُحاكي فشل المشروع الوطني العراقي في تكوين هوية جامعة بعد الاحتلال."[243]

ب. التشظي الجسدي كاستعارة لتشظي الدولة

إن رمزية الجسد المبعثر في الرواية تتجاوز الشخصية لتُحاكي العراق كله بعد الغزو الأمريكي، حيث لم يعد هناك كيان سياسي أو اجتماعي موحد. وكما أن الشّسمه لا يستطيع التحرك دون أن تتفكك بعض أجزائه، فإن العراق الجديد لا يمكنه أن يتقدم إلا بانهيار جزء من بنيته. يقول الراوي "كان جسده لا يستقر، كأن كل جزء فيه يُريد أن ينتمي إلى صاحبه الأصلي". هذه الاستعارة البصرية القوية تُظهر أن "الوطن" ليس مجرد أرض، بل هو جسد حيّ ينهار حين تُسلخ عنه أطرافه. وبالتالي، فالجسد يصبح وطنًا متخيّلًا لكل من فقدوا وطنهم الحقيقي.

[243] شيركو ميرزا، قراءة في الجسد العراقي بين الطائفة والوطن، مجلة الثقافة الجديدة، بغداد، العدد 413، 2017

الباحث الفلسطيني إيهاب بسيسو يرى أن "الأدب ما بعد الاحتلال غالبًا ما يصوّر الجسد كدولة خاضعة للاحتلال الداخلي، لا الخارجي فقط"[244]، وهذا التوصيف يصدق تمامًا على حالة "فرانكشتاين في بغداد."

د. الجسد كمكان للذاكرة الجماعية

ليس الجسد مجرد وعاء للأشلاء، بل حاملٌ لذاكرة الضحايا. إن كل عضو في جسد "الشّسمه" يحمل قصة، وظلمًا، وتفجيرًا، واسماً مفقودًا. وفي هذا السياق، يتحول الجسد إلى سجل سردي لألم جماعي تم محوه من كتب التاريخ. "تتكلم أصابعي أحيانًا... تشعر قدماي بالبرد حين أقترب من مكان القتل". هذه العبارة تؤكد أن الجسد حيّ، لكن ليس فيزيائيًا فقط، بل نفسيًا وذاكريًا. إنه يؤرخ لحروب لم يُكتب عنها شيء بعد. ففي مجتمع يعاني من طغيان السلطة، وتزوير الذاكرة، يتحوّل الجسد إلى شاهد حي على الحقيقة المطموسة. تقول حنّة آرنت "الذاكرة الحقيقية هي مقاومة ضد سياسة النسيان."[245] وفي الرواية، يقوم جسد "الشّسمه" بهذا الدور يقاوم النسيان بالصرخة، بالعنف أحيانًا، وبالتجوال بحثًا عن معنى.

4. صياغة الرواية لثنائية الإنسان والوحش ضمن أفق أخلاقي معقّد

تمضي رواية "فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي في إعادة تشكيل مفهوم الإنسان والوحش خارج الأطر الكلاسيكية للخير والشر، مستفيدة من الموروث الفلسفي والأدبي لرواية ماري شيلي (Frankenstein; or The Modern Prometheus) ولكن داخل سياق عراقي ممزق بالحروب. فالرواية لا تقدّم إجابات نهائية بقدر ما تزرع الشكّ الأخلاقي وتُعقّد المفاهيم التي بدت ذات يومٍ واضحة. الإنسان هنا ليس بالضرورة من يملك شكلًا بشريًا والوحش ليس دائمًا

[244] إيهاب بسيسو، تجليات الجسد في الرواية ما بعد الاحتلال، ندوة الرواية العربية المعاصرة، رام الله، 2018.

[245] Hannah Arendt, The Human Condition, University of Chicago Press, 1958

من يملك ملامح مشوهة. هذه الثنائية تتكسر في ضوء واقع فقدَ بوصلته الأخلاقية، وأضحى فيه التمييز بين القاتل والضحية، بين العدل والانتقام، شديد الالتباس.

أ. "الشّسمه" كمرآة أخلاقية مكسورة

لا يظهر "الشّسمه" الكائن الذي جُمع من أشلاء ضحايا التفجيرات كوحش بالمعنى التقليدي، بل ككائن مشحون بمطالب أخلاقية مشروعة، لكنه يحققها بوسائل دموية. وهو بذلك، يمثّل أزمة أخلاقية معلّقة بين "ضرورة القصاص" و"فظاعة الفعل". فهو لا يقتل عبثًا بل لأنه يرى في نفسه أداة لإعادة التوازن والعدالة. "أنا لا أقتل، أنا أنفّذ العدالة. أنا أستعيد حق الميت."[246] بهذا المعنى، يصبح "الشّسمه" تجسيدًا لضمير جماعي غائب، لكنه ضمير ملوّث بالعنف، مشوّه بالدم. في اللحظة التي يتجاوز فيها مهمته الأصلية (قتل القاتلين فقط) ويبدأ في تبرير المزيد من القتل وهنا ينقلب الكائن من مشروع عدالة إلى مشروع رعب. إن "الشّسمه" يذكّر بما قاله الفيلسوف" جورج باتاي": "الرغبة في الطهارة المطلقة تؤدي دائمًا إلى شكل من أشكال العنف"[247]، فكلما أراد الشّسمه أن يطهّر المدينة من القتلة، أصبح هو نفسه أداة وحشية لا يمكن السيطرة عليها.

ب. تحوّل الإنسان إلى وحش بصيغة رسمية

تُعمّق الرواية منسوب المفارقة حين تكشف أن "الوحش" الحقيقي ليس فقط "الشّسمه"، بل هو الآخرون – أولئك الذين يُفترض أنهم بشر عاديون. فالضباط، وأفراد الميليشيات، بل وحتى المدنيين، يُظهرون في لحظات كثيرة وجوهًا وحشية، يرتكبون العنف لا بدافع العدالة، بل باسم الطائفة، أو السلطة، أو المصلحة الشخصية. وهنا تُعيد الرواية تعريف الوحشية:

[246] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، الطبعة الثالثة، 2014، ص. 188

[247] Georges Bataille, Literature and Evil, London: Marion Boyars, 1997

ليست في الشكل، بل في الفعل؛ ليست في الكيان الغريب، بل في القلوب التي اعتادت القتل تحت غطاء الشرعية أو العقيدة. "كانوا يقولون: نقتل كي لا يُقتل أهلنا. هل هذه عدالة؟"[248] هنا، يُظهر السرد أن الوحشية لا تُعرّف بالهيئة أو الشكل، بل بالسلوك؛ وأن الإنسان الذي يتخلى عن المعايير الأخلاقية، يصبح وحشًا حتى وإن بدا مهذبًا في الظاهر. يرى الناقد المصري صلاح فضل أن "سعداوي يقلب المعادلة الأخلاقية الكلاسيكية، ليجعل الوحش أكثر إنسانية من الإنسان الحقيقي، لا لكونه بريئًا بل لكونه واعيًا بأفعاله"[249].

ج. انهيار الحدود بين الأخلاقي وغير الأخلاقي

تعمد الرواية إلى تفكيك مفهوم الخير والشر كمطلقات. فكل شخصية في الرواية – حتى "الشّسمه" – تمتلك دوافع إنسانية معقّدة. لا يوجد "شر خالص" أو "خير خالص" والراوي نفسه، لا يقدم أحكامًا قاطعة، بل ينقل المواقف والقرارات ليترك للقارئ الحكم. ففي أحد المشاهد، يعترض رجل دين على القتل، لكنّه يبرره لاحقًا حين تُستهدف طائفته. هنا تتضح هشاشة الأخلاق في واقع شديد الانقسام. "كلّهم أصبحوا قضاة وجلادين... لم يعد لأحد وقت ليكون إنسانًا فقط." – الرواية[250] تمثل هذه الحالة ما أسماه زيغمونت باومان بـ"الحداثة السائلة"، حيث تتفكك الثوابت الأخلاقية، ويصبح الفرد في مواجهة قرارات لا تملك مرجعيات مطلقة[251].

---

[248] المصدر نفسه، ص. 133.

[249] صلاح فضل، الهوية في مرايا الرعب: قراءة في فرانكشتاين في بغداد، مجلة فصول، القاهرة، عدد شتاء 2016

[250] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، ص. 201.

[251] Zygmunt Bauman, Liquid Modernity, Polity Press, 2000

د. الهوية بين البشري والوحشي – سؤال المعنى

تتقدّم الرواية بهذه التساؤلات الوجودية لتضع القارئ أمام مرآة معقّدة: من هو الإنسان حقًا؟ أهو من يسعى إلى العدالة حتى لو بالدم؟ أم من يختار الصمت على الظلم كي لا تتلوث يداه؟ لا تقدّم الرواية أجوبة جاهزة، بل تزرع الحيرة الأخلاقية في قلب السرد. فـ"الشّسمه" يسعى للقصاص لكنه يتحول تدريجيًا إلى آلة قتل بلا ضوابط. أما الآخرون، فيرتكبون الفظائع تحت مسميات شريفة: الدفاع، الأمن، الواجب. وبين هؤلاء وهؤلاء، يغيب صوت الضحية، وكأن الرواية تشير إلى أن فقدان الصوت هو أقسى أشكال العنف، وأن السؤال عن "الإنسان" لا يمكن الإجابة عنه ما دام العدل غائبًا والدم مستمرًا. إن الإنسان في الرواية ليس من ينتمي إلى شكل بيولوجي، بل من يحتفظ بإحساسه الأخلاقي رغم ضغط العنف. أما الوحش، فهو الذي يفقد هذا الحس، ويستسلم لمنطق الدم مهما كانت دوافعه. يستدعي هذا التصور فكر إيمانويل ليفيناس الذي يرى أن "الإنسانية ليست في الشكل، بل في الاستجابة لوجه الآخر – أي في المسؤولية الأخلاقية عن الآخر"[252].

5. البعد الاجتماعي للمعاناة في مدينة مفككة

رواية "فرانكشتاين في بغداد"، لا تُصوَّر المعاناة كحالة فردية ناتجة عن الحروب والاضطرابات السياسية فحسب، بل كحالة اجتماعية جماعية تمتد في كل زاوية من زوايا المدينة وتغزو تفاصيل الحياة اليومية لسكان بغداد. المعاناة هنا ليست فقط نتيجة التفجيرات والانفجارات بل هي أيضًا نتيجة التمزق الاجتماعي وفقدان الثقة والخوف من الآخر حتى لو كان جارًا أو قريبًا.

[252] Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, Duquesne University Press, 1969.

مدينة بغداد كما ترسمها الرواية لم تعد مكانًا للعيش المشترك بل صارت مسرحًا مفتوحًا للخوف والريبة، حيث يتحول الإنسان إلى غريب حتى في حارته، والجيران إلى شهود صامتين على العنف. من خلال هذه المدينة المتفككة، توجه الرواية سؤالًا جوهريًا: ما مصير الإنسان في مجتمع انهارت فيه الروابط الإنسانية؟

أ. بغداد ما بعد الاحتلال – جغرافيا الرعب والعزلة

تظهر المدينة في الرواية كجسد مجروح، حيّ لكنه يئنّ باستمرار. الشوارع مليئة بالحواجز الكونكريتية، بالدور المهجورة، بالعيون الخائفة، وبالأجساد المقطّعة. وبدلًا من أن تكون "المدينة الحاضنة" للمواطنة والتعايش، تصبح بغداد مدينة العزلة، حيث تنغلق الطوائف على نفسها، وتتحوّل الأحياء إلى مناطق مغلقة. "لم يكن أحد يثق بأحد... حتى الجيران، أصبحوا ينظرون إلى بعضهم بريبة." – الرواية[253]

يخلق هذا التشرذم المكاني – الطائفي – الاجتماعي معاناة وجودية يومية، حيث يصبح المرور من حي إلى حي مغامرة، والحديث في الأماكن العامة مخاطرة. وهكذا، تتحول المدينة من حيز للانتماء إلى حقل ألغام نفسي واجتماعي. بغداد في الرواية ليست فقط مدينة جغرافية، بل نموذج للمدن العربية التي تفقد ملامحها المدنية تحت وطأة الحروب الأهلية والصراعات الهوياتية.

[253] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، دار الجمل، الطبعة الثالثة، 2014، ص. 91

ب. المعاناة كحالة جماعية وصامتة

لا تظهر المعاناة في الرواية دائمًا على شكل صراخ أو احتجاج، بل تُقدَّم في الرواية كحالة صامتة، مزمنة، وخفيّة. الناس يتألمون بصمت، يتأقلمون مع الخوف ويتعايشون مع الموت وكأنه قدر يومي.

"الناس هنا يتحدثون عن الانفجارات كما يتحدثون عن الطقس." – الراوي[254] هذا التطبيع مع الألم يعبّر عن انهيار البعد الإنساني في العلاقات الاجتماعية. الجميع يُخفي مشاعره، والجميع في حالة ترقّب والجميع يعرف أنه قد يكون الضحية القادمة. وهذا الشكل من المعاناة الجماعية يقتل أي إمكانية للتعاطف أو التضامن، فـ"كل فرد مشغول بنجاته." المعاناة الجماعية التي لا تُواجَه بخطاب جماعي تُفرّخ الأنانية واللامبالاة والخوف. وهذا ما تفعله الرواية عندما تُظهِر كيف فقد سكان بغداد القدرة على الحزن الجماعي.

ج. فقدان الروابط الاجتماعية – تفكك العائلة والجيرة

انهيار الأسرة وتفكك العلاقات التقليدية كالجيرة والصداقات يُعدّ من أبرز تمثيلات المعاناة في الرواية. فالشخصيات تعيش في عزلة داخل منازلها، وبعضهم يغادر مدينته خوفًا، وآخرون يُقتلون دون أن يسأل عنهم أحد. فنجد أن "أم دانيال" لم تكن تخرج كثيرًا بعد اختفاء ابنها، أصبحت تضع صورة له على الباب، كأنها تنتظر اعترافًا بأن أحدًا رآه."[255]

هذا التفكك العاطفي والاجتماعي يمثل انهيار البنية الأساسية لأي مجتمع. البيت لم يعد مأمنًا، والجيران لم يعودوا سندًا، والمدينة تحوّلت إلى فسيفساء من العزلة. حتى "الضحايا" في الرواية غالبًا ما يُنسَون بسرعة فلا جنازات ضخمة، ولا تأبين، بل صمتٌ عميق يرمز إلى الإنهاك

[254] المرجع نفسه، ص. 105

[255] المصدر نفسه، ص. 117

النفسي الكامل. يُشير عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم إلى أن "تفكك الروابط الاجتماعية يولّد ما يسمّى بـ(اللا معيارية)"، أي فقدان الشعور بالانتماء والمعنى، وهو ما يتجلّى بوضوح في الرواية[256].

د. الهوية الطائفية مقابل الهوية الإنسانية

الطائفية تُقدَّم كملاذ أخير للنجاة في مدينة مفككة مثل مدينة الرواية. في ظل غياب الأمن والانتماء الوطني، يتقوقع الناس داخل دوائرهم الطائفية والعشائرية. وهذا بحد ذاته شكل من أشكال المعاناة، حيث لا يستطيع الفرد أن يكون "إنسانًا" إلا إذا انتمى إلى هوية ضيقة تحميه، لكنها في الوقت نفسه تسلبه حريته. "لم تكن مهمتي فقط قتل القتلة، بل قتل الطائفيين أيضًا، لكنهم كانوا كثيرين" – الشّسمه[257]

بهذا المعنى، تصبح الطائفية نظامًا اجتماعيًا يُنتج الخوف، ويؤسّس لثقافة عنف دائم. إنها شكل من أشكال البقاء لا الحياة، وهي التي تحوّل الإنسان إلى "عضو في جماعة"، لا كائنًا مستقلًا. يشير الباحث العراقي عبد الجبار الرفاعي إلى أن "الطائفية في الأدب العراقي المعاصر ليست فقط انتماءً، بل استراتيجية للبقاء وسط دولة فاشلة"[258].

هـ. حضور المدينة ككائن متألم

المدينة في الرواية ليست مجرد مسرح للأحداث، بل شخصية قائمة بذاتها، تتألم، تنهار، تتنفس بصعوبة. البنايات القديمة والأزقة المهجورة والسماء المغطاة بالدخان، كلها عناصر تُشعر القارئ أن بغداد ليست فقط خلفية للحكاية، بل ضحية رئيسية للحرب أيضًا. "بغداد لم تكن

[256] Emile Durkheim, Suicide: A Study in Sociology, 1897

[257] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، ص. 163

[258] عبد الجبار الرفاعي، "الهوية الطائفية في الرواية العراقية"، مجلة الكلمة، عدد 104، 2015

تنام بل كانت تحترق بصمت، تشيّع أبناءها، وتنتظر الصباح بقلق." – الراوي[259] هذا التصوير يجعل من المدينة كائنًا حيًا، يتقاسم المعاناة مع سكانه. إن المدينة ليست فقط ضحية الخراب، بل شاهدٌ حي عليه، وناقلٌ رمزي لذاكرة الألم الجماعي.

تُقدّم رواية فرانكشتاين في بغداد المعاناة الاجتماعية في مدينة مفككة ليس كموضوع سردي، بل كخلفية وجودية للكارثة العراقية. المدينة هنا تنهار من الداخل، لا بسبب العدو الخارجي فقط، بل بسبب غياب الروابط، وانهيار الثقة، وذوبان المعايير الأخلاقية.

[259] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد، ص. 201

الفصل الثالث

رو اية ليل علي بابا الحزين: الهروب من الذاكرة إلى اللا و اقع

تُجسّد رواية ليل علي بابا الحزين لعبد الخالق الركابي نموذجًا سرديًا عميقًا للهروب من واقع مدمَّر إلى فضاء اللا واقع، حيث تتحوّل الذاكرة من وسيلة للارتباط بالحياة إلى عبء ثقيل يدفع بالشخصيات نحو العزلة والانفصال عن العالم الحقيقي. لا تقدّم الرواية واقعًا عراقيًا موثَّقًا فحسب بل تُعيد بناء التجربة العراقية من الداخل وذلك من زاوية الذات المهشّمة التي تبحث عن نجاة نفسية وروحية في ظل الخراب الشامل. في هذا السياق، يظهر المكان البيت الشارع المدينة ليس كحيّز جغرافي فحسب بل كامتداد للذاكرة الجريحة ومرآة لتدهور العلاقة بين الإنسان وبيئته المألوفة. البيت لم يعد موطنًا آمنًا، بل مساحة تُذكّر بالخسارة والشارع أصبح منطقة عبور مترددة أما المدينة فصارت فضاءً خانقًا لا يحتمل الحياة.

ومن خلال هذا التمزّق، تلعب الذاكرة دورًا مضاعفًا، إذ لا تقتصر على استدعاء الماضي، بل تُغذّي حالات من الانفصام النفسي والهروب إلى عوالم متخيَّلة، تعكس حجم الألم الداخلي وهذه الحالة النفسية ليست انكسارًا فرديًا، بل رد فعل إنساني على انهيار المعنى في الواقع الخارجي. وإزاء هذا الانهيار، تستنفر الرواية أدواتها الجمالية، خاصة اللغة الشعرية والرمزية، لتخلق سردًا غير تقليدي، تذوب فيه الحدود بين الحلم والحقيقة وتُصبح فيه اللغة نفسها وسيلة لمقاومة الصمت الداخلي ومحاولة يائسة لترميم الذات المتكسّرة. لا تستخدم الرواية هذه الأدوات كزينة بلاغية، بل كاستراتيجية وجودية تُمكّن الشخصيات من التعبير عن مشاعرها المتخبّطة وأفكارها المرتبكة.

ورغم سوداوية المشهد، فإن الرواية تمنح شخصياتها، حتى تلك المهزومة والمنهارة، حقّها في التعبير والكرامة. فالشخصيات المهمّشة ليست صامتة، بل تعبّر عن تمزّقها بوعيٍ داخلي،

يرفض التحوّل إلى أرقام في نشرات الأخبار. إنها شخصيات تُناضل من أجل البقاء في عالمٍ لا يمنحها معنى، وتُجاهد من أجل قول الحقيقة في واقعٍ يطغى عليه الزيف. وهكذا، تتحوّل ليل علي بابا الحزين إلى شهادة أدبية وإنسانية، عن هشاشة الذاكرة، وتقلّب المكان، وانهيار الذات في زمن فقدَ كل مقومات الثبات.

1. علاقة الإنسان بالمكان

تكشف رواية ليل علي بابا الحزين للروائي العراقي عبد الخالق الركابي عن إعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان والمكان من خلال منظور التهشيم النفسي والوجودي؛ حيث لا يُصوَّر المكان كإطار جغرافي محايد، بل يظهر ككائن حيّ يتقاسم مع الإنسان معاناته ويعكس هشاشته الداخلية. وتبرز بغداد في الرواية كمدينة مثقلة بذاكرة دامية ومرهقة، لا تنقذ من الغرق بل تدفع إليه، فتتحول الأمكنة سواء كانت البيت أو الشارع أو المدينة – إلى رموز للغربة لا للانتماء، وللتشظي لا للهوية.

أ. البيت؛ من الحماية إلى الطرد الرمزي

يُجسّد البيت في الأدب موطنًا للسكينة، ومأوى يحمي الذات من العنف الخارجي، إذ لطالما ارتبط بفكرة الأمان والانتماء والاحتواء. أما في ليل علي بابا الحزين، فإن البيت يتحوّل إلى "مستودع للوجع"، لا يوفر أمانًا ولا ذاكرة نقية. شخصية الراوي تجد نفسها محاصرة داخل جدران كانت يومًا مألوفة، لكنها باتت ثقيلة، تُذكّره بما فُقد لا بما تبقّى. يقول الراوي في لحظة صمت داخلي عميق "بيتي لم يعد بيتي هو الآن بيت الصمت، بيت العيون الغائبة، وصرير الأبواب التي لا تُفتح"[260]. هذا الانفصال عن الفضاء المنزلي ليس مجرد اضطراب نفسي، بل

[260] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص. 39

تمثيل رمزي لحالة اقتلاع وجودي من كل ما هو مألوف. فالبيت، في دلالته العميقة، يختزن الذاكرة والروابط، ولكن حين تتشوّه الذاكرة وتنكسر الروابط، يتحول إلى مساحة طرد رمزي، يعيد إنتاج مشاعر العجز، واللا انتماء والضياع. يستحضر هذا التوظيف مفاهيم غاستون باشلار الذي يؤكد في كتابه "جماليات المكان" أن "البيت هو ذلك الفضاء الذي يختزن أحلامنا الأولى ويعيد إنتاج كينونتنا"[261] ، ولكن الركابي يقلب هذا المفهوم، فتصبح كينونة البطل مستلبة داخل البيت لا متحققة فيه.

ب. الشارع – عبور الخوف واللا يقين

يظهر الشارع في الرواية بوصفه منطقة قلقة، لا يُمكِن التنبؤ بما تخبئه، أشبه بمنطقة رمادية لا تنتمي للداخل (البيت) ولا تمنح حماية الخارج (المجتمع). إنه معبر الخوف، المساحة التي تفصل الإنسان عن ذاته. السير في الشارع في ليل علي بابا الحزين ليس تنقّلًا، بل اختبار للوجود الهشّ في مدينة تحتضر. في أحد المشاهد، يصف البطل خطواته نحو السوق "كان كل متر أقطعه في الشارع يكلّفني خوفًا كاملاً... الخوف من العيون، من الظلال، من الأصوات المتخفّية"[262]. إنّ الشارع لا يفتح أفقًا للتواصل أو الحياة، بل يغلقه عبر استحضار التهديد المستمر. وهذا يتماشى مع ما يراه ميشال دي سيرتو في أطروحته عن "المدينة الحديثة" بأن الشارع الحديث "لم يعد مجرد مساحة عبور، بل أصبح مرآة لتوزيع السلطة والخوف والعزلة"[263]. وهذا التوصيف ينطبق بدقة على شوارع بغداد في الرواية، حيث تحضر الدولة فقط كقوة قمع خفية والآخر يُرى بوصفه تهديدًا دائمًا.

---

[261] Gaston Bachelard, The Poetics of Space, Beacon Press, 1994, p. 6.

[262] عبد الخالق الركابي، المصدر السابق، ص. 77.

[263] Michel de Certeau, The Practice of Everyday Life, University of California Press, 1984

ج. المدينة – من الحاضنة إلى الكابوس

أما المدينة فتمثل في الرواية الحاضنة الكبرى للانهيار. بغداد لا تُروى هنا بوصفها العاصمة، بل كمدينة ممزّقة وجريحة فقدت اسمها ووظيفتها وانتماءها. لم تعد المدينة تجمع، بل تفرّق لا تُلهم الحياة بل تُذكّر بالموت. في الرواية، تتحول بغداد إلى "مساحة للتيه"، حيث لا شيء له وجه ثابت، ولا زمن له إيقاع متماسك. "بغداد كانت تهمس بأسماء الموتى، لا أحد يردّ، لا أحد يدفن أحدًا كانت تمشي ببطء مثل جثة بلا نعش"[264]. هذا المشهد يُبرز المدينة كجسد ميت يمشي، صورة مرعبة لوطن يُفترض أن يكون الأمّ لكنه صار عبئًا وخطرًا. المدينة لم تعد تحمي سكانها، بل صارت تتآمر عليهم، تلتهم ذاكرتهم وتدفعهم نحو اللا واقع ونحو الحلم ونحو الانفصال. إن الانتماء المكاني ينهار في هذه الرواية، تمامًا كما ينهار الانتماء السياسي والاجتماعي والوطني، وكأنما الخراب طال كل بنية للهوية وفي هذا السياق، تتقاطع رؤية الركابي مع ما يطرحه إدوارد سعيد حول "المنفى الداخلي"، حيث يرى أن "الإنسان قد يعيش في وطنه لكنه يشعر بالاقتلاع وكأنه غريب فيه"[265]، وهذا ما يتجلّى في شخصيات الرواية التي تسكن المدينة، لكن دون أن تنتمي إليها أو تشعر بأمان فيها.

في "ليل علي بابا الحزين"، لا توجد أمكنة محايدة. كل بيتٍ ملوّث بالذاكرة، وكل شارعٍ هو معبر إلى قلق، وكل مدينةٍ خزان للخيبة. المكان، بكل مستوياته، يُعاد إنتاجه سرديًا كفضاء للمعاناة لا للحياة، وكجغرافيا نفسية تختزن العطب بدلًا من الراحة. وعليه، تصبح العلاقة بين الإنسان والمكان مرآة للانكسار الروحي العميق وللهشاشة الوجودية التي يعانيها الفرد العراقي

[264] الركابي، المصدر نفسه، ص. 123

[265] Edward Said, Reflections on Exile and Other Essays, Harvard University Press, 2000, p. 173.

بعد سنوات من الحروب والخذلان. إنها رواية المكان الجريح بامتياز، حيث الخراب لا يصيب الجدران فقط، بل يصيب الذات أولًا، فينتقل التمزق من الطين إلى الدم.

2. دور الذاكرة والانفصام النفسي بوصفه رد فعل إنساني على الانهيار

تمثّل الذاكرة في رواية ليل علي بابا الحزين فضاءً مضطربًا ومشحونًا، لا يحتفظ بالماضي كتاريخ بل كمصدر للألم، والتشظي، والندم، مما يجعلها ليست وسيلة للتواصل مع الذات بل عبئًا ثقيلًا يدفع بالشخصيات نحو الانفصال التدريجي عن الواقع. وتشكّل هذه الذاكرة، حين تُرهق الإنسان وتطارده كظلّ، البوابة النفسية الأولى التي تقود إلى الانفصام النفسي، ليس كمرضٍ سريري فقط، بل كردّ فعل طبيعي ومشروع أمام انهيار المعنى، وانسداد أفق النجاة. في الرواية، تُقدّم الشخصيات وهي محمّلة بذكريات لا يمكن احتواؤها، إذ أن الألم لا يُروى بل يُنكر أو يُدفن. ومع استمرار الهروب من هذه الذاكرة القاتلة، تبدأ أعراض الانفصال النفسي بالظهور: الانفصال عن الجسد، عن الحاضر، عن اللغة، وحتى عن الذات. تقول شخصية الراوي "كنتُ أرى نفسي تمشي في الشارع، لكني لم أكن أنا... كنتُ شيئًا آخر، شبيهًا بي، يجرّني نحو أماكن لم أزرها من قبل"[266]. هذه العبارة، رغم بساطتها الظاهرة، تعبّر عن واحدة من أعمق حالات الانفصام النفسي: انقسام الذات إلى ذاتين، واحدة تعيش وآخرى تراقب، وكأنها عاجزة عن التماهي مع ما يحدث لها. وهذا التشظّي هو جوهر العلاقة بين الإنسان والذاكرة في الرواية: حين لا تستطيع الذات أن تحتمل ماضيها، تنفصل عنه بخلق نسخة أخرى منها، نسخة تعيش في الحلم أو في "اللا واقع."

[266] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص. 66.

أ. الذاكرة كعبء لا كهوية

تُشكّل الذاكرة مكوّنًا أساسيًا من الهوية، فهي التي تمنح الإنسان اتساقه الداخلي واستمراريته عبر الزمن. ولكن في ليل علي بابا الحزين، تبدو الذاكرة كقوة هدامة. إنها لا تُعيد الماضي بوصفه سردًا عقلانيًا، بل بوصفه صورًا ممزّقة، مشحونة بالدماء والغياب والخذلان. ومن شدة ضغط الذاكرة، تُجبر الشخصية على الهروب منها، لا مواجهتها، فتصبح الذكرى مرضًا وليست مصدرًا للنضج أو الفهم. تقول الرواية "الذكريات تتسلل إليّ كالدخان، حتى وأنا أحاول النوم... لا صوت، لا صورة، فقط تلك الرائحة التي لا أعرف مصدرها، رائحة الخوف"[267]. في هذا الوصف، تتماهى الذاكرة مع الخوف، وهو ما يجعلها ليست أداة اتصال بالماضي بل جرحًا دائمًا. وهنا يظهر أثر الحرب، لا فقط في الجسد والمكان، بل في البنية الإدراكية للإنسان. يرى عالم النفس جاك لا كان أن "الذات لا تتشكل إلا في وجود مرآة متزنة للذاكرة"، ولكن في حالات الكارثة، تصبح تلك المرآة محطّمة، وينعكس التشظي النفسي في شكل انقسام حاد في الهوية[268].

ب. الانفصام النفسي كآلية دفاع

يتجاوز الانفصام في الرواية كونه اضطرابًا، ليُصبح استراتيجية بقاء. ففي ظل واقع تتفكك فيه القيم والحدود، وتغيب فيه العدالة، يجد الإنسان نفسه بحاجة إلى اختراع "ذات بديلة" تحميه من الانهيار الكامل. هذه الذات تنسحب من العالم الواقعي لتسكن في عالم رمزي، شعري، أو حتى وهمي، حيث لا قوانين ولا ضغوط. وهذا ما يحدث للبطل، الذي يبدأ بتخيّل حوارات مع شخصيات غائبة، ويخلق عالمًا داخليًا خاصًا به، منفصلًا عن الواقع كليًا. في أحد

[267] المصدر نفسه، ص. 78.

[268] Jacques Lacan, Écrits, Routledge, 2006.

المشاهد، يخاطب البطل ظلّه "لا تقل لي إنك أنا... أنا لست هذا الذي يرى الدم ويمشي عليه دون أن يصرخ. أنا شيء آخر، أكثر صدقًا منك"[269].

هنا يتجلى الانفصام كحوار داخلي بين الذات المكسورة والذات المتخيلة التي تحاول النجاة. إنه الانفصال الذي ينتجه الألم حين تعجز اللغة عن التعبير، وحين يصبح الصمت أكثر أمانًا من الاعتراف. يشير هربرت روزنثال إلى أن "الانفصام ليس دائمًا خللًا، بل قد يكون استجابة عضوية لواقع غير قابل للتأويل"[270]، وهو بالضبط ما تحققه الرواية: الإنسان لا ينهار لأنه مريض، بل لأنه لم يعد قادرًا على تحمّل الحاضر، أو الثبات في زمن بلا مستقبل.

ج. من الذاكرة إلى اللا و اقع – الهروب كفعل وجودي

يتحوّل الهروب في مواجهة ضيق الواقع وثقله إلى فعل وجودي، لا إلى مظهر من مظاهر العجز. فشخصيات الرواية لا تفرّ فقط من العالم الخارجي، بل تهرب من ذواتها، من أفكارها وهويتها، إلى فضاءات لا واقعية كالحلم والجنون واللغة والشعر بل وحتى الصمت. وهنا لا يُعدّ الانفصام النفسي مرضًا بقدر ما يُمثّل حالة "شعرية" ومساحة بديلة لإعادة تشكيل الذات بعيدًا عن قسوة الواقع وقبحه. "أحيانًا كنت أصدّق أني شاعر، وأحيانًا أخرى كنت أظن أني ميتٌ نسي أن يدفن نفسه"[271].

هذه المفارقة الوجودية تلخص الروح العامة للرواية: شخصيات بين الحياة والموت، بين الوعي واللاوعي، بين الزمن واللا زمن. وهي بذلك تستعيد ما يُعرف في الأدب الوجودي بـ"الوعي المعلَّق"، حيث لا يستطيع الإنسان الإمساك بزمنه ولا يثق بماضيه، ولا يتوقع مستقبله. في ليل علي بابا الحزين لا تمثل الذاكرة مادةً للسرد بل مادة للانهيار. وكلما حاول الإنسان التماسك بها، زاد

[269] الركابي، المصدر السابق، ص. 121.

[270] Herbert Rosenthal, Trauma and Dissociation in Contemporary Literature, Routledge, 2010

[271] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، ص. 89

انفصاله عنها. وهذا الانفصال أو الانفصام، ليس فقدانًا للعقل بل محاولة للبقاء، للنجاة، للتنفّس داخل كونٍ لم يعد يمنح معناه وبذلك تُحوّل الرواية بذلك التشظي النفسي إلى لغة، والضياع الداخلي إلى بناء سردي، يجعل من الألم مادة للخلق لا للهدم فقط.

3. اللغة الشعرية والرمزية كأدوات لإعادة بناء الذات

تتجاوز اللغة في رواية ليل علي بابا الحزين حدود كونها أداةً لسرد الحكاية لتغدو كيانًا مستقلًا نابضًا بالرمز والانزياح الشعري حيث تتحول الكلمات إلى ملاذ بديل لذاتٍ مهشّمة وسلاح مقاومة في وجه التفكك ومرآة تعكس عمق الألم الداخلي. فالشخصيات بعد أن فقدت وسائلها الطبيعية في التعبير كالمكان والحوار والأمان تلجأ إلى اللغة كملاذ أخير لإعادة ترميم ما تبقى من كينونتها في واقعٍ لا يمنحها لا معنى ولا صوتًا.

أ. اللغة كشكل من أشكال النجاة

تبحث الشخصية في عالم يملأه الخراب عن ملاذٍ أخير فلا تجد سوى اللغة ملجأً يؤويها ومساحة تعبّر من خلالها عن ألمها وشتاتها. لكنها لا تعود تتكلم بلغة يومية بسيطة بل بلغة تقترب من الشعر في كثافتها وإيحاءاتها وتحوّلاتها. هذه اللغة ليست جميلة لمجرد الجمال بل لأنها تمنح الذات الممزقة فرصة لإعادة صياغة نفسها من جديد خارج منطق الألم المباشر. الراوي في إحدى اللحظات يقول "كلما قلتُ جملةً عميقة، شعرتُ بأن شيئًا من جسدي قد التأم."[272]

في هذه العبارة يتجلّى المعنى الأعمق للغة في الرواية: ليست أداة للتواصل-فحسب، بل وسيلة للترميم الداخلي، للتماسك، للبحث عن هوية قابلة للاستمرار رغم التصدع. إن الذات، إذ

[272] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص. 53.

تفقد توازنها الخارجي، تخلق لنفسها توازنًا داخليًا عبر نَسْج عالمها الخاص بالكلمات. يرى بول ريكور أن "اللغة الشعرية لا تصف الواقع، بل تخلقه من جديد"[273]، وهو بالضبط ما تقوم به الشخصيات هنا: حين تنعدم القدرة على التعامل مع الواقع، تُبنى اللغة كبديل حسي ومعنوي.

ب. الرمز كأداة للهروب والتعبير غير المباشر

لا تسير الرواية في خطّ واقعي مباشر، بل تغلّف شخصياتها وأحداثها بطبقة من الرمزية الكثيفة. هذه الرمزية لا تُخفي المعنى بل تعمّقه، وتمنح القارئ مستويات متعددة للتأويل. الليل مثلًا، في عنوان الرواية، لا يشير فقط إلى الظلام الفيزيائي، بل إلى "ليل الذات"، و"ليل الوطن"، و"ليل الإنسان العراقي الذي فقد بوصلته." كان الليل طويلًا جدًا لا ينتهي عند حدود الفجر، بل يمتد إلى النهار وإلى الكلام"[274]. هذه العبارة تخلق مفارقة شعرية؛ الليل لا يُطرد بالشمس، بل يتسرب إلى اليوم كله، في إشارة إلى أن الظلمة هي حالة داخلية لا خارجية. وهنا تتجلّى قوة الرمز في التعبير عن حالات العجز، دون الحاجة إلى خطاب مباشر. وكأن اللغة تقول ما لا يُقال، وتبوح بما يُخاف من مواجهته. تعمل الرموز في الرواية ككائنات حية: الليل، الظل، الصمت، المرايا، كلها ليست عناصر محايدة بل أدوات سردية تمثل الخوف، الانكسار، أو الرغبة في النسيان.

ج. تفكيك الواقع عبر الانزياح الشعري

يُلاحظ في أسلوب عبد الخالق الركابي استخدامه المكثّف للصور البلاغية والانزياحات الشعرية والتي تُسهم في خلق حالة سردية ملتبسة تقع على تخوم الواقع والحلم. هذا الأسلوب يُمكّن القارئ من العيش داخل مناخ الرواية المضطرب حيث تتكسّر اللغة العادية وتُستبدل

[273] Paul Ricoeur, The Rule of Metaphor, Routledge, 2003.

[274] عبد الخالق الركابي، المصدر السابق، ص. 91

بلغة مشبعة بالتأمل والدهشة. ففي لحظة تأمل يصف البطل بغداد قائلًا "بغداد كعاشقةٍ فقدت حبيبها، تلبس السواد ولا تبكي لأنها نسيت كيف تبكي."[275] هذا الوصف الشعري لا يعبّر عن مدينة فقط، بل عن روح وطن مهزوم، وشعب يعيش في حداد دائم. إن الصور البلاغية هنا تُقوّي المعنى لا تُضعفه، وتفتح أمام القارئ أبوابًا جديدة لفهم المعاناة، من خلال الشعر الذي تحوّل الألم إلى بلاغة. يقترب هذا الطرح من مفهوم "لغة الجرح" عند جوليا كريستيفا، التي ترى أن "الذات المجروحة لا تتكلم إلا عبر اللغة المجازية"[276].

د. الشعر كبديل للهوية المنهارة

تلجأ الذات إلى الشعر حين تفشل أدوات الواقع من سياسة وعائلة وطائفة ودولة في منحها هويةً واضحة أو شعورًا بالانتماء. فالشعر يصبح حينها ملاذًا لإعادة تشكيل الكينونة، ومساحةً بديلة للتعبير عن عمق التمزق الداخلي. فالشعر ليس فقط نمطًا لغويًا، بل وسيلة وجودية لإثبات الذات. الشخصيات التي فقدت كل أشكال السيطرة على حياتها، تحاول عبر اللغة الشعرية أن تخلق عالمًا خاصًا بها أكثر عدلًا وأقل قسوة. وفي إحدى اللحظات يقول البطل"أنا شاعرٌ لأن الواقع كاذب وأنا لا أثق إلا بما أخلق بنفسي."[277] هنا يتحول الشعر إلى فعل مقاومة، وخلق، وتعالٍ على الانهيار. فبينما تموت الشخصيات في الواقع، تبقى حية في اللغة، حرة في الشعر، عصيّة على الخراب.

تُقدّم "ليل علي بابا الحزين" نموذجًا سرديًا متقدمًا في توظيف اللغة كوسيلة لإعادة بناء الذات، لا بوصفها أداة وصف فحسب، بل بوصفها ملاذًا نفسيًا وجماليًا في عالم قاسٍ. فاللغة الشعرية والرمزية تمكّن الذات من الهروب من قبح الواقع دون أن تفقد حقيقتها، وتُحوّل

---

[275] المصدر نفسه، ص. 112

[276] Julia Kristeva, Black Sun: Depression and Melancholia, Columbia University Press, 1992.

[277] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص. 138

الانهيار إلى تأمل، والألم إلى بلاغة. وهكذا، تصبح الرواية درسًا أدبيًا وإنسانيًا في كيف يمكن للغة، حين تخرج من أسر الخطاب الواقعي، أن تُنقذ ما تبقى من الإنسان.

4. استرداد الكرامة والتعبير للشخصيات المهزومة من خلال البناء السردي

يتجلّى جوهر الإنسانية الأدبية في رواية ليل علي بابا الحزين في قدرة الكاتب على منح الشخصيات الهامشية والمهزومة تلك التي أقصتها الحياة وظلمها الواقع صوتًا سرديًا متماسكًا، وكرامة رمزية توازي في عمق الألم وقوة التعبير كرامة الأبطال التاريخيين. لا يقدّم عبد الخالق الركابي شخصياته كضحايا عاجزين، بل ككائنات هشة ولكن واعية مسحوقة ولكن تنبض بالحياة، مكسورة ولكن متشبثة بما تبقى من إنسانية. إن منح الكرامة للشخصية المهزومة في الرواية ليس موقفًا شعبيًا أو عاطفيًا، بل خيار فني وفلسفي، يؤكد أن التعبير حق وجودي لا يُنتزع حتى في لحظات الانهيار الكامل.

أ. الصوت الداخلي بوصفه مساحة للكرامة

تتجلّى كرامة الشخصية المهزومة في الرواية من خلال حضورها الصوتي. فحتى حين تُصادر منها أدوات القوة أو السيطرة، تبقى قادرة على "التفكير"، و"الحلم"، و"التساؤل"، و"السخرية"، و"الشك". البطل لا يُقدّم كشخصية قوية خارجيًا، لكنه يحتفظ بوعي نقدي حاد. إنه يرى عبث الواقع ويواجهه بالأسئلة لا بالصراخ. تقول الشخصية "لا أريد أن أكون بطلاً فقط أريد أن أفهم لماذا يحدث كل هذا؟ ولماذا أنا هنا؟"[278]

هذه الجملة تُجسّد جوهر الكرامة في الرواية: أن يُمنح المهزوم حق طرح السؤال، لا كنوع من الرفاهية، بل كجزء من حقه في الوجود. إن امتلاك السؤال في زمن القهر هو تعبير عن بقاء

[278] عبد الخالق الركابي، ليل علي بابا الحزين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص. 101

العقل حيًا، والكرامة قائمة .يرى إيمانويل ليفيناس أن "الكرامة لا تُقاس بالقوة، بل بالقدرة على مخاطبة الآخر من موقع الألم"[279]، وهذا بالضبط ما تفعله الشخصيات هنا، حيث تعبّر من الهامش، من تحت الركام.

ب. الاعتراف بالهزيمة دون نزع المعنى

لا تُحاول الرواية أن تُجمّل الهزيمة أو تخفيها، لكنها في الوقت ذاته لا تُحولها إلى نفي للذات. فالهزيمة ليست نفيًا للكرامة، بل أحيانًا بابًا لها. الشخصيات في الرواية لا تُمنَح نصيبها من الاحترام لأنها قوية، بل لأنها صادقة، قادرة على الاعتراف بالخذلان، والتعبير عنه دون انكسار داخلي كامل. وفي لحظة مؤلمة، يقول أحد الشخصيات "أنا لست رجلًا صالحًا، لكني لم أقتل أحدًا وهذا يكفيني في مدينةٍ يتساوى فيها القاتل بالمقتول."[280]

في هذه الجملة، تبرز الكرامة في أن الشخصية لا تطلب البطولة، بل تسعى فقط لحماية إنسانيتها. وهذا جوهر إنساني عميق: القدرة على تمييز الخير من الشر حتى في أحلك اللحظات.

ج. اللغة كوسيلة لإعادة الاعتبار

تُمنَح الشخصيات في ليل علي بابا الحزين مساحة لغوية فريدة، تنقذها من الصمت، وتجعلها قابلة للتواصل، للحوار، للاعتراف. حتى الشخصيات المنسية، مثل النساء المسنّات، أو الأطفال، أو المجانين، تُقدَّم بأصوات تلامس الشعر. اللغة هنا ليست مجرد نقل للحدث، بل فعل رمزي يُعيد لهؤلاء مكانتهم."المرأة العجوز في الركن لم تكن تتكلم كثيرًا، لكنها حين تنطق، كان صوتها يحمل صدى الشوارع القديمة، وصبر البيوت المظلمة"[281]. الركابي هنا لا يترك هذه الشخصيات تتلاشى في الظل، بل يمنحها لغتها الخاصة، لغتها التي تشبهها، لغتها التي تخرج من

---

[279] Emmanuel Levinas, Totality and Infinity, Duquesne University Press, 1969.

[280] عبد الخالق الركابي، المصدر نفسه، ص. 118.

[281] المصدر نفسه، ص. 74.

العمق، وتشهد على زمنها المهزوم. يرى مارتن بوبر أن "كل من يمتلك كلمة داخلية لا يزال حيًّا، حتى لو خسر كل شيء"[282]، وهذا ما تتبنّاه الرواية بدقة. فالفقد لا يعني الغياب، ما دامت هناك كلمة تُقال.

د. التهميش كفضاء للوعي

الطريف والمؤلم في آن أن الشخصيات المهزومة في الرواية غالبًا ما تكون أكثر وعيًا من الشخصيات القوية أو السلطوية. فحين يفقد الإنسان موقعه الاجتماعي أو سلطته، يبدأ برؤية أوسع، أكثر صراحة، أكثر نقدًا. وهكذا، يُصبح الهامش مركزًا للمعرفة، لا للغياب. الرواية هنا لا تُنقذ الشخصيات من مصيرها، لكنها تُنقذها من التجاهل. إن منح المهزومين صوتًا، وحضورًا لغويًا، ومساحة للتأمل، هو في حد ذاته فعل استرداد للكرامة في زمن تُصادر فيه حتى أصوات الموتى. فالرواية لا تبني أبطالًا، بل تروي معاناة بشرٍ بسطاء، يقفون على حافة الانهيار، لكنهم لا يسقطون نهائيًا، لأنهم يتكلمون.

في رواية ليل علي بابا الحزين، تُصبح الكتابة فعل إنصاف للمهمّشين، وإنقاذ للمهزومين من النسيان. تُقدّم الرواية شخصياتها بلا مكياج بطولي، لكنها لا تتركهم في الظل. تمنحهم صوتًا، ومساحة، واحترامًا نادرًا، وتُذكّر القارئ بأن الكرامة لا تحتاج إلى سلطة أو نصر، بل إلى صدق إنساني، ولغة تستطيع التعبير حتى من وسط الرماد. إن المهزومين في الرواية لا يُمنحون فقط حق الحياة، بل أيضًا حق الحكاية... وذاك في الأدب، هو أرفع أشكال الاحترام.

[282] Martin Buber, I and Thou, Charles Scribner's Sons, 1970.

خاتمة البحث ونتائجه

تسعى هذه الرسالة إلى الكشف عن ملامح الإنسان في الرواية العراقية المعاصرة لا بوصفه بطلًا خياليًا أو شخصية نمطية بل ككائن حيٍّ هشّ ومرَّ بتجارب صادمة، وعاش فصولًا من القهر والمحو، والتشظي. وقد جاءت هذه الدراسة استجابة لأسئلة جوهرية شغلت الباحث منذ البدء، وهي ما هي صورة الإنسان في الرواية العراقية الحربية؟ كيف تتجلى الإنسانية في نصوصٍ كُتبت تحت وطأة الحرب، وتفكك الدولة، وتفتت المجتمع؟ هل يستطيع الأدب أن يسترد الكرامة لمن فُقدت هويتهم؟ وهل يمكن للكلمة أن تُعيد الاعتبار للذين لم يعودوا يُرون في مرآة الإعلام والسياسة؟

انطلقت الدراسة من التأصيل التاريخي للرواية العربية في العراق حيث تم في الباب الأول تتبع نشأة الرواية وتحولاتها الشكلية والموضوعية، وصولًا إلى لحظة النضج التي صاحبت دخول العراق في نفق الحروب الطويلة. فالرواية العراقية ليست ابنة لحظة واحدة بل نتاج لتاريخ طويل من التفاعل مع التغيرات الفكرية والاجتماعية والسياسية، وقد أسهمت النزاعات المتتالية في تعميق حساسية الكتابة العراقية تجاه مفاهيم مثل الانتماء والهوية والجسد والكرامة. كما أن السرد العراقي لم يكن معزولًا عن التحولات التي أصابت بنية المجتمع بل تفاعل معها وتوغّل في عمقها وهو ما يظهر بوضوح في المتون السردية لما بعد الحروب.

وفي الباب الثاني تم استعراض أثر الحروب بدءًا من الحروب الخليجية وحتى الغزو الأمريكي على الأدب العراقي. وقد تبيّن من خلال الدراسة أن الحروب لا تُدمّر المدن فقط بل تُعيد إنتاج الواقع السردي وتفرض تحولات قسرية على طبيعة اللغة والبناء الفني. لقد تغيّرت الوظيفة الجمالية للنص الروائي وتحوّلت إلى وظيفة توثيقية إنسانية، تُعيد تمثيل الإنسان لا كعنصر روائي بل كجوهر مفقود وسط ركام العنف. هنا، لم يكن الأدب انعكاسًا سطحيًا للواقع بل

"وثيقة ضمير"[283] تتحدى النسيان وتتمسك بالتاريخ من خلال الحكي الإنساني لا الخطاب السياسي. أما الباب الثالث فقد ألقى الضوء على انعكاسات الحروب على المجتمع العراقي من خلال الروايات، فأظهر كيف تغيّر مفهوم الهوية الفردية والجماعية، وكيف أصبح المكان ذاكرًا محمّلا بالرعب والحب والانكسارات. لقد أظهرت الروايات العراقية أن الفرد لم يعد يتعامل مع الوطن كمصدر للأمان بل كحقل ملغّم بالخذلان وكمساحة يتهددها المحو، وهذا ما جعل من السرد محاولة يائسة لإعادة بناء وطن متخيَّل أكثر عدلًا من الواقع. ثم جاء الباب الرابع ليضع الأسس المفاهيمية لمصطلح "الإنسانية" كما تتجلى في الرواية وتطرّق لتعريفها من منظور فلسفي واجتماعي وأدبي. وتبيّن أن الإنسانية في الرواية الحربية لا تُطرح كمفهوم مثالي أو كقيمة أخلاقية جامدة بل كأداة مقاومة فكرية تُحاور الخراب وتتحدى الصمت. لقد ظهرت العلاقات الاجتماعية والهوية والكرامة والحب واللغة نفسها كحقول تأويلية يتم عبرها إنتاج المعنى واستعادة الإنسان. فالإنسان في الرواية العراقية لا يُنقذ بالسلاح بل بالكلمة، ليس بالثأر بل بالاعتراف بضعفه، وبحثه عن معنى في ظلام الأحداث.

وفي الباب الخامس وُظّفت هذه الخلفية النظرية والتاريخية في تحليل ثلاث روايات عراقية بارزة؛ "وحدها شجرة الرمان" و"فرانكشتاين في بغداد" و"ليل علي بابا الحزين". وقد أظهرت هذه النصوص أن الرواية العراقية كانت تملك أدواتها الخاصة في تمثيل المأساة وتفكيك البنية النفسية والاجتماعية للإنسان المتورط في العنف. وفي "وحدها شجرة الرمان" تتجسد المأساة في شخصية جواد الذي يتحوّل إلى خبير في الموت لكنه مع كل جثة يغسلها يستعيد شيئًا من الكرامة الإنسانية المهدورة[284]. أما في "فرانكشتاين في بغداد" فيظهر "الشسمه" كمركب رمزي

[283] عبد الله إدريس، الأدب في زمن الحرب: صوت الضحية وسلطة السرد .دار الرافدين، 2017، ص. 58.

[284] سنان أنطون .وحدها شجرة الرمان .منشورات الجمل، 2010، الفصل الأخير.

يطرح أسئلة فلسفية حول العدل والانتقام، والهوية والجسد كأرشيف للذاكرة الممزقة[285].

نُلامس الحافة النفسية للإنسان العراقي في "ليل علي بابا الحزين"حيث يصبح اللا واقع ملاذًا من الذاكرة وتتحوّل اللغة الشعرية إلى وسيلة وحيدة لاستعادة الذات وسط عالم متنافر.

من خلال دراسة هذه النصوص تبين أن الرواية العراقية استطاعت أن تنتج خطابًا إنسانيًا خاصًا بها، خطابًا لا يسعى إلى حلّ الأزمات بل إلى تفكيكها ولا يتستر على الألم بل يُواجهه ويمنحه أسماء ووجوهًا. لقد برزت مفاهيم مثل الصمت، والذاكرة والجسد والبيت والشارع كأركان إنسانية يتم من خلالها تقديم صورة الإنسان العراقي ليس كمجرد ضحية بل كفاعل في استعادة وجوده، ولو عبر الحبر. وهكذا، نستنتج أن الرواية العراقية المعاصرة – خاصة في أدب ما بعد 2003م لم تكتفِ بأن تكون شهادة تاريخية بل تحولت إلى فعل وجودي وأخلاقي، يطالب العالم بالإنصات لصوت الإنسان العراقي.

لقد مارست الرواية وظيفتها القصوى في زمن العجز وأدت دورها كمجال لصناعة الذاكرة وإعادة الاعتبار للضعيف، وللشخصيات المهمّشة التي لم تجد من يمثلها في الخطابات الرسمية. "فالرواية تُنقذ الإنسان من النسيان وتجعله حيًا حتى بعد موته في المعارك وهي بذلك تُعيد ترتيب أولويات القيم: الكرامة قبل الانتماء والذاكرة قبل الأيديولوجيا، والإنسان قبل كل شيء.

[285] أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد .دار الجمل، 2013، ص. 112 وما بعدها.

نتائج البحث

- تجلّت القيم الإنسانية في رواية وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون و"فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداوي و"ليل علي بابا الحزين" لعبد الخالق الركابي كمحور مركزي في السرد الروائي حيث تمثل مفاهيمها مثل الكرامة والعدالة والرحمة نواة أساسية لبنية الرواية.
- تأتي هذه الروايات بإبراز القسوة والظلم والجور والهمجية واللاعدالة بدون خوف لومة لائم، ورفعها بين المجتمع وتقديمها نماذج إنسانية تُقوي ضمير الأمة.
- تميزت الروايات المختارة في ربط الإنسانية بالرمزية بصراعات الحياة والموت والذكريات في سياق الحرب.
- تجاوزت الرواية العراقية الحديثة برسالتها وأفكارها من مستوى الوطن إلى عالميته خلال معالجتها القضايا الإنسانية، تتعلق مع تجارب الشعوب الأخرى في الحروب.
- أجابت الرواية عن أسئلة حول الإنسانية من حيث أنها اعتبار الإنسان الآخرين من الناس إخوة وأصدقاء دون أعداء وخمصاء.

توصيات البحث

- تشجيع الدراسات الأدبية المتخصصة في تحليل القيم الإنسانية
- دمج هذه الروايات في مناهج الأدب العربي في الجامعات
- الاهتمام بترجمة الروايات العراقية المعاصرة إلى لغات عالمية
- إجراء دراسات مقارنة بين الرواية العراقية المعاصرة وروايات بلدان أخرى شهدت الحروب والصراعات

المصادروالمراجع

المصادر بالعربية

1. محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري. دار العودة، بيروت، 1971.
2. غائب طعمة فرمان، النخلة والجيران. دار المدى، دمشق، 1966.
3. محمد خضير، المملكة السوداء. دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1985.
4. سعدي يوسف، الأعمال الشعرية الكاملة. دار الشروق، القاهرة، 2004.
5. عبد الوهاب البياتي، قصائد مختارة. دار العودة، بيروت، 1978.
6. أحمد عبد السعدي، الأدب العراقي تحت الرقابة: دراسة في السياسة والأدب. دار النشر العراقية، بغداد، 1998.
7. محمد خضير، زمن الخيول البيضاء. دار الساقي، بيروت، 1992.
8. عبد الرحمن منيف، الأهوار. منشورات بغداد، بغداد، 1985.
9. أحمد سعداوي، فرانكشتاين في بغداد. دار الجمل، بيروت، 2013.
10. سعدي يوسف، قصائد تحت الحصار. دار العودة، بيروت، 1995.
11. عبد الله صخي، الوشم. دار الفارابي، بيروت، 2000.
12. نازك الملائكة، قصائد من زمن الحرب. دار الشروق، بغداد، 1985.
13. محمد جبار، تاريخ الأدب العراقي. دار الفكر للطباعة والنشر، بغداد، 2008.
14. جميل الطائي، النقد الأدبي في العراق. دار الثقافة للطباعة والنشر، بغداد، 2015.
15. فاضل السامرائي، الرواية في العراق: الواقع والتحديات. دار الهلال للنشر والتوزيع، بغداد، 2019.

16. فاضل السعدي، اللغة العربية في الأدب العراقي المعاصر. دار الغرباء للنشر، بيروت، 2017.

17. سهى علي، عراقية. دار الفارابي، بيروت، 2018.

18. عادل كاظم، السواد الأبيض. دار المستقبل، بغداد، 2020.

19. جمانة توفيق، نساء بغداد. دار النشر، بغداد، 2021.

20. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي. دار المعرفة، بيروت، 1993.

21. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي. دار الجيل، بيروت، 1986

22. أبو الحسن علي الحسني الندوي، مختارات من الأدب العربي، الجزء الأول. مؤسسة الصحافة والنشر، لندن، 2014.

23. نادية محمود فرحان، محاضرات في تاريخ العراق القديم. قسم التاريخ، جامعة الأنبار، 2015.

24. غاستون بوتول، هذه هي الحرب، ترجمة مروان القنواتي. منشورات عويدات، بيروت، 1981.

25. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية. دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

المصادر بالإنجليزية

26. S. Biddle, Military Power: Explaining Victory and Defeat in Modern Battle. Princeton University Press, 2006.

27. Allawi, The Occupation of Iraq: Winning the War, Losing the Peace. Yale University Press, 2007.

28. R. Chandrasekaran, Imperial Life in the Emerald City: Inside Iraq's Green Zone. Alfred A. Knopf, 2006.

29. L. Diamond, Squandered Victory: The American Occupation and the Bungled Effort to Bring Democracy to Iraq. Times Books, 2005.

30. T. Dodge, Inventing Iraq: The Failure of Nation Building and a History Denied. Columbia University Press, 2003.

31. D. Filkins, The Forever War. Knopf, 2008.

32. Viktor E. Frankl, Man's Search for Meaning. Beacon Press, 2006.

33. M. R. Gordon & B. E. Trainor, Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq. Pantheon Books, 2006.

34. Yuval Noah Harari, Sapiens: A Brief History of Humankind. Harper, 2015.

35. Malkasian, Illusions of Victory: The Anbar Awakening and the Rise of the Islamic State. Oxford University Press, 2017.

36. V. Nasr, The Shia Revival: How Conflicts Within Islam Will Shape the Future. W.W. Norton & Company, 2006.

37. Steven Pinker, The Better Angels of Our Nature: Why Violence Has Declined. Viking, 2011.

38. T. E. Ricks, Fiasco: The American Military Adventure in Iraq. Penguin Press, 2006.

39. United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR). "Iraq: 2007 Country Operations Plan", 2007.

40. United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR). "Iraq: 2008 Global Appeal", 2008.

المجلات والدوريات

41. مجلةBabel ، "مقالات نقدية عن الأدب العربي"، https://journals.openedition.org/babel/5043

42. مجلةZhooraladab ، https://zhooraladab.com

43. مجلةEbjed ، https://ebjed.com/en/single.php?view=1052

44. مجلة العرب، "مقالات نقدية"، https://www.alarab.co.uk/pdf/2014/06/01-06/p1000.pdf

45. تقنيات السرد في الرواية العراقية المعاصرة"، مجلة جامعة بغداد، 2018.

المو اقع الإلكترونية

46. الجزيرة نت، الثقافة، "مقالات حول الأدب العراقي"، https://www.aljazeera.net/culture/2016/3/28

47. البنى، "أرشيف المقالات الأدبية https://www.al-binaa.com/archives/article/50358

48. Berobooks، "مراجعات ونقد أدبي"، https://berobooks.com/2019/04/07

49. موقع الميرجا، قسم القراءة، https://mail.almerja.com/reading.php?idm=102885

CERTIFICATE

This is to certify that the thesis entitled **'Humanity in the Contemporary Iraqi Arabic Novels; With Special Reference to the Selected War Novels'** submitted for the award of the Degree of Doctor of Philosophy in the Faculty of Languages, University of Calicut, is a bona fide study and research work conducted by **Mr. Muhammed Shan** under my guidance and supervision.

No part of this thesis has hitherto been submitted earlier for the award of any degree / diploma in any University and also certified that no adjudicators have recommended any modification in the thesis submitted by him.

Dr. Yoosuf V K
Assistant Professor
WMO Arts & Science College
Muttil, Wayanad &
Research Guide, Department of Arabic
Rouzathul Uloom Arabic College
Feroke, Kozhikode

Dr. YOOSUF V.K.M.A.,M.Ed
Assistant Professor
Department of Arabic
W.M.O Arts & Science College
Muttil, Wayanad, Kerala - 673122
Research Guide, R.U.A College, Farook
University of Calicut

Place: Feroke
Date: 12 March 2026

Scanned with OKEN Scanner

DECLARATION

I hereby declare that the work presented in the thesis entitled **'Humanity in the Contemporary Iraqi Arabic Novels; With Special Reference to the Selected War Novels'** is based on the original work done by me under the guidance of **Dr. Yoosuf V. K.**, Assistant Professor, WMO Arts & Science College, Muttil, Wayanad & Research Guide, Department of Arabic, Rouzathul Uloom Arabic College, Feroke, Kozhikode, and has not been included in any other thesis submitted previously for the award of any degree. The contents of the thesis are undergone plagiarism check using iThenticate software at C.H.M.K. Library, University of Calicut, and the similarity index found to be within the permissible limit. I also declare that the thesis is free from AI generated content.

Place: Feroke
Date: 12 March 2026

Muhammed Shan
(Research Scholar)

Dr. Yoosuf V K
(Supervising Teacher)

Dr. YOOSUF.V.K. MA, Ph.D
Assistant Professor
Department of Arabic
W.M.O Arts & Science College
Muttil, Wayanad, Kerala - 673122
Research Guide, R.U.A College, Farook
University of Calicut

Scanned with OKEN Scanner

HUMANITY IN THE CONTEMPORARY IRAQI ARABIC NOVELS; WITH SPECIAL REFERENCE TO THE SELECTED WAR NOVELS

THESIS SUBMITTED FOR THE DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY IN ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE

BY

MUHAMMED SHAN

UNDER THE SUPERVISION OF

DR. YOOSUF V K

ASSISTANT PROFESSOR, WMO ARTS & SCIENCE COLLEGE

MUTTIL, WAYANAD

AND RESEARCH GUIDE, DEPARTMENT OF ARABIC

ROUZATHUL ULOOM ARABIC COLLEGE, FEROKE

KOZHIKODE, KERALA

DEPARTMENT OF ARABIC

ROUZATHUL ULOOM ARABIC COLLEGE, FEROKE

UNIVERSITY OF CALICUT

KERALA, INDIA

2026